

# كليلة و دمنة

يبدأ



## مقدمة كليلة ودمنة لعلي بن الشاه الفارسي

أما بعد فهذه مقدمة نذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندي رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه كليلة ودمنة وجعله على ألسن البهائم والطيور صيانة لغرضه الأقصى فيه من العوام، وضئاً بما ضمنه عن الطعام، وتنزيهاً للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيونها، إذ هي للفيلسوف مندوحة، ولخاطره مفتوحة، ولمحبيها تنقيف ولطالبيها تشريف، ونذكر السبب الذي من أجله أنفذ كسرى أنو شروان ملك الفرس برزويه رأس الأطباء إلى بلاد الهند لأجل كتاب كليلة ودمنة وما كان من تلطف برزويه عند دخوله إلى الهند حتى وقع على الرجل الذي استنسخه له سرّاً من خزانة الملك ليلاً مع ما وجد من كتب علماء الهند، ويجيئه بالكتاب مع الشطرنج التامة التي كانت عشرة في عشرة. ونذكر مقدار فضيلته ونخص أهل اقتنائه على الالتفات إلى دراسته والمداومة على فراسته وفيما ضمن من فوائده ومنافعه ويرى أنها أفضل من كل لذة صرفت إليها همته والنظر إلى باطن كلامه وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه. ونذكر حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً والسبب الذي من أجله وضع بزرجمهر ابن البختان مقدمة في أصل الكتاب وهو باب مفرد سماه باب برزويه المتطبيب، ويذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وأوان مولده إلى أن بلغ التأديب ورغب في التدوين وأحب الحكمة وتفنن في أنائها وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب.

## كتاب كليلة ودمنة

قال علي بن الشاه الفارسي: كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف الهندي لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما انتصر على الملوك الذين كانوا بناحية المغرب سار يريد ملوك المشرق من فرس وغيرهم. فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه ويسالم من وادعه من ملوك الفرس وهم الطبقة الأولى حتى ظهر عليهم وقهر من ناواه وتغلب على من عاداه فتفرقوا طرائق، وتمزقوا خرائق، فتوجه نحو بلاد الصين فبدأ بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول في ملته وولايته. وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس ومنعة ومراس يقال له فورك. فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب في التآلب عليه، وجمع له العدة في أسرع مدة من الفيلة المفروزة للحروب، والسباع المضرة للوثوب مع الخيل المسومة، والرماح المقومة، والسيوف القواطع، والحراب اللوامع.

فلما قرب ذو القرنين من فورك الهندي وبلغه ما قد أعد له من الخيل، التي كأنها قطع الليل، مما لم يلقه بمثله أحد ممن كان يقصده من الملوك الذي كانوا في الأقاليم تخوف من تقصير يقع به إن عجل المبارزة.

وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكايد مع حسن تدبير وتجربة فرأى بعد إعمال الحيلة التأهب والترفق. فاحتقر خندقاً على عسكره وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير في أمره وكيف ينبغي الإيقاع بهذا الملك. فاستدعى بالمنجمين وأمرهم باختيار يوم ووقت تكون له فيه سعادة لملاقاة ملك الهند والنصرة عليه. فاشتغلوا بذلك. وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ المشهورين من صناعاتها بالحقق من كل صنف. فنتجت له همته ودلته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه بأن يصنعوا له خيلاً من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري به وإذا دُفعت مرت سراعاً. وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت وأن يلبس الفارس آلة الحرب ويقدم ذلك أمام الصف في القلب وقت ما يلتقي الجمعان لتضرم فيها النيران. فإن الفيلة إذا ألقت خراطيمها على الفرسان وهي حامية جلفت. وأوعز إلى الصناع بالتشمير والفراغ منها. فجدوا في ذلك وعجلوا.

وقرب أيضاً اختيار المنجمين لليوم. فأعاد ذو القرنين رسله إلى فورك ملك الهند يدعوه إلى طاعته والإذعان لدولته. فأجاب جواب مُصير على مخالفته مقيم على محاربتة.

فلما رأى ذو القرنين عزمته سار إليه بأهبيته وقدم فورك الفيلة أمامه ودفعت الرجال تلك الخيل النحاس وعليها التماثيل كالفرسان فأقبلت الفيلة نحوها وألقت خراطيمها عليها. فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها من الرجال المقاتلة وداستهم تحت أرجلها ومضت مهولة هاربة لا تلوي على شيء ولا تمر بأحد إلا وطنته. وتقطع فورك وجمعه وتبعهم أصحاب الإسكندر وأثنوا فيهم الجراح. وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز إليّ وابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم على الفناء. فإنه ليس من السياسة أن يرمي الملك عدته في المهالك المتلفة، والمواضع المحففة، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه. فابرز إليّ ودع الجند فأينا قهر صاحبه فهو الأسعد.

فلما سمع فورك من ذي القرنين هذا الكلام دعته نفسه إلى ملاقاته طمعاً فيه فسارع إليه وظن ذلك فرصة. فبرز إليه الإسكندر فتجالدا على ظهرَي فرسهما ساعات من النهار ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة ولم

بزالا يتعاركان. فلما أعياء الإسكندر أمر فورك ولم يجد له فرصة ولا حيلة أوقع بعسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض والعساكر. فالتفت فورك عندما سمع الزعفة وظنها مكيدة وقعت في عسكره فعاجله ذو القرنين بضربة أمالته عن سرجه وأتبعها بأخرى فوقع إلى الأرض. فلما رأى الجند ما نزل بهم وما صار إليه ملكهم حملوا على الإسكندر فقاتلوه قتالاً شديداً أحبوا معه الموت.

فوعدهم من نفسه بالإحسان ومنحه الله أكتافهم. فاستولى على بلادهم وملك عليهم رجلاً من ثقافته وأقام بالهند حتى استوثق له ما يريد من أمورهم واتفاق كلمتهم. ثم انصرف من الهند وخلف ذلك الرجل عليهم ومضى متوجهاً نحو ما قصد له.

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بجيوشه تغير الهنود عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم وقالوا: ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة ولا العامة أن يملكوا عليهم رجلاً ليس منهم ولا من أهل بيوتهم. فإنه لا يزال يستسلفهم. ثم أجمعوا على أن يملكوا عليهم رجلاً من أولاد ملوكهم فملكوا عليهم ملكاً يقال له دبشليم وخلعوا الرجل الذي ملكه عليهم الإسكندر.

فلما استقر لهذا الملك واستوثق له الأمر طغى وعنى وتجبر وتكبر وجعل يغزو من حوله من الملوك. وكان مع ذلك مظفراً منصوراً فهابته الملوك وخافته الرعية. فلما رأى ما هو عليه من الملك والسطوة عبث بالرعية واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم وكان لا يرتقي حاله إلا ازداد عتواً ومكث على ذلك برهة من دهره.

وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة فاضل حكيم يعرف بفضلته ويرجع إليه في قوله يقال له يديا الفيلسوف. فلما رأى ما عليه الملك من ظلم الرعية فكر في وجه الحيلة في صرفه عما هو عليه وردّه إلى العدل والإنصاف، فجمع لذلك تلامذته وقال: هل تعلمون ما أريد أن أشارككم فيه؟ قالوا: لا. قال: اعلموا أنني أجلت الفكرة، وأطلت العبرة في دبشليم الملك وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشرور ورداءة السيرة وسوء عسيرته مع الرعية. وإننا نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك لنردّهم إلى فعل الخير ولزوم العدل. ومتى أغفلنا ذلك وأهملناه لزمنا من وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذور إلينا ألم الجهال وبلغ إليهم أننا كنا في أنفسهم أجهل منهم وفي عيونهم أقل منهم.

وليس الرأي عندي الجلاء عن المواطن وليس يسعنا في الحكمة أن نبقي الملك على ما هو عليه من رداءة السيرة وسوء الطريقة. ولا يمكننا مجاهدته بغير أسنتنا. ولو ذهبنا لنستعين عليه بغيرنا لما تهتأت لنا معاودته ولو أحس منها مخالفتنا وإنكارنا لسوء سريرته لكان في ذلك بوارنا. وقد تعلمون أن مجاورة الكلب والسبع والحية والثور للوثوب على طيب الوطن ونضارة العيش تغري بالفساد، وأن الفيلسوف لخليق أن تكون همته إلى ما يحفظ به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور ويدفع المخوف لاجتلاب المحبوب. وقد كنت أسمع أن فيلسوفاً كتب إلى تلميذ له يقول له: إن المجاورة للرجال السوء والمصاحبة لهم كراكب البحر إن سلم من الغرق لن يسلم من الخوف. فإذا هو أورد نفسه موارد الهلكات ومصادر المخوفات غدّ من البهائم التي لا أنفس لها لأن الحيوان البهيمة يقد خصّ في طبائعه بمعرفة ما يكتسب فيه النفع ويجتنب المكروه. وذلك أن الحيوانات لم تورّد بأنفسها مورداً فيه مهلكها وأنها متى أشرفت على موردٍ مهلك لها مالت بطبائعها التي ركبّت فيها وتباعدت عنه شحاً بأنفسها. وقد جمعتكم لهذا الأمر لأنكم أسرتي وموضع سرّي وبكم أعتضد وعليكم أعتمد. فإن الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيثما كان هو ضائع ولا ناصر له.

والمثل في ذلك أن قنبرة اتخذت أدحية وعششت فيها وباضت على طريق الفيل. وكان للفيل مشربٌ يتردد إليه فمرّ ذات يوم على عادته ليُردّ مورده فوطئ عشّ القنبرة فهشم بيضها. فلما نظرت ما ساءها علمت أن ذلك من الفيل فطارت حتى وقعت على رأسه باكية. وقالت له: أيها الملك لم هشمت بيضي وقتلت أفرأخي؟ أفعلت استضعافاً منك وقلة لي واحتقاراً لأمرّي؟ فقال الفيل: هو الذي حملني على ذلك. فتركته وانصرفت إلى جماعة من الطيور فشكت إليهن ما نالها من الفيل. فقلن: وما عسى أن نبليغ منه ونحن طير ضعاف. فقالت للعقائق والغربان: أحب منكن أن تنصرفن معي إليه فتفتقأن عينيّه فإني بعد ذلك أحتال عليه بحيلة أخرى. فأجبنها إلى ذلك ومضين إلى الفيل فلم يزلن ينقرن عينيّه حتى ذهبن بهما وبقي لا يهتدي إلى طريق مطعمه ومشربه إلا ما يقمّه من موضعه.

فلما عرفت القنبرة ذلك منه جاءت إلى غدير فيه ضفادع كثيرة فشكت إليهن ما نالها من الفيل فقلن لها: ما حيلتنا نحن في عظم الفيل وأنى نبليغ منه؟ فقالت: أريد أن توافين معي هويّة تقرب منه فتتقنقن وتضججن بها فإنه إذا سمع أصواتكن لم يشك في الماء فيهب فيها. فأجابته الضفادع إلى ذلك واجتمعن في الهويّة وتفقن

فسمع الفيل نقيقهنّ وقد أجهده العطش، فأقبل حتى وقع في الهوية فارتطم فيها. وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه فتقول: أيها الطاعى المغترّ بقوتك المحترّ لأمرى، كيف رأيت عظيم حيلتي في صغر جثتي عند عظيم جثتك وصغر همتك؟

فلنشر كل واحد منكم بما يسنح له من الرأي. فقالوا بأجمعهم: أيها الفيلسوف الفاضل الحكيم العادل، أنت المقدّم فيمنّا والمفضّل علينا، فما عسى أن يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا من فهمك ونحن نعلم أن السباحة في الماء مع التماسح تغريب والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه. والذي يستخرج السم من ناب الحية فيجرّبه على نفسه فليس الذنب للحية. ومن دخل على الأسد في غابته لم يأمن وثبته. وهذا الملك لم تؤدّبه التجارب ولم تقرّعه النوائب ولسنا نأمن عليك وعلى أنفسنا من سورته ومبادرته بسطوته متى لقيته بغير ما تحب مما هو عليه من همته.

فقال ببدا: لعمرى لقد قلتم فأحسنتم وأجبتم فأبلغتم لكن ذا الرأي الحازم لا بد له أن يشاور من هو دونه أو فوقه في المنزلة. والرأي الفرد لا يكتفى به في الخاصة ولا ينتفع به في العامة. وقد صحّ عزمي على لقاء الملك دبشليم، وقد سمعت مقالته وبانت ليه نصيحتكم والإشفاق عليّ وعلى أنفسكم. غير أنني قد رأيت رأياً وعزمت عزماً فستعرفون نتيجته عند لقاء الملك ومحاورتي إياه، فإذا اتصل بكم خروجي من عنده اجتمعوا إليّ.

ثم إن ببدا إذن لأصحابه في الانصراف فقاموا بين يديه يدعون له بالسلامة، واختار يوماً للدخول على الملك دبشليم. حتى إذا كان اليوم المختار ألقى عليه مسوحه، وهو لباس البراهمة، وجاء فسأل عن صاحب إذن الملك فأرشد إليه فأتاه وسلم عليه وأعلمه أنه رجل قصد الملك في أمر له فيه النصيحة. فدخل فاستأذن له على الملك وكان في ذلك اليوم فارغاً غير مشغول. فأذن له فدخل ووقف بين يديه وكفّر وسجد ثم استوى قائماً وسكت فلم يتكلم بشيء.

ففكر الملك دبشليم في سكوته وقال: إن هذا الفيلسوف لم يقصدنا إلا لأحد أمرين: إما ليلتمس منا شيئاً يصلح به حاله أو أمر لحقه فلم يكن له به طاقة ولا وجد عليه مستصرخاً فاعتمصم بنا كي يكون له أبلغ نكاية وأشد عقوبة على ضده. ثم قال: وبعد فليس هذه الحالة من شرط الفيلسوف لأنه وإن كانت الملوك لها فضل في مملكتها فإن الحكماء لهم فضل في حكمتهم أعظم من الملوك، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال. وقد وجدت العقل والحياء أحق متآلفين لا يفترقان. ومتى فُقد أحدهما لم يوجد الآخر، كالمتصادقين من الناس وغيرهم إن عديم أحدهما صاحبه لم تطب نفس الآخر بالبقاء بعده تأسفاً عليه. ومن لم يستحي من الحكماء ويكرمهم ويعرف فضلهم ويصرفهم عن مواقف الدّلة وينزّهم عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله وخسر حياته وظلم الحكماء في حقوقهم وعدّ من الجهّال.

ثم رفع طرفه إلى ببدا فقال له: إنني أنظرك ساكتاً، لا تعبّر عن حاجتك ولا تذكر بغيتك لعلمت أن الذي أسكتك إنما هو بليّة ساورتك أو حيلة أدركتك وتبينت ذلك في طول وقوفك وقلت: لم يكن ببدا ليطرقنا من غير عادة إلا لأمرى حركه، وإنه لمن أفضل زماننا ولا سألته عن سبب دخوله إلينا فإنه لو كان شيء يلتبس فيه الاعتزاز بنا من ضميم ناله كنت أول من أخذ بيده وسارع إلى تشريفه وأولاه بلوغ مراده. وإن كانت بغيته عرضاً من عروض الدنيا أمرت بارضائه من ذلك بما يجب. وإن يكن شيء من أمر الملك ما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت مقدار عقوبته عليه. على أنه لم يكن ليحضرني على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك وإن كان شيء من أمور الرعية يقصد به صرف عنايتي إليه نظرت ما هو. فإن الحكيم لا يخبر إلا بخير والجاهل يشير بضده. وإنني قد فسخت لك الكلام فقل ما بدا لك.

فلما سمع ببدا كلام الملك أفرح روعه وسرّي عنه ما كان وقع في نفسه من الخوف فكفّر له وسجد ثم قام بين يديه وقال: إن أول ما أقول أن أسأل إله بقاء الملك على الأبد، ودوام ملكه على الأمد، فقد جعل في مقامي هذا شرفاً لي على من يأتي بعدي من العلماء وذكرى باقياً على الدهور عند الحكماء إذ أقبل الملك عليّ بوجهه وعطف عليّ بكرمه. والأمر الذي حملني على الدخول إلى الملك ودعائي إلى التعرض لكلامه المخاطرة بالإقدام على نصيحته التي اختصصت بها دون غيره. وسيعلم من يتصل به ذلك أنني لم أقعد عن غاية فيما يجب للملوك على الحكماء. فإن فسح في كلامي ورعاه عني، فهو حقيق بما يراه في ذلك. وإن ألقاه، فقد بلغت ما يجب عليّ وخرجت عليّ من لوم يلحقني.

فقال الملك: يا ببدا تكلم فإني مصغ إليك وسامع منك ما تقول، فقل ما عندك لأجازيك عليه بما أنت أهله.

فقال ببديا: أيها الملك إنني وجدت الأمور التي يختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة وفيها جماع كل ما في العالم، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل. فالعلم والأدب والروية داخلية في باب الحكمة. والحلم والصبر والرفق والوقار داخلية في باب العقل. والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلية في باب العفة. والصدق والمراقبة والإحسان وحسن الخلق داخلية في باب العدل. فهذه هي المحاسن، وأضدادها هي المساوئ. فهي إن كملت في واحد لم تخرجه الزيادة في نعمته إلى سوء حظ في دنياه أو إلى نقص من عقابه، ولم يتأسف على ما لم يُغن التوفيق ببقائه، ولم يحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولم يندش عند مكروه يفتح. والحكمة كنز لا يفنى مع الإنفاق، وذخيرة لا يضرب لها بالأمل، وحلة لا تخلق جدتها، ولذة لا تتصرم مدتها. إن كنت عند مقامي بين يدي الملك أمسكت عند ابتدائه فإن ذلك لم يكن مني إلا لهيبة منه وإجلال. ولعمري إن الملوك لأهل لأن يُهابوا ولا سيما من هو في المنزلة التي حلّ فيها الملك عن منازل الملوك قبله.

وقد قالت الحكماء: الزم السكوت فإن فيه السلامة، وتجنب الكلام الفارغ فإن عاقبته ندامة. وحكي أن أربعة من الحكماء ضمهم مجلس ملك فقال لهم: ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون أصلا للأدب. فقال الأول: أفضل حلية العلماء السكوت. وقال الثاني: أنفع الأشياء أن لا يتكلم الإنسان حتى يعرف قدر منزلته من عقله. وقال الثالث: أنفع الأشياء للإنسان أن لا يتكلم بما لا يعنيه. وقال الرابع: أروح الأمور للإنسان التسليم للمقادير.

واجتمع في بعض الزمان ملوك الأقاليم من الصين والهند وفارس والروم وقالوا: ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدون عنه على غابر الدهر: فقال ملك الصين: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ما ردّ ما قلت. وقال ملك الهند: عجبت ممن يتكلم بالكلمة إن كانت له لم تنفعه وإن كانت عليه أوهنته. وقال ملك فارس: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني وإذا لم أتكلم بها ملكتها. وقال ملك الروم: لم أندم قط على ما لم أقل، ولقد ندمت على ما قلت كثيراً. والسكوت عند الملوك أحسن من الهدر الذي لا يرجع منه إلى نفع. وأفضل ما استظل به الإنسان لسانه.

غير أن الملك، أطال الله بقاءه، لما أفسح لي في الكلام وأوسع لي فيه، أول ما أبدأ به من الأمور التي هي غرضي أن تكون ثمرة ذلك له دوني، وأختصه بالفائدة قبلي، على أن العقبى فيما أقصد من كلامي له إنما هي نفعه دوني، وشرفه راجع إليه وأكون أنا قد قضيت فرضاً واجباً علي.

فأقول أيها الملك إنك في منازل آبائك من الملوك وأجدادك من الجبابرة الذين أنشأوا المدن قبلك ودانت لهم الأرض وبنوا القلاع وقادوا الجيوش واستحضروا العدة وطالت لهم المدة واستكثروا من السلاح والكراع وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور، فلم يمنعهم ذلك من اكتساب الجميل ولا قطعهم عن اغتنام الشكر فيما حوّلوه، وحسن السيرة فيما تقلّدوه، مع عظم ما كانوا فيه من عزة الملك وسكرة الاقتدار.

فإنك أيها الملك السعيد جدّه، الطالع في الكواكب سعدة، قند ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم التي كانت عندهم فأقمت فيما حوّلَكَ الله من الملك وورثت الأموال والجنود، فلم تقم في ذلك بحقّ ما يجب عليك ولا أدبت المقترض على الملوك إذا أفضى الملك إليهم، بل طغييت وبغييت وعتوت وعلوت على الرعية وأسأت السيرة وعظمت منك البلية. وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك وتتبع آثار الملوك قبلك وتقوّ محاسن ما أبقوه لك وتقلع عما عارّه لازم لك وشيئه واقع بك، وتحسن النظر في رعيّك وتسنّ لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذرّكه، ويعقبك فخره، ويكون ذلك أبقي على السلامة وأدوم على الاستقامة. فإن الجاهل من استعمل في أموره البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمدارة والرفق. فانظر أيها الملك ما ألقيت إليه، ولا يبقُ عليك، فإني لم أتكلم بهذا ابتغاء غرض تجازيني به ولا التماس معروف تكافئني عليه، ولكني أتيتك مشفقاً ناصحاً لك.

فلما قضى ببديا مقالته، وأنهى مناصحته، ارتعب قلب الملك فأغظ له الجواب استصغاراً لأمره، وقال: لقد تكلمت بكلام ما أظن أحداً من أهل مملكتي يقدر أن يستقبلني بمثله ويقدم على ما أقدمت عليه، فكيف أنت مع صغر شأنك وضعف منفعتك وعجز قوتك. وقد احتملت على أن تجيبني بمثل هذا الكلام الذي ليس لأحد أن يخاطبني به. ولقد كثر إعجابي من إقدامك وتسليطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدّك. وما أجد شيئاً في تأديب غيرك أبغ من التتكيل بك. ففي ذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يروم من الملوك ما رُمت إذا أوسعوا لهم في مجالستهم.

ثم إن الملك أمر أن يقتل ويصلب. فلما مضوا به فيما أمرهم أمر بإعادته فأحجم عنه ثم أمر بحمله إلى السجن، فحمل مقبداً. ثم وجّه في طلب تلامذته ومن كان يجتمع إليه ليودعهم في محبسه فهربوا في البلاد واعتصموا بجزائر البحار. ومكث ببديا في محبسه أياماً كثيرة لا يسأل الملك عنه، ولا يلتفت إليه، ولا يتجاسر أحد أن

يذكره عنده. حتى إذا كانت ليلة من الليالي سَهِدَ فيها الملك شهيداً شديداً ومدَّ إلى الفلك بصره ففكر في تنقله وحركات الكواكب فيه، فغرق في الفكر فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك والمسألة عنه. فتذكر عند ذلك بيدبا وتفكر فيما كلمه به وارعوى لذلك وقال في نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف وضيعت واجب حقه وحملني على ذلك سرعة الغضب. فإنه قيل: لا ينبغي أن يكون الغضب في الملوك، فإنه أجدر الأشياء مقتاً لأن صاحبه لا يزال ممقوتاً، والبخل فإنه ليس بمعذور مع ذات يده، والكذب فإنه ليس أحد يجاوزه، وعدم الرِّقِّ في المجاورة فإن السَّفه ليس من شأنها. وإنِّي أتيت إلى رجل نصيح لي ولم يكن ثلاباً فقابلته بضدِّ ما كان مستحقاً وكافأته بخلاف ما يستوجب، وما كان ذلك جزاءه مني، بل الواجب أن أسمع كلامه وأنقاد لمشورته.

ثم أنفذ من ساعته من يأتيه به. فلما مثل بين يديه قال له: يا بيدبا ألسنت الذي قصدت إلى تقصير همتي وعجزت رأيي فيما تكلمت به أنفاً؟ قال بيدبا: يا أيها الملك السعيد إن ما أنبأتك به فيه صلاح لك ولرعيك وفيه دوام ملكك.

فقال له الملك: أعد عليّ ما قلت ولا تدع منه حرفاً واحداً إلا جئت به. فجعل بيدبا ينشر كلامه والملك مصغٍ إليه. وجعل كلما سمع كلامه ينكت الأرض بشيء كان في يده. ثم رفع رأسه إليه وأمره بالجلوس فجلس. ثم قال له: يا بيدبا إنني قد استعذبت كلامك وحسن موقعه من قلبي وأنا ناظر في الذي أشرت به وعاملٌ عليه. ثم أمر بقبوده ففككت، وألقى عليه من لباس الملوك، وتلقاه بالقبول.

فقال بيدبا: أيها الملك، إن في دون ما كلمتك به ناحية لمثلك. فقال الملك: صدقت أيها الحكيم الفاضل، ولقد وليتك في مجلسي هذا جميع مملكتي. فقال له بيدبا: أيها الملك اعفني من هذا الأمر فأني غير مضطلع بتقويمه إلا بك. فقبل ذلك منه وأغفاه.

فلما انصرف علم أن الذي فعله ليس برأي فيعثر إليه واستردّه وقال له: إنني فكرت في إعفائك فيما عرضته عليك فوجدت أنه لا يقوم إلا بك ولا ينهض به غيرك، ولا يستطيع له سواك ولا يتخالفني فيه. فأجابه بيدبا إلى ذلك.

وكان من عادة الملوك في ذلك الزمان إذا ألبسوا وزيراً أن يعقد على رأسه تاج ويركب في أهل المملكة ويطاف به في مدينة الملك. فأمر دبشليم أن يفعل بيدبا ذلك، فوضع التاج على رأسه وركب ودار في المدينة ورجع وجلس في مجلس العدل والإنصاف وأخذ للضعيف من القوي وردَّ الظالم، ووضع سنن العدل. والتصل الخبر بتلامذته فاتوه من كل ناحية مستبشرين بما ناله من الملك من الأخذ والعطاء واليذل، وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة، واتخذوا ذلك اليوم عيداً يعيّدون فيه. فهو إلى يومنا ثابت في بلادهم.

ثم إن بيدبا خلا فكره من أشغاله بدبشليم وتفرَّغ من السياسة فعمل كتباً كثيرة فيها من دقيق الحيل. ومضى الملك على ما رسم بيدبا من حسن السيرة والعدل في الرعية فرغب إليه الملوك الذين كانوا في نواحيه وانقادت له الأمور على استوائها وفرحت به رعيته وأهل مملكته.

ثم إن بيدبا جمع تلامذته ووعدهم وعداً جميلاً وقال لهم: لست أشك أنه وقع في نفوسكم وقت دخولي على الملك أن قلتم إن بيدبا قد ضاعت حكمته وبطلت فكرته إذ عزم على الدخول إلى هذا الجبار الطاغى. فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري، وإنني لم أت الملك جهلاً به لأنني كنت أسمع ما يقال: إن الملوك لها سكرة كسكرة الشبان. فلا يفيق الملوك من سكرتهم إلا مواظ العلماء وأدب الحكماء. ويجب على الحكماء تأديب الملوك بألسنتها وتقويم حكمتها وإظهار الحجة البينة اللازمة لما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل. فوجدت ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لمولوكهم ليقظوهم عن سِنَّة سكرتهم، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعة الطب حفظ الأجساد وردّها إلى الصحة. فكرهت أن يبقى وأموت فيكون ذلك حسرة عليّ وعليكم وما يبقى على الأرض إلا من يقول كان بيدبا الفيلسوف في مدة دبشليم الملك فلم يردّه عما كان عليه.

فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفاً على نفسه، قالوا: إن الهرب منه ومن جواره أولى به، والانزعاج عن الوطن شديد. فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذراً. فحملت نفسي على التعرير أو الظفر بما أريد وكان في ذلك ما أنتم معابنوه. فإنه يقال في بعض الأمثال إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا

بإحدى ثلاث: إما بمشقة تناله في نفسه وإما بوضيعة في ماله أو بوگس في دينه. ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب. ثم إن الملك مكث على حسن السيرة زمنًا طويلاً وببدبا يتولى ذلك ويتقدم به.

ثم إن دبشليم لما استقرّ له الملك وسقط عنه النظر في أمور الرعية والنظر في الأعداء ومحاربتهم إذ قد كفاه ببدا ذلك، صرف همه إلى النظر في الكتب التي وضعتها فلاسفة الهند لأبائهم وأجدادهم، وأحبّ أن يكون في الخزانة كتاب باسمه. وعلم أن ذلك لا يقوم به إلا ببدا فدعاه وخلا به وقال له: يا ببدا إنك حكيم الهند وفيلسوفها وإن فكرت ونظرت في خزائن الحكمة التي كانت الملوك قبلي جميعها فلم أر أحداً إلا وقد وضع له كتاب يذكر فيه اسمه وأيامه وسيرته وينبئ عنه وعن أدبه وأهل مملكته. ومنه ما وضعته الملوك لأنفسها ولذلك بانّت حكمتها، ومنه ما وبضعت حكماؤها. وإنني خفت أن يلحقني ما لحق أولئك مما لا حيلة ليه فيه وهو الموت ولا يوجد لي في خزانتي كتاب يذكره الملوك بعدي وأذكر فيه وأنسب إليه كما ذكر من كان قبلي بكتبهم. وقد أحببت أن تصنع لي كتاباً بليغاً تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة للعامة وتأديبها، وباطنه لأخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته فيسقط بذلك عني وعنهم كثير مما يحتاج إليه في معانة الملك. وأريد أن يبقى لي هذا الكتاب ذكراً على غابر الدهر.

فلما سمع ببدا كلامه خرّ له ساجداً ثم رفع رأسه وقال: أيها الملك السعيد جدّه، علا نجمك وغاب نحسك ودامت أيامك. إن الذي قد طُبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل ينبهه لذلك ويحركه لمعالي الأمور التي سمعت به فتعلو همته إلى أشرف المنزلة وأبعدها غاية، فأدام الله تعالى سعادة الملك وأعانه على ما عزم عليه فأعاني على بلوغ مراده. وليأمر الملك بما شاء من ذلك فأني صائرٌ إلى غرضه ممهّد فيه الرأي.

قال له الملك: لم تزل يا ببدا معروفاً بعقد الرأي المبارك بطاعة الملوك في أمرهم وقد اختبرت ذلك منك واخترت أن تضع هذا الكتاب وتجهد فيه نفسك وتعمل فيه بغاية ما تجد إلى السبيل. وليكن مشتملاً على الجد والهزل واللغو والحكمة والفلسفة ليفرغ الحكيم ذهنه لما فيه من حكمة، وتشرح المعاني صدره لما فيه من لهو.

فكفر له ببدا وسجد وقال: أجبت الملك لما أمرني به من ذلك وجعلت بيني وبينه أجلاً. قال الملك: وكم هو يا ببدا؟ قال: سنة. قال: لقد أجلتك يا ببدا. وأمر له بجائزة سنوية يستعين بها على عمل الكتاب كما رسم له الملك.

ثم إن ببدا أخذ يتذكر أياماً في الأخذ في ابتداء الكتاب وفي أي صورة يبتدئ به وعلى أي وضع يضعه وعلى أي جنس يرسمه. وجمع تلامذته وقال لهم: إن الملك قد ندبني لأمر فيه فخري وفخركم وفخر بلادكم إلى الأبد، وقد جمعتكم لهذا الأمر. إن الملك دبشليم قد بسط لساني في أن أضع له كتاباً فيه من ضروب الحكمة. ثم وصف لهم ما أشار إليه الملك من أمر الكتاب والغرض الذي قصده في نظمه وترتيبه. وقال لهم: فليضع كل واحد شيئاً في أي فن شاء وليعرضه عليّ لأعرف مقدار عقله وأين بلغ من الحكمة فهمه.

قالوا بأجمعهم: أيها الحكيم الفاضل والليبيب العاقل والذي وهب كل ما منحك من الحكمة والعقل والصيانة (وهو الله تعالى)، ما خطر هذا في قلوبنا ساعة قط وأنت رئيسنا وفاضلنا بك شرفنا وعلى يديك انتعاشنا، ولكن سنجهد أنفسنا فيما أمرت. فلم يقع لهم الفكر في ما تقدم به الملك.

فلما لم يجد عندم ما يريد فكر بفضل حكمته، وعلم أن ذلك أمر إنما يتم باستفراغ الفكر وإعمال العقل. وقال: أرى السفينة لا تجري في البحر إلا بأمر الملاحين لأنهم يعدلون لها، وإنما تقطع اللجة وتسلك البحر بمديرها الذي تفرّد بإمرتها، ومتى ثقلت بالركاب وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها الغرق.

ثم لم يزل يفكر في رسم الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه مع رجل من تلامذته كان يثق بعقله. فخلا به قعد أن أعد من الورق شيئاً كثيراً ومن القوت ما يقوم به وبتمليذه مدة سنة، ثم احتبساً في مقصورة ورداً عليهما الباب. ثم بدأ ببدا في نظم الكتاب على غاية منها قائم بنفسه. وفي كل باب مسألة والجواب عنها، ليكون فيه هبط لمن نظر في الأبواب، وسماه كتاب كليله ودمنة. وجعل الكلام على ألسن البهائم والسباع والوحش والطير ليكون ظاهره لهواً للعامة وباطنه سياسة للخاصة، متضمناً ما يحتاج الإنسان إليه من أمر دينه ودنياه وآخرته على حسن طاعة الملوك ومجانبة ما تكون مجانبته خيراً له. ثم جعله ظاهراً وباطناً كسائر كتب الحكمة، فصارت صور الحيوانات فيه لهواً وما نطقت به حكماً وأدباً.

ولما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أول الكتاب وصف الصديق، كيف يكون صديقان وكيف يقطع المودة الثابتة بينهما ذو الحيلة والنميمة. فأمر تلميذه أن يكتب على لسانه ما كان الملك شرط عليه. وذكر بيدبا أن الحكمة متى دخلها كلام الغفلة أفسدها واستجھلت حكمته.

ثم إن بيدبا وقع له موضع الهزل من الكتاب فرسمه، وموضع الجد فأثبتته. فجاء الكتاب على لسان البهائم. وكانت الحكمة ما نطقوا به فترك العقلاء الظاهر من ذلك واشتغلوا بما فيه من الحكم والآداب. وأما الجهال فلم يعلموا السبب فيما وُضع لهم وأظهروا عجباً من محاوراة بهيمتين فاتخذوه لهواً وعجزوا عن معنى الكلام أن يفهموه، ولم يعلموا الغرض الذي وُضع لهم لأن الفيلسوف كان غرضه في الباب الأول أن يُخبر عن تواصل الإخوان وكيف تتأكد بينهم المحبة بالتحفظ من أهل السَّعاية والتحرُّز عن بُرْفَعِ العداوة والقطيعة بين المتحابين بالكذب ليجرَّ الساعي بذلك نفعاً إلى نفسه.

فلما تم الكتاب وتم الأجل أنفذ الملك دبشليم إلى بيدبا أن قد جاء الوعد فماذا صنعت؟ فأنفذ إليه بيدبا: إني على ما وعدت الملك فليأمرني لأحمله إليه بعد أن يجمع أهل مملكته لتكون قراءتي لهذا الكتاب بحضرتهم.

فلما رجع الرسول إلى الملك دبشليم سرَّ بذلك سروراً عظيماً ووعد يوماً يجمع أهل مملكته فيه. ثم نادى في أقصى بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب. فلما كان اليوم واجتمع الناس أمر الملك أن يُنصب له سرير وليبدبا سرير.

وحضروا، وقام بيدبا وعليه ثياب الحكمة التي كان يلبسها إذا دخل على الملوك وهي المسوخ السود. فلما دنا من الملك كَفَّر له وسجد له فلم يرفع رأسه.

فقال له الملك: يا بيدبا رفع رأسك فليس هذا يوم نحيب، هذا يوم سرور وشكر. ثم سأله حين قرأ الكتاب عن معنى كل باب وأي شيء قصده فيه، فأخبره بغرضه فيه وقصده في كل باب فازداد به سروراً ومنه تعجباً وقال له: يا بيدبا ما عدوت ما كان في نفسي، وهذا الذي كنت أطلب، فتمنَّ ما شئت وتحكَّم. فدعا له بالسعادة وقال: أيها الملك، أما المال فلا حاجة لي فيه، وأما الكسوة فلا أختار سوى لباسي هذا، ولست أخلي الملك من حاجة إذا عرضت. فقال الملك: وما حاجتك الآن، فكل حاجة لك قبلنا مقضية. فقال: أسأل الملك أن يأمر بتدوين كتابي هذا كما دون أبأوه وأجداده كتبهم وإن يأمر بالاحتياط عليه، فإني أخاف أن يخرج من بلاد الهند فيتناوله أهل فارس إذا علموا به فيذهب، والآن لا يخرج من بيت الحكمة. ثم دعا الملك بتلامذته فخلع عليهم وأمر لهم بالجوائز.

ثم إنه لما ملك كسرى أنو شروان، وكان مستبشراً بالكتب في العلم والأدب رُفِعَ إليه خير هذا الكتاب فلم يقرَّ له قرارٌ حتى بعث برزويه الطبيب فاحتال وتلطَّف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقرَّه في خزائن فارس.

### باب بعثة كسرى لبرزويه إلى بلاد الهند

قال بزرجمهر في ذلك: أما بعد فإن الله تبارك وتعالى خلق خلقه أطواراً برحمته ومنَّ على عباده بفضله ورزقهم ما يقدرون به على إصلاح معاشهم في الدنيا وما يدركون به استنقاذ أرواحهم من أليم العذاب. فأفضل ما رزقهم ومنَّ عليهم به العقل الذي هو قوة لجميع الأحياء. فما يقدر أحد منهم على إصلاح معيشة ولا إحراز منفعة ولا دفع ضرر إلا به وكذلك طالب الآخرة المجتهد على استنقاذ روحه من الهلكة. فالعقل هو سبب كل خير ومفتاح كل رغبة وليس لأحد غنى عنه. وهو مكتسب بالتجارب والآداب وغريزة مكنونة في الإنسان كامنة ككمون النار في الحجر والعود لا تُرى حتى يقدها قاذح من غيرها. فإذا قدحها ظهرت بضوئها وحريقها. كذلك العقل كامن في الإنسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب، فإذا استحکم كان هو السابق إلى الخير والدافع لكل ضرر. فلا شيء أفضل من العقل والأدب. فمن منَّ عليه خالقه بالعقل وأعان هو على نفسه بالمتابعة على أدب والحرص عليه سعد جده وأدرك أمله في الدنيا والآخرة.

وقد رزق الله ملكنا هذا السعيد الجد أنو شروان من العقل أفضل الرزق ومن النصيب أجزله وأعانه على ما رزق من ذلك بحسن الأدب والبحث عن العلم وطلب التفسير لجميع علوم الفلسفة والاستنباط عما غاب، والتخير للصواب مما ظهر، فبلغ في ذلك ما لم يبلغه ملك قط ممن كان قبله من الملوك.



وكان فيما يطلب من العلم ويبحث عنه أنه بلغه أن كتاباً من كتب الهند عند ملوكهم وعلماهم نفيس مخزون وهو أصل كل أدب ورأس كل علم والدليل على كل منفعة ومفتاح طلب الآخرة والعمل للنجاة من هولها والمقوي لما يحتاج إليه الملوك لتدبير ملكهم ويصلحون به معاشهم وهو كتاب كليله ودمنة.

فلما تيقن ما بلغه عن ذلك الكتاب وما فيه من منافع تقرية العقل والأدب لم يطمئن بالاً ولم يسكن حرصاً على استفادته والنظر فيه وفي عجائبه. وكان رجلاً عاقلاً أديباً. فسأهل أهل مملكته أن يختاروا رجلاً عاقلاً أديباً عالماً ماهراً بالفارسية والهندية حريصاً على العلم مجتهداً في استكمال الأدب مثابراً على النظر والتفسير لكتب الفلسفة فيؤتى به. فطلب الرجل حتى ظفروا به فأتى برجل شاب جميل ذي حسب كامل العقل والأدب، صناعته التي يعرف بها الطب وكان ماهراً بالفارسية والهندية يسمى برزويه.

فلما دخل عليه سجد له ثم قام مكفراً فقال له الملك: يا برزويه إنني قد اخترتك لما بلغني عن فضلك وعقلك وحسن أدبك وحرصك على طلب العلم حيث كان. وقد بلغني عن كتاب للهند مخزون بخزائنها. وقصص عليه قصته وأخبره بما بلغه عنه وعظيم رغبته فيه وأمره بالجهاز للخروج في طلبه وأن يتلطف بعقله ورفقه وحسن أدبه لاستخراج ذلك الكتاب من خزائنها ومن قبل علمائهم إما مكتوباً بالفارسية فيستقذه له هو وغيره من الكتب التي ليست في خزائنه ولا في ملكه.

وأمر أن يحمل معه من المال ما أراد، فإن نفذ قبل أن يصير إلى حاجته كتب إليه ليمدّه من المال ما أحب وإن كثر. وقال: لا تقصّر في طلب كل علم فليست النفقة عوضاً من الفائدة ولو أحاط بجميع ما في خزائني. وأمر المنجمين أن يتخيروا له يوماً يسير فيه وساعة صالحة. فخرج وحمل معه من المال عشرين ألف دينار.

ولما قدم برزويه على أرض ذلك الملك وتخلل مجالس الأسواق وسأل عن قرابة الملك والأشراف وعن العلماء والفلاسفة جعل يغشاهم في منازلهم ويتلقاهم بالتحية والمساءلة على باب الملك ويخبرهم أنه رجل غريب قدم بلادهم في طلب العلم والأدب، وأنه محتاج إلى معونتهم على ما طلب من ذلك ويسألهم إرشاده إلى حاجته. ومع شدة كتمانهم لما قدم له لم يزل في ذلك زماناً طويلاً يتأدّب بما هو أعلم به ويتعلم من العلوم ما هو ماهر فيه. واتخذ لطول إقامته إخواناً كثيرين من أهل الهند من الأشراف والسوقة ومن العلماء وأهل كل صناعة واختص من جماعتهم رجلاً يسمى أدوية وجعله صاحب سره ومشورته لما ظهر له من حسن علمه وفضل أدبه وصحة إخوانه ومحض مودته. وكان يستشيريه في جميع الأمور إلا أنه كان يكتمه الأمر الوحيد الذي يعنيه. وكان يألوه باللطف لينظر هل يراه موضعاً لإطلاعه على سره.

فلم يزل يبحث عن ذات نفسه حتى وثق به وعرف أنه لما استودع من السر موضع وفيما طلب منه مجمل وبما سئل مشفق وفيما استعان به عليه مجتهد، فازداد له إطفاء. وكان إلى ذلك اليوم الذي رجا أن يكون قد بلغ فيه حاجته قد أعظم النفقة مع طول الغيبة في استلطاف الأصدقاء ومجالستهم على الطعام ومنادمتهم على الشراب لطلب التقات منهم. فلم يطمئن لأحد ممن آخاه إلى لصديقه الذي ذكرناه. وكان ممكّ حَكَم به برزويه صديقه ذلك والذي رد عليه وكيف فُتس عقله حتى وثق به واطمأن إليه أن قال له وهما خاليان: يا أخي ما أريد أن أكتمك من أمري شيئاً فوق ما كُتِمَك. فاعلم أنني لأمرى ما جئت وهو غير ما تراه يظهر مني. والعقل يكتفي من الرجل بالعلامات من نظره وإشارته بيده لكي يعلم سر نفسه وما يضمّر في قلبه.

قال له الهندي: إنني وإن لم أكن بدأتك وأخبرتكم بماله جئت وإياه طلبت وإليه قصت وإنك تكتم أمراً تطلبه وأنت مظهر غيره، فإنه لم يكن ليخفى عني ولكن لرغبتي في إخوانك كرهت أن أواجهك به فإنه قد ظهر لي ما تكتم، وقد استبان لي ما أنت فيه وما تخفيه عني. فأما إذا فتحت الكلام فأنا مخبرك عن نفسك ومظهر لك سريرة أمرك ومعلمك حالك الذي قدمت له. فإنك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة فتذهب بها إلى بلادك لتسر بها ملكك. وكان قدومك بالمكر ومصادفتك بالخديعة ولكني رأيت من صبرك ومواظبتك على طلب حاجتك وتحفظك أن تسقط في طول مكثك عندنا بكلام يستدل به على سر أمرك فازددت رغبة في عقلك وأحببت إخوانك فلا أعلم أنني رأيت رجلاً أرسن عقلاً ولا أحسن أدباً ولا أصبر على طلب حاجة، ولا أكتم للسر منك، ولا أحسن خلفاً ولا سيما في بلاد الغرب ومملكة غير مملكتك، وعند قوم لم تكن تعرف شيمهم وأمرهم. واعلم أن عقل الرجل يستبين في هذه الثماني الخصال: الأولى الرفق والتلطف، والثانية أن يعرف الرجل نفسه فيحفظها، والثالثة طاعة الملوك وأن يتحرّى ما يرضيهم، والرابعة معرفة الرجل موضع سره كيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه، والخامسة أن يكون على أبواب الملوك أديباً حَيلاً ملق اللسان، والسادسة أن يكون لسره وسر غيره حافظاً، والسابعة أن يكون على لسانه قادراً صلاً فلا يلفظ من الكلام إلا ما قد تروى فيه وقدره فلا يطلع عليه إلا الثقة، والثامنة أن لا يتكلم إذا كان من المحفل عما لم يسأل عنه ولا يقول ما لم يستقينه ولم يظهر من الأمر ما

يندم عليه. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي إلى الخير والريح والمجتنب الشر والخسران. وهذه الخصال كلها بينة ظاهرة فيك واضحة لي منك، فالله يحفظك ويمتحن بمودتك. ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الثماني كان أهلاً أن يشفع في طلبته ويسعف بحاجته ويعطى سؤله. ولكن حاجتك التي تطلب قد أربعتني وأدخلت عليّ الوحشة والخشية فنسأل الله السلامة.

فلما عرف برزويه أن الهندي قد علم أن مصادقته إياه كانت مكرراً وختلاً لطلب حاجته وأنزل ذلك منه منزلة اختلاس وسلب فلم يزره ولم ينتهره ولكنه ردّ رداً ليناً كرد الأخ على أخيه باللين والإشفاق حتى اطمأن ووثق بقضاء حاجته. ثم قال للهندي: إني قد كنت هياتاً كلاماً كثيراً ووضعت له أصولاً وشجبت فيه شعاباً وشجنت له شجوناً وأنشأت له أغصاناً وأطرافاً. فلما اكتفيت به فعرفت باليسير أبتُ عما كنت قد اختلفته فسلم الله لك في العقل والأدب فكيفتني مؤونة الكلام وحزت الجواب باليسير من القول والإسعاف بالحاجة كما قد بدا لي منك. فإن الكلام إذا انتهى إلى العلماء والسر إذا استودع اللبيب الحافظ ثبت وبلغ غاية أمل صاحبه قوياً ثابتاً كثبات القصر الذي أحكم أساسه بالصخور، وكالجبل الذي لا تزعه الرياح ولا تزلزله.

قال الهندي: لا شيء أفضل من المودة، فمن خلصت مودته كان أهلاً أن يخلطه الرجل بنفسه ولا يتخبر عنه شيئاً مما عنده. ورأس الأدب حفظ السر فإذا كان السر عند الأمين الحافظ فهو موضعه مع أنه خليق أن لا يكتفم وأن لا يكون سرا لأن السر إذا تكلم به لسانان صار إلى ثلاثة فشاع في الناس، حتى لا يستطيع صاحبه أن يجده، كالغيم إذا كان متقطعاً فقال أحد إن هذا غيم متقطع، لم يكذب أحد على ذلك بل يصدقه كل من يراه متقطعاً. وأما أنا فقد اشتدّ سروري وابتهاجي بمودتك ومخالطتك. وهذا الأمر الذي تطلبه مني سر ليس بمكتفم ولا بد أن يفشو في المجالس. فإذا فشا وعلن هلكت نفسي هلاكاً لا أقدر على الخلاص منه بالفداء بمال وإن كثر لأن ملكتها فظ غليظ يعاقب على الطفيف فكيف على مثل هذا.

فقال برزويه: إن العلماء مدحت الصديق إذا كتم سر صديقه، وهذا الأمر الذي له قدمت إياك اعتمدت به ولك أفضيته ومنك أرجو الحاجة، وهو أمر جسيم وخطره عظيم وأنا واثق بعقلك ولطفك وحسن تأنيبك وحيلتك في دركي ما أملكته على يديك وبيمينك وبركتك وإن مستك في ذلك مشقة من خشية. وأنا أعلم أنك آمن من قبلي أن أطلع عليه أحداً ولكنك تتقي أهل بلادك المطيفين بالملك أن يشيعوا ذلك. وأرجو أن لا يشيع لأنني ظاغن وأنت مقيم وما أقمت فليس بيننا ثالث وإذا رحلت عنك أمنت نفسك أن نقشيه عليك.

وكان الهندي خازن الملك وبيده مفاتيح خزانته فأعطاه حاجته من الكتب. فلما وقف برزويه على مطلوبه أخذ في نسخ كتيبة ودمنة وتفسيره وأقام على ذلك زمناً طويلاً. ثم عظمت فيه نفقته ومؤنته وأنصب في بدنه وسهر فيه ليلة ودأب فيه نهاره وهو على خوف من نفسه. فلما فرغ من ذلك الكتاب ومما رغب من سائر الكتب وأحكمها كتب إلى أنو شروان يعلمه بما لقي من النصب والروع وأنه قد فرغ من حاجته.

فلما انتهى الكتاب إلى أنو شروان وقرأه وعلم أنه قد فرغ من حاجته فرح فرحاً شديداً ثم تخوف معالجة المقادير أن تنغص عليه فرحه وينقض سروره وأمر بالكتاب إلى برزويه يسأله أن لا يعرج عن القنوم وأن يبسط أمله بما جدد له من حسن رأي الملك فيه، وأنه مفضله ومتخذة وزيراً وأن يبادر الأجل ويعزم على الصبر فإن عاقبته إلى خير ونجاة في الدنيا والآخرة.

ووجه بالكتاب مع بعض ثقاته مع البريد وأمره أن يسير في غير الجادة حذر أن يوجد فيفشو ما كان أسراً فيذهب كل ما كان عمل ضللاً.

فلما انتهى الرسول إلى برزويه دفع الكتاب إليه سرا. فلما قرأه تجهز للسفر وسار حتى قدم إلى أنو شروان. فأخبر بقدمه فأمر بإدخاله عليه. فلما رأى ما أصابه من التعب والنصب رقّ له وقال: أبشر أيها العبد الصالح فستأكل حلوة ثمرة نصيحتك فقرّ عيناً فقد استوجبت الشكر من جميع الرعية وعظيم المكافأة منا وننزلك أفضل المنازل وأشرها. وأمره أن يريح نفسه وبدنه سبعة أيام ثم يأتيه ذلك.

فلما كان الثامن دعا به وأمر أن يحضر العظماء والأشراف. فلما اجتمعوا وعنده برزويه أمر بإحضار الكتب التي قدم بها من الهند ففتحت وقرئ ما فيها على رؤوس الأشراف. فلما حكوها على ألسن الحيوان والطير فرحوا فرحاً شديداً وشكروا الله على ما من به عليهم على يد برزويه. وأحسنوا الثناء عليه في إنصاب بدنه واستخراج الكتب لهم وإفادتها إياهم.

ثم أمر الملك بعد ذلك أن تفتح لبرزويه خزانين الجوهر والذهب والفضة والكسوة وأقسم عليه الملك إلا دخل وأخذ ما أحب منها وأن لا يقصر فإن ذلك كله ليس بعوض مما أفاده. فسجد برزويه للملك ودعا له ثم قال: أكرم الله الملك كرامة يجمع له بها شرف الدنيا والآخرة وأحسن جزاءه، فقد أغنانني الله بحسن رأي الملك عن جميع عروض الدنيا بما وهب الله لي على يديك أيها الملك العظيم الخطير الكريم الخلق السعيد الجد. ولا حاجة لي إلى المال ولكن لسروري بموافقة الملك سيدي واتباع مسرّته أخذ من كسوة الملك تختاً من طراز قوهستان أتجمل به في خدمة الملك وعلى بابيه.

فأخذه وذهب به إلى منزله ليفاخر من بباب الملك من أهل بيته وخاصته ثم قال: أصلح الله الملك وأكرمه. إن الإنسان إذا كان ذا عقل وأدب فأكرم وأعطي وأحسن إليه وجب عليه أن يشكر ذلك، وإن كان قد استوجبه قبل أن يعطاه. فأنا للملك شاكر أسأل الله له دوام السرور والغبطة في جميع الأمور. ولي أعز الله الملك حاجة هي أعظم الحوائج عندي وأكملها لدي وأشرفها قدراً عندي بعد رضا الملك. فإن رأى الملك أن يشفعني بحاجتي ويعطيني سؤلي فإنها يسيرة على الملك وعظيمة القدر والموقع مني. قال أنو شروان كسرى: سل تعط ما أحببت واشفع تشفع واذكر حاجتك تسعف بها وتكرم، فإن جزاءك عندنا عظيم. ولو سألت الشركة في الملك لم نردّ طلبتك فكيف ما سوى ذلك. فقل فإن جميع ما تسأل مبذول لك وحباً وكرامة.

قال برزويه: أكرم الله الملك وأحسن عني جزاءه فلست أمنّ على الملك بنصبي وعنائِي. فله الفضل علي بما عوّضني وشركني في هذه الفائدة. والملك بكرمه وفضل رأيه قد كافأني وأحسن إلي فليعظم المنة على عبده باستتمام النعمة إليه وإلى أهل بيته وبشرفه بأن يأمر بزرجمهر ابن البختكان وزيره ويعزم عليه أن يجهد نفسه في وضعه باباً يذكر فيه أمري وحالي ويبلغ في ذلك بأحسن الكلام وأزين الذكر وأحسن التأليف، ويأمر بذلك الباب إذا فرغ منه أن يضعه بين تلك الأبواب التي في الكتاب ليحيا به ذكرى ما حييت في الدنيا وبعد وفاتي، فإنه إن فعل ذلك بي فقد شرفني وأهل بيتي إلى آخر الأبد ما دام هذا الكتاب منشوراً في الدنيا يُقرأ.

فلما سمع الملك وعظماؤه مقالته عجبوا من عقله ومما سما إليه رأيه وما طلب من الشرف الدائم في الدنيا. وقال الملك: أنت أهل أن تشفع بطلبك فما أيسر ما طلبت في جنب ما تستوجب وإن كان عندك عظيم الخطر.

فأرسل الملك إلى وزيره بزرجمهر من ساعته فقال له: فقد علمت مناصحة برزويه وتحرّيه لمسرّتنا ومرضاتنا وركوبه الهول والمخاوف في حاجتنا، وإنصابه نفسه وبدنه فيما يسرّنا وما أصبنا على يديه من العقل والحكمة، وما عرضنا عليه لكي نعوضه من ذلك، فلم يقبل ورضي منا بالأمر اليسير. فإنني جزاء له وكرامة أحب أن نشفعه في ذلك. ويسرنني أن نجتهد في قضاء حاجته وأن نكتب باباً مشابهاً لتلك الأبواب التي في ذلك الكتاب وتذكر فيه فضل برزويه وكيف كان بدء أمره وشأنه وطّبه وصناعته وأدبه وترقّعه من ذلك إلى بعثتنا إياه إلى الهند بأفضل ما تجد من المدح في الكلام بما تسرّني به وتسره وجميع أهل المملكة. فإنه يستحق ذلك منا ومنك خاصة لعظيم مجبتك الأدب والعلم وأهله. فإن اجتهدك في ذلك وترتيبه راجع فضله إليك. وكلما نظر فيه أحد من العلماء كنت شريك برزويه في ذلك الذكر. واجعل ذلك الباب أول الأبواب. فإذا أنت فرغت من ذلك الباب ووضعته موضعه فارنيه حتى أجمع العظماء والأشراف والعلماء فتقرأه على رؤوسهم ليظهر لهم من علمك وأدبك واجتهدك في مسرّتنا ما خفي عليهم.

فلما سمع برزويه مقالة الملك وعظيم منزلته عنده خرّ له ساجداً وقال: أدام الله لك أيها الملك السرور والفرح وقرة العين، ورزقك من الشرف في الدنيا ما تفوق به جميع المخلوقين، وفي الآخرة أفضل المنازل مع الصالحين في جنات النعيم.

فخرج بزرجمهر من عند الملك فأخذ في وضع ذلك الباب ووصف أمر برزويه من أول ما دفعه أبواه في التعليم إلى أن بعثه الملك إلى الهند، وجاء به بأحسن ما يقدر عليه من الوصف وما عرف به من أدب برزويه وسيرته من أول ما عرفه، وما ظهر للناس من استحقاقه الدنيا وزهده فيها ورغبته في الآخرة، ولم يترك من اخلاق برزويه وطبائعه شيئاً إلا ذكره بأحسن ما يقدر عليه بتأليف ونسق محكم. ثم أعلم الملك بفراغه منه وأنه قد وضعه في أول الكتاب وهو باب برزويه المتطبيب.

فجمع أنو شروان العظماء والأشراف فدخلوا عليه ودعا بزرجمهر والكتاب بمحضر من برزويه فقرئ على رؤوس الأشهاد. ففرح الملك بذلك وبما أوتي بزرجمهر من العقل والعلم وبما اجتهد في مدح بزرجمهر من العقل والعلم وبما اجتهد في مدح برزويه من غير كذب ولا ادعاء باطل في المدح. فأمر له بجائزة عظيمة من المال والحلي والثياب، فلم يأخذ إلا كسوة كانت من ثياب الملك خاصة. وشكر له برزويه وقبّل رأسه ويده،

وأقبل برزويه على الملك يشكره فقال: أدام الله لك أيها الملك والكرامة والجمال في الدنيا والآخرة بما أكرمتني به وأعظمت عليّ المنة به من تشريفي بالجزاء وأفضل وأكمل ما جازى به أحد من خلقه وأعانني الله على تأدية شكرك ومبلغ رضاك وطاعتك، وعمرك أقصى ومنتتهى غاية ما عمّر به أحدًا من أبائك في أفضل السرور وأعم العافية، ووصل ذلك بجزيل شرف الآخرة ورضوان الرب. إنه على ذلك قدير. وجزى الله بزرجمهر بن البختكان خير الجزاء وأحسن عني مكافأته.

فقد عجز لساني عن تأدية شكر الملك وشكره ولو أطنبت بكل ثناء وشكر. والله وليّ ذلك والقادر عليه والسلام.

## باب برزويه

قال برزويه رأس أطباء فارس وهو الذي تولى انتساخ هذا الكتاب وترجمته من كتب الهند: إن أبي كان من المقاتلة وكانت أمي من عظماء بيوت الزمامة وكان مما ابتدأني به ربي أني كنت من أكرم ولد أبويّ عليهما، وكان لي أشد احتفالاً منهما لسائر إخوتي، وأنهما أسلمانني في تعليم الكتاب حتى بلغت في العلم، فلما حذقت الكتابة شكرت أبويّ ونظرت في العلم، وكان أول علم رغبت فيه علم الطب فحرضت عليه حتى إذا حصلت منه جانباً عرفت فضله وازددت عليه حرصاً وله اتباعاً. فلما بلغت فيه إلى أن أدمنت نفسي على مداواة المرضى هممت بذلك في الناس قولاً وعملاً. ولما تاقنت نفسي إلى ذلك ونازعت إلى أن تغبط غيري وتتمني منازلهم أبييت لها إلا الخصومة وقلت: يا نفس ألا تعرفين نفعك من ضررك، ألا تنتهين عن تمني ما لا يناله أحد إلا قلّ متاعه وكثر عناؤه فيه وخباله عليه واشتدّت البلية عليه عند فراقه وعظمت التبعة منه عليه بعده.

يا نفس ألا تذكرين ما بعد هذه الدار فينسيك ذلك ما تشرهين إليه من هذه الدار. ألا تستحين من مشاركة العجزة الجهال في حب هذه العاجلة الفانية التي من كان في يده منها شيء فليس له وليس بباقي معه والتي لا يألّفها إلى المغترّون الغافلون. فانصرفي عن هذه النسبة وأقبلي بقوتك وما تملكين على تقديم الخير والأجر ما استطعت، وإياك والتسوية. واذكري أن لهذا الجسد وجوداً وأفات وأنه مملوءة أخلاطاً فاسدة فذرة يجمعها لمنافع أربعة أخلاط متغلبة تغمرهن الحياة. والحياة إلى نفاذ كاللصنم المفصلة أعضاؤه إذا ركبت تلك الأعضاء وصنفت في مواضعها جمعها مسماراً واحد يمسك بعضها على بعض، فإذا أخذ المسمار تساقطت الأوصال.

يا نفس لا تغتري بصحبة أحيائك وأخلائك ولا تحرصي على ذلك كل الحرص فإن صحبتهم على ما فيها من السرور كثيرة الأذى والأحزان، ثم يختم ذلك بعاقبة الراق. ومثله مثل المغرفة التي لا تستعمل في سخونة المرق في جدتها. فإذا انكسرت صارت عاقبة أمرها إلى أن تحرق بالنار. فأمرت نفسي وخيرتها الأمور الأربعة التي إياها يطلب الناس وإليها يسعون فقلت: ينبغي لمثلي في مثل العلم أن يطلب أيها أفضل: المال أم اللذات أم الصّون أم أجر الآخرة.

فاستدلت على الخيار من ذلك أني وجدت الطب محموداً عند العقلاء، ولم أجده مذموماً عند أحد من أهل الأديان والمال. ووجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واطب على طبه لا يبتغي بذلك إلا أجر الآخرة. فرأيت أن أواظب على الطب ابتغاء أجر الآخرة ولا أبتغي بذلك ثمناً وأكون كالتاجر الخاسر الذي باع ياقوته كان مصيباً بثمرها غنى الدهر بخزرة لا تساوي شيئاً. مع أني قد وجدت في كتب الأولين أن الطبيب الذي يبتغي بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك من حظه في الدنيا وأن مثله في ذلك مثل الزارع الذي إنما يحرق أرضه ويعمرها ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب، ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب.

فأقبلت على مداواة المرضى. فلم أدع مريضاً أرجو له البرء ولا آخر لا أرجو له البرء إلا أني أطمع له في خفة الوجع والأذى إلا بلغت في مداواته جهدي. ومن قدرت على القيام فمت عليه ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له وأمرته وأعطيته ما يتعالج به من الدواء ولم أرد على ذلك أجره ولا مكافأة. ولم أغبط من نظرائي ومن هو مثلي في العلم وفوقي من المال والجاه أحدًا لغير ذلك ممن له صلاح وحسن سيرة.

يا نفس لا يحملنك أهلك وأقاربك على جميع ما تهلكين في جمعه إرادة لصلتهم ورضاهم فإذا أنت كالدخنة الطيبة التي تحرق بالنار ويذهب بعرفها آخرون.

يا نفس لا تغتري بالغنى والمنزلة التي ينظر إليها أهلها، فإن صاحب ذلك لا يبصر صغير ما يستعظم حتى يفارقه فيكون كشعر الرأس الذي يخدمه صاحبه ما دام على الرأس فإذا فارق رأسه استقذره ونفر منه.

يا نفس داومي على مداواة المرضى ولا تقلعي عن ذلك أن تقولي للطب مؤونة شديدة والناس لها ولمنافع الطب جهال. ولكن اعتبري برجل يفرج عن رجل كربته ويستفذه منه حتى يعود بعده إلى ما كان فيه من الروح والسعة ما أخلقه لعظم الأجر وحسن الثواب. فإن كان الذي يفعل هذا برجل واحد يرجو ذلك كله فكيف الطبيب الذي يداوي العدة التي لا يعلمها إلا الله ابتغاء الأجر، فيصرون بعد الأوجاع والأسقام الحائنة بينهم وبين الدنيا ولذتها ونعيمها وطعامها وشرابها وأزواجها وأولادها إلى أحسن ما كانوا يكونون عليه من حال دنياهم. إن هذا لخليق أن يعظم رجاؤه ويثق بحسن الثواب على عمله.

يا نفس لا يبعدن عليك أمر الآخرة فتتميلي إلى العاجلة فتكوني في استعمال القليل وبيع الكثير باليسير كالتاجر الذي زعموا أنه كان له ملء بيت من الصندل فقال: إن بعته موزونا طال علي، فباعه جزافاً بأخس الأثمان.

فلما خاصمت نفسي بهذا وأخذتها به وبصرتها إياه لم تجد عنه مذهياً فاعتزفت وأقرت ولهت عما كانت تنزع إليه، وقامت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة. فلم ينعني ذلك أن أصبت حظاً عظيماً من الملوك قبل أن أتى الهند، وبعد رجوعي إلى ما نلت من الأكفاء والإخوان فوق الذي كان طمعي فيه وتجمع إليه نفسي وفوق ما كنت له أهلاً.

ثم نظرت في الطب فوجدت الطبيب لا يستطيع أن يداوي المريض من مرضه بدواء يزيل عنه داءه فلا يعود إليه أبداً وغيره من الأدوية. والداء لا يؤمن عوده أو أشد منه. ووجدت عمل الآخرة هو الذي يسلم من الأدواء كلها سلامة فلا تعود إليه بعد ذلك فاستخففت في الطب ورغبت في الدين.

فلما وقع ذلك في نفسي اشتبه علي أمر الدين ولم أجد في الطب ذكراً لشيء من الأديان ولم يدلني على أهداها وأصوبها. ووجدت الأديان والملل كثيرة من أقوام ورثوها عن آبائهم وآخرين خائفين مكرهين عليها وآخرين يبتغون بها الدنيا ومنزلتها ومعيشتها، وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى فاستبان لي أنهم بالهوى يحتجون وبه يتكلمون لا بالعدل. وقد وجدت آراء الناس مختلفة وأهواءهم متباينة وكلاً على كل راد وله عدو ومغتاب ولقوله مخالف.

فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلاً وعلمت أنني إن صدقت منهم أحداً بما لا علم لي به أكن مثل المصدق المخدوع.

### مثل المصدق المخدوع

زعموا أنه ذهب سارق حتى علا بيت رجل من الأغنياء ليلاً ومعه أصحاب له فاستيقظ صاحب البيت فأحس بهم، وعرف أنهم لم يعلوا ظهر البيوت تلك الساعة إلا لريب، فنّبه امرأته وقال لها رويداً، إني لأحسّ باللصوص قد علوا ظهر بيتنا فإني متناوٍ، فأيقظني بصوت يسمعه من فوق البيت ثم نادي: يا صاحب البيت ألا تخبرني عن أموالك هذه الكثيرة وكنوزك من أين جمعتها. فإذا أبيت عليك فآلحي في السؤال. ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها واستمع اللصوص حديثهما فقال الرجل: يا أيتها المرأة قد سافك القدر إلى رزق كثير فكلي واسكتي ولا تسألني عما لو أخبرتك به لم آمن أن يسمعه سامع فيكون في ذلك ما أكره وتكرهين. قالت المرأة: أخبرني أيها الرجل فلعمري ما يقرّبنا أحد يسمع كلامنا. قال: فإني أخبرك أنني لم أجمع هذه الأموال وهذه الكنوز إلا من السرقة. قالت: وكيف جمعت هذه الأموال وهذه الكنوز من السرقة وأنت في أعين الناس عدل رضاء لا يتهمك أحد ولم يرتب بك.

قال: ذلك لعلم أصبته في علم السرقة فكان الأمر أوفق وأيسر من أن يتهمني أحد ويرتاب بي. قالت: وكيف ذلك؟ قال: كنت أذهب في الليلة المقمرة ومعني أصحابي حتى أعلوا ظهر البيت الذي أريد أن أسرق أهله وأنتهي إلى الكوة التي يدخل منها ضوء القمر فألقي بهذه الرقية "شولم شولم" سبع مرات ثم أعتنق الضوء فأنتهب به إلى البيت فلا يحس بوقعتي أحد، ثم أقوم في أصل الضوء فأعيد الرقية سبع مرات فلا يبقى في البيت مال ولا علق إلا بدا لي وأمكنني أن أتناوله فأخذ من ذلك ما أحببت. ثم أعتنق الضوء وأعيد الرقية سبع مرات فأصعد إلى أصحابي وأحملهم ما معني ثم ننسل.

فلما سمع اللصوص ذلك فرحوا فرحاً شديداً وقالوا: لقد ظفرنا من هذا البيت بما هو خير لنا من المال الذي نحن مصيبيوه منه، لقد أصبنا علماً أذهب الله به عنا الخوف وأمننا من السلطان. ثم أطالوا المكث حتى استيقنوا في أنفسهم أن صاحب البيت وامرأته قد ناما، فتقدم رئيسهم إلى مدخل الضوء من الكوة ثم قال: "شولم شولم" سبع

مرات، ثم اعتنق الضوء لينزل به كما زعم فوق في البيت منكساً، ووثب الرجل بهراوة فضربه حتى أثخنه ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا المصدق المخدوع وهذه ثمرة التصديق.

فلما تحرّزت من التصديق بما لا آمن أن يوقعني في الهلكة عدت للبحث عن الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحد جواباً عما سألته عنه ولا فيما ابتدأني به شيئاً يحق عليّ في عقلي أن أصدق به فأتبعه. فقلت لما لم أجد ثقة أخذ منه فالرأي أن أتبع دين أبيائي الذين وجدتهم عليه. فلما ذهبت ألتمس العذر لنفسني في ذلك لم أجد الثبوت على دين الآباء لي عذراً وقلت: إن كان هذا عذراً، فالساحر الذي وجد أباه ساحراً في عذر مع أشباهه، وذلك مما لا يحتمله العقل. وذكرت رجلاً كان فاحش الأكل يُعاب ذلك عليه فاعتذر بأن قال: هكذا كان يأكل أبيائي وأجدادي.

فلم أجد على الثبوت على دين الآباء سبيلاً ولا في ذلك عذراً ورأيت التفرع للبحث عن الأديان مشكلاً تخوفت قرب الأجل وسرعة انقطاع الأمل، فقلت: أما أنا فلعلي أفارق الدنيا وشيكاً دون صالح الأعمال فيشغلني ترددي عن خير كنت أعمله ويكون أجلي دون بلوغ ما ألتمس به فيصيبني مثل الخادم والرجل.

### مثل الخادم والرجل

زعموا أن رجلاً تواطأ مع خادم في بيت لأحد الأغنياء على أن يأتي البيت في كل ليلة يغيب صاحبه فيعطيه شيئاً من متاع سيده فيبيعه ويتشاطر ثمنه. فاتفق ذات يوم أن غاب أهل البيت وبقي الخادم وحده فأنفذ فأخبره الرجل فأقبل. وفيما هما يجمعان المال إذ قرع الباب وعاد رب البيت على بغته. وكان للبيت باب آخر لم يكن يعلمه الرجل وبقره جبّ ماء. فقال الخادم للرجل: أسرع واخرج من الباب الذي عند الجب.

فانطلق الرجل ووجد الباب لكنه لم يجد الجب فرجع إلى الخادم وقال له: أما الباب فوجدته، وأما الجب فلم أجده. فقال الخادم: ويحك انج بنفسك ولا تكثر للجب. قال الرجل: كيف أذهب وقد خلطت عليّ فذكرت الجب وليس هناك. قال الخادم: دع عنك الحمق والتردد وفرّ عاجلاً. فلم يزل ينازعه حتى دخل رب البيت فأخذه وأوجعه ضرباً ثم دفعه إلى السلطان.

فلما خفت من التردد والتجوال رأيت أن لا أتعرض لما خفت من ذلك وأن أقتصر على كل عمل تشهد الأنفس على أنه صحيح وتوافق عليه الأديان. فكففت يدي عن الضرب والقتل والغضب والسرفه والخيانة وحصّنت نفسي من الفجور وحفظت لساني من الكذب ومن كل كلام فيه ضرر على أحد، وكففت لساني عن الشتم والعضية والخنا والبهتان والغيبة والسخري.

والتمست من قلبي بأن لا أتمنى لأحد سوءاً ولا أكذب بالبعث والقيامة الثواب والعقاب. وزايلت الأشرار بقلبي ولزمت الصلحاء والأخيار جهدي. ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين ورأيت مكسبه إذا وفق له وأعان عليه يسيراً ووجدته أحسنّ على صاحبه وأبرّ من الآباء والأمهات. ووجدته يدل على الخير ويشير بالنصح فعل الصديق بالصديق، ووجدته لا ينقص إذا أنفق منه صاحبه بل يزداد على الاستعمال والابتدال جدة حسنة. ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يسلبه ولا من شيء من الآفات، لا من الماء أن يغرقه ولا من النار أن تحرقه ولا من اللصوص أن تسرقه ولا من شيء من السباع وجوارح الطير أن تمزقه. ووجدت الرجل الذي يزهد في الصلاح وعاقبته ويلهيه عن بذلك قليل ما هون فيه من حلاوة العاجل، إنما مثله فيما أنفذ فيه أيامه ويلهيه على ما ينفعه كمثّل التاجر والضارب بالصنّج.

### مثل التاجر والضارب بالصنّج

زعموا أن تاجراً كان له جوهرٌ كثيرٌ ثمينٌ، فاستأجر رجلاً لثقبه وحمله بمئة دينار ليومه ذلك. فانطلق به إلى بيته، فلما قعد إذا هو بصنّج موضوع في ناحية البيت فقال التاجر لصاحبه: هل تضرب بالصنّج؟ قال: وفوق ذلك. قال: فدونك. فتناول الرجل الصنّج وكان به ما هراً فلم يزل يُسمعه من صوت جيد وصوت مصيب حتى أمسى وترك سبط جوهره مفتوحاً واقبل على الضرب واللهو. فلما أمسى قال الرجل للتاجر: مرّ بأجرتي. فقال: ما عملت شيئاً فتأخذ أجرتي.

قال: عملت ما أمرتني أن أعمل. فوفاه مئة دينار وبقي جوهره غير مثقوب.

فلم أزد في الدنيا وشهواتها نظراً إلا ازدت فيها زهادة فرأيت أن أعتصم بالتأله والنسك ورأيت النسك يمهد للمعاد كما يمهد للولد أبواه ورأيت كالجنة الحريزة في دفع الشر الدائم الباقي، ورأيت الباب المفتوح إلى الجنة دار النعيم. ووجدت الناسك إذا فكر تعلوه السكينة، فإذا تواضع وقنع واستغنى ورضي فلا يهم إذ خلع الدنيا فنجا من الشرور ورفض الشهوات فصار طاهراً وانعزل فكفي الأحزان وطرح الحسد، فظهرت عليه المحبة وسخت نفسه عن كل فان فاستكمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة ولم يذنب فسلم. فلم أزد في أمر النسك نظراً إذا ازدت فيه رغبة حتى هممت أن أكون من أهله.

ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك وأن تضر بي العادة التي بها ربيت وغذيت ولم آمن إن أنا خلعت الدنيا وأخذت في النسك أن أضعف عن ذلك وأكون قد رفضت أعمالاً كنت أعملها قبل ذلك مما أرجو عائدتها، فيكون مثلي في ذلك كمثلي الكلب الذي مرّ بنهر وفي فيه ضلع فرأى ظل الضلع في الماء فأهوى ليأخذه فأهلك الذي كان في فيه ولم ينل الذي طمع فيه. فهبت النسك هيبة شديدة وخفت على نفسي الضجر وقلة الصبر وأردت الثبوت على حالتي التي كنت عليها.

ثم بدا لي أن أقيس بين ما أخاف وما أصبر عليه من الأذى والضيق في النسك وبين الذي يصيب صاحب الدنيا من البلاء فيها، وكان بينا عندي أنه ليس من شهوات الدنيا ولذاتها شيء إلا هو متحول أذى ومورث حزن. فالدنيا كالماء المالح الذي ما يزداد صاحبه منه شرباً إلا ازداد عطشاً. وكالعظم يصيبه فيجد فيه ريح اللحم فلا يزال يلوكه لطلبه ذلك اللحم فيدمي فاه ثم لا يزداد له طلباً إلا ازداد لفه إدماء. وكالحدأة التي تظفر بالبطيخة من اللحم فيجتمع عليها الطير فلا تزال في تعب وهرب حتى تلفظ ما معها وقد أعيت وتعبت. وكالقطة من العسل في أسفلها موت ذعاف. وكأحلام النائم التي تفرحه فإذا استيقظ انقطع الفرح عنه. وكالبرق الذي يضيء قليلاً ويذهب وشيكاً ويبقى راجيه في الظلام مقيماً. وكودة الإبريسم لا يزداد الإبريسم على نفسها لفاً إلا ازدادت من الخروج منه بعداً.

فلما فكرت في هذه الأمور راجعت نفسي في اختيار النسك ثم خاصمتني فقلت: ما يجوز هذا لي أن أفر من الدنيا إلى النسك إذا فكرت في شرورها، ثم أفر من النسك في الدنيا إذا تذكرت ما فيه من المشقة والضيق فلا أزال في تصرف لا أبرم رأياً ولا أعزم على أمر كالفاضي الذي سمع من أول الخصمين فقتضى له على الآخر ثم سمع الآخر فقتضى له على الأول.

ونظرت في الدنيا يهولني من أذى النسك وضيقه فقلت: ما أصغر هذا وأقله في جنب روح الأبد وراحته. فنظرت فيما نشره إليه النفس من لذة الدنيا فقلت: ما أمر هذا وأوخمه وهو يدفع إلى الشر وهوانه. وقلت: كيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة وكيف لا يستمر حلاوة قليلة تؤديه إلى مرارة كثيرة دائمة. وقلت: لو أن رجلاً عرض عليه أن يعيش مئة سنة لا يأتي عليه من ذلك يوم إلا قطع فيه قطعاً، ثم أحبي، ثم أعيد عليه مثل ذلك غير أنه شرط له إذا استوفى المئة سنة نجا من كل ألم فليس يكون حقيقاً إذا صار إلى الأمن والسرور ألا يرى تلك السنين شيئاً.

أو ليس الإنسان يتقلب في عذاب الدنيا من حين مولده إلى أن يستوفي أيام حياته، فإذا كان جنبنا في بطن أمه كان في أضييق الحبوس وأظلمها. وإذا وقع على الأرض فأصابته ريح أو لمستته يد وجد لذلك من الألم ما لا يجده الإنسان الذي قد سلخ جلده. ثم هو في ألوان من العذاب إذا جاع وليس به استغاثة مهما يلقي من الرفع والوضع واللف والحل والدهن. وإذا نوى على ظهره لم يستطع تقلباً مع أصناف من العذاب ما دام رضيعاً.

فإذا انقلبت من عذاب الرضاع أخذ في عذاب الأدب فأذيق منه ألواناً من عنف المعلم وضجر الدرس وسأم الكتابة. ثم له من الدواء والحمية والأوجاع والأسقام أوفى حظ. فإذا أدرك لحقه هم الأهل وجمع المال وتربية الولد ولعب به الشره والحرص ومخاطرة الطلب والسعي. وفي كل هذا تتقلب معه أعداؤه الأربعة، أي المرّة والدمة والبلغم والريح والسم المميت والحيات اللادغة مع خوف السباع والهوام وخوف الحر والبرد والأمطار والرياح. ثم ألوان العذاب من الهرم لمن يبلغه. فلوم لم يخف من هذه الأمور شيئاً وشرط له بالأمن من ذلك كله فوثق بالسلامة منها فلم يعتبر إلا في الساعة التي يحضره فيها الموت ويفارق فيها الدنيا وما هو نازل به تلك الساعة من فراق الأهل والأحبة والأقارب وكل مضمون به من الدنيا والإشراف على هول المطلع الفظيع المعضل بعد الموت، لكان حقيقاً أن يعدّ عاجزاً مفزطاً محتملاً للإثم إن لم يعمل لنفسه ويحتل لها جهد حيلته، ويرفض ما يشغله ويلهبه من شهوات الدنيا وغرورها لا سيما في هذا الزمان الشبيه بالصافي وهو كدر.

فإنه وإن كان الملك قد جعله الله سعيداً ميمون النقيبة حازم الرأي رفيع الهمة بليغ الفحص، عدلاً براً جواداً صدوقاً شكوراً، رحب الذراع متفقداً للحقوق ومواظباً مستمراً فهماً نفاعاً ساكناً بصيراً حليماً رؤوفاً رحيماً رفيقاً، عالماً بالناس والأمور، حباً للعلم والعلماء والأخيار، شديداً على الظلمة، غير جبان ولا خفيف القيادة، رفيقاً بالتوسع على الرعية فيما يحبون والدفع عنهم لما يكرهون، فإننا على ذلك قد نرى الزمان مدبراً بكل مكان. فكان أمر الصدق قد تورعت من الناس فأصبح مفقوداً ما كان عزيزاً ففقدته وموجوداً ما كان ضاراً وجوده. وكان الخير أصبح ذابلاً وأصبح الشر ناضراً. وكان الغي أقبل ضاحكاً وأدبر الرشد باكياً، وكان العدل أصبح غائراً وأصبح الجور غالباً، وكان الكرم أصبح مدفوناً وأصبح الجهل منشوراً، وكان اللؤم أصبح أشراً وأصبح الكرم موطوءاً، وكان الود أصبح مقطوعاً والبغضاء والحسد موصولاً، وكان الكرامة قد سلبت من الصالحين وتوخت بها الأشرار، وكان الخب أصبح مستيقظاً والوفاء نائماً، وكان الكذب أصبح مثمراً والصدق قاحلاً يابساً، وكان العدل ولى غائراً وأصبح الباطل مرحاً، وكان اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكماء، موكلأ وأصبح المظلوم بالخسف مقراً والظالم لنفسه مستطيلاً، وكان الحرص أصبح فارغاً فاه من كل جهاد يتلقفه ما قرب منه وما بعد وأصبح الرضا مفقوداً مهجولاً، وكان الأشرار أضحوأ يسامون السماء وأصبح الأخيار يريدون مطبق الأرض، وأصبحت المروءة مقذوفاً بها من أعلى شرف إلى أسفل سافلين، وأصبحت الدناءة مكرمة ممكنة، وأصبح السلطان منتقلاً من أهل الفضل إلى أهل النقص، وأصبحت الدنيا جذلة مسرورة مرحلة مختالة تقول: غيّبت الحسنات وأظهرت السيئات.

فلما فكرت في الدنيا وأمورها وأن هذا الإنسان هو أشرف الخلق وأفضله فيها، ثم هو على منزله لا يتقلب إلا في شر ولا يوصف إلا به، وعرفت أنه ليس من أحد له أدنى عقل إلا وهو يعقل هذا ثم لا يحتاط لنفسه ولا يعمل لنجاتها. فعجبت من ذلك كل العجب ونظرت فإذا هو لا يمنعه من ذلك إلا لذة صغيرة حقيرة طفيفة من الشم والطعم واللمس، لعله يصيب منها لطيفاً أو يتمنى منها طفيفاً لا يوصف قلبه مع سرعة انقطاع. فذلك الذي يشغله عن الاهتمام بأمر نفسه وطلب النجاة لها.

### مثل الرجل والتنين

فالتمست للإنسان في ذلك مثلاً فإذا مثله مثل رجل ألجأه خوف إلى بئر فتدلى فيها وتعلق بغصن بأعلى شفيرها فوقعت رجلاه على عمدتها فنظر فإذا هي حيات أربع قد أطلعن رؤوسهن من أحجاهن. ونظر إلى أسفل البئر فإذا هو بتنين فاغر فاه نحوه. ورفع رأسه إلى الغصن فإذا هي أصله جردان أبيض وأسود يقرضان الغصن دائبين لا يفتران. فبينما هو في النظر والاجتهاد لنفسه وابتغاء الحيلة في ذلك، إذ نظر فإذا قريب منه نحل قد صنعن شيئاً من العسل فأراد أن يأكل منه قليلاً فشغل قلبه عن التفكير في أمره والتماس حيلة ينجي بها نفسه ففسي أن يذكر الجرذين الدائبين في قطع الغصن، وأنها إذا قطعا وقع في التنين، فلم يزل لا هياً غافلاً حتى هلك.

فشبهت البئر بالدنيا المملوءة إفاً وبلايا وشرورا ومخاوف. وشبهت الحيات الأربع بالأخلاق الأربعة التي هي في بدن الإنسان. فمتى ما هاج منها شيء كان كحمة الأفعى والسم المميت. وشبهت الجرذين بالليل والنهار. وشبهت قرصهما للغصن دائبين دور الليل والنهار في إفناء الأجل الذي هو حصن الحياة. وشبهت التنين بالموت الذي لا بد منه. وشبهت العسل بهذه الحلاوة القليلة التي يرى الإنسان ويشم ويطعم ويسمع ويلمس فتشغله عن نفسه وتنسبه أمره وتلهيه عن شأنه وتصرفه عن سبل النجاة. فصار أمرى إلى الرضا بما لي وإصلاح ما استطعت إصلاحه من عملي لعلي أصادف فيما أمامي زماناً أصيب فيه دلاً على هداي وسلطاناً على نفسي وأعواناً على أمرى، فأقمت على هذه الحال، وانصرفت من الهند إلى بلادي وقد انتسخت من كتبها كتباً كثيرة منها هذا الكتاب.

### عرض كتاب كلية ودمنة

ابتداء كلية ودمنة، هو مما وضعته علماء الهند من ضرب الأمثال والأحاديث التي التمسوا أن يدخلوا فيها أبلغ ما يجدون من القول في النحو الذي أرادوا. ولم تزل العلماء من كل ملة وأهل كل لسان يلتسمون أن يعقل عنهم ما بنوا لذلك بصنوف من الحيل وبيتغون في إخراج ما عندهم من العقل حتى كان من تلك الحيل وضع بليغ الكلام ومقننه على أفواه البهائم والطيور، فاجتمع لهم بذلك خلال. أما هو فوجدوا منصرفاً في القول وشعاباً يأخذون فيها، وقد جمع هذا الكتاب لهواً وحكمة فاجتبه الحكماء لحكمته والسخفاء للهوه. فأما المتعلمون من الأحداث وغيرهم فنشطوا لعلمه وخف عليهم حفظه. فإذا خال الحدث واجتمع له الفعل وتدبر المتدبر ما كان مما صار مقيداً مريباً في صدره، وهو لا يدري ما هو عرف أنه قد ظفر من ذلك بكنوز عظام، فكان كالرجل الذي



يدرك حين يدرك فيجد أباه قد كنز له كنوزاً من الذهب وعقد له عقداً استغنى به عن استقبال السعي والطلب. ولم يكن إذ كنزت صنوف أصول العلم ثم كثرت فروع كل صنف منها حتى لا يستكمل منها شيء تدبر أن يكتز العلل التي تجري عليها أقاويل العلماء.

فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف الوجه الذي وضع عليه ولا يكن همه بلوغ آخره ليعرف إلى أية غاية يجري مؤلفه فيه، وأي شيء يخشى منه عندما نسبه إلى البهائم وأضافه إلى غير مفصح وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها مثلاً وأمثالاً. فإن قارئه متى بفعل ذلك ولم يدر ما أريد بتلك المعاني ولا أي ثمرة يجتنى منها ولا أية نتيجة تحصل له من مقدمات ما يصفه هذا الكتاب، فإنه ولو استنتم قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه، لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه.

### مثل المكتشف الكنز

ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب من غير إعمال الروية فيما يقرأه كان خليفاً أن لا يصيبه إلا كما أصاب الرجل الذي زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز فظهرت له آثار كنوز، فجعل يحفز ويطلب فوق على شيء كثير من عين وورق، فقال في نفسه: إن أخذت في نقل هذا المال كان إخراجي له قد قطعني الاشتغال بنقله عن اللذة بما أصيب منه، ولكن استأجر قوماً يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا أبقى ورائي قوماً يحملونه إلى منزلي وأكون أنا آخرهم ولا أبقى ورائي شيئاً أشغل فكري بنقله، وأكون قد استظهرت في إراحة بدني عن الكد بيسير أجرة أعطيها لهم. ثم جاء بالحمالين فجعل يسلم إلى كل واحد منهم ما يقدر على حمله ويقول له: اذهب به إلى منزلي. فينطلق به الحمال إلى منزل نفسه فيغدر به، حتى إذا لم يبق من الكنز شيء انطلق إلى منزله فلم ير فيه من المال شيئاً ووجد كل واحد من الحمالين قد فاز بما حمله لنفسه، ولم يكن له من ذلك العناء والتعب لأنه لم يفكر في آخر أمره.

### مثل الجوز الصحيح والصحيفة الصفراء

وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه، كما لو قدّموا لرجل جوزاً صحيحاً لم ينتفع به إلا أن يكسره وينتفع بما فيه. وكان كالرجل الذي طلب علم الفصيح فرسم له بعض أصدقائه صحيفة صفراء فيها فيصيح الكلام وتصاريقه ووجوهه، فانصرف المتعلم إلى منزله وجعل يكثر قراءتها فلا يقف على معانيها ولا يعرف ما فيها. ثم أنه جلس ذات يوم في محفل من أهل العلم والأدب والفتنة وهو يظن أنه قد اكتفى بما فازه من تلك الصحيفة فأخذ في محاورتهم، فجرت له كلمة أخطأ فيها فقال به عضهم: إنك قد أخطأت فيها والوجه غير ما تكلمت به. فقال: كيف أخطئ وقد قرأت الصحيفة الصفراء وهي في منزلي. فكانت مقالته أوجب الحجة عليه وزاده ذلك توهاً من الجهل وبعداً من الأدب.

### مثل الرجل الصابر على اللص

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب وتفقهه وبلغ نهايته وعلم ما فيه، ينبغي له أن يعمل بما علمه منه لينتفع به ويجعله مثلاً لا يحيد عنه. فإذا لم يفعل ذلك كان مثله مثل الرجل الذي يقال إن سارقاً تسوّر عليه وهو نائم في منزله فعلم به فقال: والله لأسكتنّ حتى أنظر ما يصنع ولا أذعره ولا أعلمه أنني قد علمت به، فإذا بلغ مراده قمت إليه فنصصت ذلك عليه. ثم أمسك عنه وجعل السارق يطوف، فطال ترده على الرجل في جمع ما يجده فغلبه النعاس فنام، وفرغ اللص مما أراد فأمكنه الذهاب. ثم استيقظ الرجل فوجد اللص قد فاز بما أخذ من المتاع فأقبل على نفسه باللوم حين عرف بأنه لم ينتفع بعلم موضع اللص إذ لم يستعمل في أمره ما يجب.

ويقال أن العلم لا يتم إلا بالعمل، وإن العلم كالشجرة، والعمل فيها كالثمرة، فليلزم صاحب العلم القيام بالعمل لينتفع به، وإن لم يستعمل ما يعلم فلا يسمى عالماً. ولو أن رجلاً كان عالماً بطريق مخوف ثم سلكه على علم به يسمى جاهلاً. ولعله يكون قد حاسب نفسه فوجدها قد ركبت أهواءً وهجمت به فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها به من ذلك السالك في الطريق المخوف الذي عرفه. ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربته أو علمه غيره، كان كالمريض العلام برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقله ثم يحمله الشره على رديئه وترك استعمال ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته.

## مثل البصير والأعمى

وأقل الناس عذراً في اجتتاب محمود الفعال وارتكاب مذمومه من أبصره وميَّزه وعرف فضل بعضه على بعض. كما أنه لو كان رجلان أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقها فيها، كانا إذا صارا جميعاً في قعرها بمنزلة واحدة في الهلكة. غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير، إذ كانت له عينان يبصر بهما. وذلك بما صار إليه جاهل غير عارف.

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناء العلم لمعاونة غيره، فيكون كالعين التي يشرب الناس ماءها وليس لها في ذلك شيء من المنفعة، وكدودة القز التي تحكم صنعته ولا تنتفع به.

فقد ينبغي لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه. ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه، فإن خلاصاً ينبغي لصالح الدنيا أن يقتبسها، منا اتخاذ المعروف وأن لا يعيب أحداً بشيء هو فيه، فيكون كالأعمى الذي يعبر الأعمى بعماء. وينبغي لمن طلب أمراً أن يكون له فيه غاية يعمل بها ويقف عندها ولا يتمادى في الطلب. فإنه يقال من سار إلى غير غاية فيوشك أن تنقطع به مطيته، وأنه كان حقيقاً أن لا يعي نفسه على طلب ما لا حد له وما لم ينله أحد قبله، ولا يتأسف عليه ولا يكون لدنياه مؤثراً على آخرته فإنه من لا يعلق قلبه بالعنايات قلت حسرته عند مفارقتها. وقد يقال في أمرين إنهما يجملان بكل أحد، وهما النسك والمال، وفي أمرين إنهما لا يجملان بكل أحد: الملك أن يشارك في ملكه والرجل أن يشارك في زوجته. فالخلتان الأوليان مثلهما مثل النار التي تحرق كل حطب يقذف فيها. والخلتان الأخريان كالماء والنار اللذين لا يمكن اجتماعهما.

## مثل الفقير واللص

وليس ينبغي للعاقل أن يغبط أحداً إذا ساق الله له صنيعاً. فلعل الله يرزقه مثله من حيث لا يدري. ومن أمثال ذلك أن رجلاً كانت به فاقة وعري، فألجأه الأمر إلى أن سأل أقاربه وأصدقاء فلم يجد عند أحدهم فضلاً يعود به عليه. فبينما هو ذات ليلة في منزله إذ أبصر سارقاً يجول في منزله، فقال: والله ما في منزلي شيء أخاف عليه. فاجتهد السارق جهده، فبينما هو يجول إذ وقعت يده على خابية فيها حنطة، فقال: والله ما أحب أن يكون عنائي الليلة باطلاً، ولعلي لا أصل إلى موضع آخر، ولكن أحمل هذه الحنطة، فهي خير من الرجوع بغير شيء. ثم بسط رداءه ليصّب عليه الحنطة، فقال الرجل: ليس لي على هذا صبر، أذهب هذا بهذه الحنطة وليس ورائي سواها، فيجتمع عليّ العري وذهاب ما كنت أقتات به، ولا تجتمع والله هاتان الخلتان على أحد إلا أهلكته. ثم صاح بالسارق وأخذ هراوة كانت عند رأسه. فلم يكن للسارق إلا الهرب منه، فترك رداءه ونجا بنفسه، فأخذه الرجل وغدا كاسياً.

وليس ينبغي أن يركن إلى مثل هذا المثل ويدع ما يجب عليه من العمل والسعي لصالح معاشه، ولا أن ينظر إلى من تواتيه المقادير وتساعد على غير التماس منه. فإن أولئك في الناس قليل، والجمهور منهم من أتعب نفسه في الكد والسعي فيما يصلح أمره وينال به ما أراد. وينبغي أن يكون حرصه على ما طاب كسبه وحسن نفعه، ولا يعرض نفسه لما يجلب عليه العناء والشقاء، فيكون كالحمامة التي تفرّخ الفراخ للذبح ولا يمنعها ذلك أن تعود تفرخ في موضعها وتقيم بمكانها وتؤخذ فراخها ثانية فتذبح.

وقد يقال إن الله تعالى قد جعل لكل شيء سبباً، ومن تجاوز في الأشياء حدّها أوشك أن يلحقه تقصير عن بلوغها. ويقال من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه. ويقال في ثلاثة أشياء يجب على صاحب الدنيا إصلاحها فيبذل جهده فيها: منها أمر معيشتها، ومنها ما بينه وبين الناس، ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعده. وقد قيل في أمور كنّ فيه لم يستقم له عمل، منها التواني، ومنها تضییع الفرص، ومنها التصديق لكلّ مخبر بشيء عقله ولا يعرف استقامته فيصتقه.

وينبغي للعاقل أن يكون لهواه متهماً ولا يقبل من كلّ أحد حديثاً لا يتمادى في الخطأ إذا التبس عليه أمره حتى يتبين له الصواب وتتوضح له الحقيقة، ويكون كالرجل الذي يجوز عن الطريق فيستمر على الضلال ولا يزداد في السير إلا جهداً وعن القصد إلا بعداً. والرجل الذي تقذى عيناه ولا يحكمها حتى ربما كان ذلك الحك سبباً لذهابهما. وعلى العاقل أن لا يصتق بالقضاء والقدر ويأخذ بالحزم، ويحب للناس ما يحبه لنفسه، ولا يلتبس صلاح نفسه بفساد غيره، فإنه من فعل ذلك كان خليفاً أن يصبه ما أصاب التاجر من رقيقه.

## مثل الشريك المحتال

يقال أنه كان رجل تاجر وله شريك فاستأجرا حانوتاً وجعلا فيه متاعهما، وكان أحدهما قريب المنزل إلى الحانوت فأضمر في نفسه أن يسرق عدلاً من أعدل رفيقه. وفكر في الحيلة في ذلك، وقال: إن أتيت ليلاً لا آمن أن أحمل عدلاً من أعدالي أو رزمة من متاعي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلاً. واخذ رداءه وألقاه على العبد الذي أضمر أخذه ثم مضى إلى منزله.

فجاء شريكه بعد ذلك ليصلح أعداله، فقال: "والله هذا رداء صاحبي ولا أحسبه إلا قد نسيه، وأما الرأي فإن لا أعده ها هنا بل أجعله على أعداله فلعله يسبقني إلى الحانوت فيجده حيث يحب. ثم ألقى الرداء على عدل من أعداله وقفل الحانوت وانصرف.

فلما كان الليل جاء رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ما عزم عليه وضمن له جعلاً على حمله، فصار إلى الحانوت والتمس الرداء في الظلمة فوجده على أحد الأعدال فاحتلمه بعد الجهد الجهد حتى أخرجه هو والرجل. ولم يزل يترأخ على حمله حتى أتيا به منزله ورمى نفسه تعباً. فلما أصبح نظر فإذا هو بعض أعداله فندم أشد الندم. ثم انطلق نحو الحانوت فوجد رفيقه قد سبقه وفتح الباب وتفقد العبد فلم يجده، فاغتم لذلك غمّاً شديداً، وقال: واسوأته من رفيقي الصالح الذي اتبعتني على ماله وخلفني وانصرف، ماذا يكون حالي عنده ولا شك في تهمة إياي. ثم أتى رفيقه فوجده مغتماً فسأله عن حاله فقال له: إني قد فقدت عدلاً من أعدالك ولا أعلم سببه ولا أشك تهمتك إياي، وإني قد وظنت نفسي على غرامته.

فقال له: لا تغتم يا أخي، فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان. والمكر والخديعة لا يؤديان إلى الخير وصاحبهما مغرور أبداً، وما عاد وبال البغي إلا على صاحبه. وأنا أحد من مكر وخدع واحتال. فقال له رفيقه: وكيف كان ذلك؟ فأخبره بأمره وقص عليه قصته، فقال له صديقه: ما كان مثلك إلا كمثل اللص المخدوع والتاجر. قال: وكيف كان ذلك؟

## مثل اللص المخدوع

قال: زعموا أنه كان تاجر في منزله خابيتان، إحداها مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً. فترقبه بعض اللصوص زماناً، حتى إذا كان في بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل في بعض أشغاله فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه. فما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة فاحتلمها. ولم يزل في كد وتعب حتى أتى منزله. فلما فتحها وعلم ما فيها ندم.

فقال له الخائن: ما بعثت المثل ولا تجاوزت القياس وقد اعترفت بذنبي، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء. فقبل الرجل معذرتة وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به، وندم هو عندما عاين سوء فعله وتقدم جهله.

وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا أن لا يجعل غايته التصفح لتزايقه، بل ليشرف على ما تضمن من الأمثال حتى يأتي على آخره ويقف عند كل مثل وكلمة ويعمل فيها رويته.

## مثل الأخ الصغير والمُحسن إلى أخويه

ويكون كأحد الإخوة الثلاثة الذي خُلف لهم أبوهم المال الكثير فتنازعوه بينهم. فأما الاثنان الكبيران فإنهما أسرعا في إتلافه وإنفاقه في غير وجهه. وأما الصغير فإنه عندما نظر إلى ما صار إليه أخواه من إسرافهما وخلوهما من المال، أقبل على نفسه يشاورهما وتفكر في سر تصرف أخويه وقال: يا نفس إنما المال يطلبه صاحبه ويجمعه في كل وجه لبقاء حاله وصلاح دنياه وشرف منزلته في أعين الناس واستغنائه عما في أيديهم وصرفه في وجهه من صلة الرحم والإنفاق على الولد والإفضال على الإخوان. فمن كان له مال ولا ينفقه، كان كالذي يعد فقيراً وإن كان موسراً. وإن هو أحسن إمساكه والقيام عليه، لم يعدم الأمرين جميعاً من دنيا تضاف إليه وحمد يبقى عليه. ومتى قصد على حسرة وندامة.

ولیکن الرأي في إمساك هذا المال بأن أعين أخويّ وينفعني الله تعالى به، وإنما هو مال أبي وأبيهما، وإن أولى الإنفاق صلة الرحم وإن بعدت فكيف بأخوي.

وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أن يديم النظر فيه ويلتمس جواهر معانيه ولا يظن أن مغزاه إنما هو الإخبار عن حيلة بهيمتين أو محاورة سبع لثور، فينصرف بذلك عن الغرض المقصود، ويكون مثله مثل الصياد والصدقة.

### مثل الصياد والصدقة

كان صياد في بعض الخلجان بصيد ذات يوم في الماء إذ أبصر صدفة فتوهمها شيئاً، فألقى شبكته فاشتملت على سمكة كانت قريباً منها فحلاها وقذف نفسه في الماء ليأخذ الصدفة. فما أخرجها وجدها فارغة فندم على ما في يده وتأسف على ما فاتته. ولما كان في اليوم الثاني تنحى عن ذلك المكان ورمى شبكته فأصاب حوتاً صغيراً فحاول أخذه ورأى أيضاً صدفة سنّية فلم يلتفت إليها وساء ظنه بها وتركها. فاجتاز بعض الصيادين بذلك المكان فراها وأخذها فوجد فيها درة تساوي مبلغاً وافراً.

وكذلك الجهال على إغفال أمر التفكير والاعتدال في أمر هذا الكتاب وترك الوقوف على أسرار معانيه والأخذ بظاهره دون الأخذ بباطنه. فقد قالت العلماء: إن مثل هذا الرجل الذي يظفر بعلم الفلسفة ويصرف همه إلى ابواب الهزل، كرجل أصاب روضة هواؤها صحيح وتربتها طيبة فزرعها وسقاها حتى إذا قرب خيرها وأينعت، تشاغل عن ثمرها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك فأهلك بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة.

وينبغي للناظر في هذا الكتاب ومقتنيه أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أقسام وأغراض: أحدهما ما قصد من وضعه على ألسن البهائم غير الناطقة ليتسارع إلى قراءته واقتنائه أهل الهزل من الشبان فيستميل به قلوبهم، لأن هذا هو الغرض بالنوادر من الحيوانات. والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الألوان والأصباغ ليكون أنساً لقلوب الملوك ويكون حرصهم أشد للنزعة في تلك الصور. والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذ الملوك والسوقة فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل، فيخلق على مرور الأيام بل ينتفع بذلك المصور والناسخ أبداً.

والغرض الرابع، وهو الأقصى، وذلك يخص الفيلسوف خاصة، أعني الوقوف على أسرار معاني الكتاب الباطنة.

### باب الأسد والثور

قال دبشليم ملك الهند ليبدبا رأس الفلاسفة: اضرب لي مثل الرجلين المتحابين يقطع بينهما الكذوب الخائن ويحملهما على العداوة.

قال بيبدبا: إذا ابتلي الرجلان المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب الخائن تقاطعا وتدابرا.

### مثل التاجر وبنيه

كان في أرض دستبا تاجر مكثر وكان له بنون. فلما أدركوا أسرعوا في إتلاف مال أبيهم ولم يحترفوا حرفة يصيبون بها مالاً. فلامهم أبوهم وعظهم فكان من عظته لهم أن قال: يابني، إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلا بأربعة أشياء. أما الثلاثة التي تطلب فالسعة في المعيشة والمنزلة عند الناس والبلغة إلى الآخرة. وأما الأربعة التي لا تصاب الثلاثة إلا بها فاكْتساب المال من معروف وجهه، ثم حسن القيام على ما اكتسب منه والتميز له بعد اكتسابه، ثم إنفاقه فيما يصلح به المرء معيشته ويرضي به الأهل والإخوان، ويعود عليه في الآخرة نفعه، ثم التوقي لجميع الآفات جهده. فمن أصاع شيئاً من هذه الخلال الأربع لم يدرك ما أراد، لأنه إن لم يكن ذا مال وذا اكتساب، ثم لم يصلح ماله ولم يحسن القيام عليه أوشك أن ينفذ ويبقى بلا مال. وإن هو أنفقه ولم يثمر لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار، ثم هو مع ذلك سريع النفاد. وإن هو اكتسبه وأصلحه وثمره ثم أمسك عن إنفاقه في وجوهه ومنافعه كان ممن يعد فقيراً لا مال له، ثم لم يمنع ذلك أن يفارقه ويذهب حيث لا يريد بالمقادير والعلل، كمحبس الماء الذي لا يزال ينصب إليه ولم يكن له مغيض ومخرج يخرج منه بقدر ما يفضل عنه انيثق بئقاً لا يصلح، فذهب الماء ضياعاً وفساداً.

ثم إن بني التاجر اتعظوا وأخذوا بأمر أبيهم فانطلق كبيرهم في تجارة متوجهاً إلى أرض يقال لها متور. فمر على طريقه ذلك بمكان فيه وحل شديد ومعه عجله يجرها ثوران يقال لأحدهما شتربة وللآخر بنديبة. فوحد

شترية في ذلك الوحل فعالجه الرجل وأعوانه فلم يقدرُوا على إخراجِه، فذهب التاجر وخلف عنده رجلاً وأمره أن يقوم عليه أياماً حتى إذا نشف الوحل أخرجه وأتبعه به.

فلما أن كان الغد من ذلك اليوم ضجر الرجل بمكانه فلحق بالتاجر وترك الثور وأخبره أنه قد مات، وقال له إن الإنسان إذا انقضت مدته وحانت منيته فهو وإن اجتهد في التوقي من الأمور التي يخاف فيها على نفسه الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئاً وربما عاد اجتهداه في توقيه وحذره وبالأعلى عليه.

### مثل الرجل الهارب من الموت

كالذي قيل إن رجلاً سلك مفازة فيها خوف من السباع وكان الرجل خبيراً بوعث تلك الأرج وخوفها. فلما سار غير بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضرها. فلما رأى الرجل أن الذئب قاصد نحوه اشتد وجعله ونظر يميناً وشمالاً ليجد موضعاً يتحرّز فيه من الذئب فعابن قرية على شاطئ نهر خلف واد فقصدها. فلما انتهى إلى النهر لم يجد عليه قنطرة ليقطعه والذئب كان يدركه فقال: كيف أمتنع من الذئب والنهر عميق وأنا لا أحسن السباحة على أني ألقي نفسي في الماء. فلما نزل في النهر كاد يغرق فرآه قوم من أهل القرية فأرسلوا إليه من استخرجه وقد أشرف على الهلكة فجا من الذئب ومن الغرق. ثم رأى على شاطئ الوادي بيتاً منفرداً فقال أدخل هذا البيت فأستريح فيه. فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار وهم يقتسمون ماله ويريدون قتله. فخاف الرجل على نفسه ومضى نحو القرية فأسند ظهره إلى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والإعياء، فسقط الحائط عليه فقتله. قال التاجر: صدقت وقد بلغني هذا الحديث.

ثم إن الثور المدعو شترية انبعث من مكانه فلم يزل يدب حتى انتهى إلى مرج مخصب كثير الماء والكلأ فأقام فيه، فلم يلبث أن سمن وأمن فجعل يزأر ويخور ويرفع صوته بالخوار.

وكان قربه أسد هو ملك تلك الناحية، ومعه سباع كثيرة من الذئاب وبنات آوى والثعالب وسائر السباع. وكان الأسد مزهواً منفرداً برأيه، ورأيه غير كامل. فلما سمع الأسد خوار الثور، ولم يكن رأى ثوراً قط ولا سمع خواره، رعب وكره أن يقطن لذلك جنده فأقام بمكانه ذلك لا يبرح وجهاً. وكان ممن معه ابنا آوى يقال لأحدهما كليله وللآخر دمنة، وكلاهما ذو أدب ودهاء. وكان دمنة شرهما نفساً وأشدّهما تطلعاً إلى الأشياء، ولم يكن الأسد عرفهما. فقال دمنة لكليله: ما ترى يا أخي شأن هذا الأسد مقيماً بمكان واحد لا يبرح ولا ينشط فيأتيه جنده كل يوم بطعامه؟ فقال كليله: ما لك والمسألة عما ليس من شأنك؟ أما حالنا نحن فحال صدق ونحن بباب ملك واحد واجدين ما نأكل ولسنا من أهل الطبقة التي يتناول أهلها كلام الملوك وينظرون في أمورهم. فاستكت عن هذا واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

### مثل القرد والنجار

زعموا أن قرداً رأى نجاراً يشق خشبة بوتدين له راكباً عليها كالأسوار على الفرس، وأنه كلما أوتد وتداً نزع وتداً فقدمه. ثم إن النجار قام لبعض أموره فانطلق القرد يتكلف ما ليس من صنعته ولا من شأنه، فركب الخشبة وجعل ظهره قبل الودت فتدلى ذنبه في ذلك الشق وعالج الودت لينزع. فلما انتزع انضمت الخشبة على ذنبه فخر مغشياً عليه. فلم يزل على تلك الحالة حتى جاء النجار فكان ما لقي القرد من صاحبه من الضرب والعذاب أشد من ذلك.

قال دمنة: قد سمعت مثلك وفهمته ولكن اعلم أنه ليس كل من دنا من الملوك إنما يدنو منهم لبطنه، إنما البطن يحشى بكل مكان، ولكن ليلتمس الرفعة والمنزل الذي يسر الصديق ويسوء العدو. وإن أدنى الناس وضعفاءهم القليلة مروءتهم هم الذين يرضون بالدون ويفرحون به، كالكلب الذي يصيب عظماً يابساً فيفرح به. فأما أهل المروءة والوفاء فلا يغنيهم القليل ولا يرضون بالدون حتى يسموا إلى ما هم له أهل، كالأسد الذي يقترس الأرنب. فإذا رأى الإتان ترك الأرنب وطلب الإتان. ألا ترى أن الكلب يصبص بذنبه كثيراً حتى تلقى له الكسرة. أما الفيل المعترف بفضلته وقوته إذا قدّم إليه علفه لم يأكله حتى يمسح ويملّق. فمن عاش غير خامل المنزلة ذا فضل على نفسه وأصحابه فهو، وإن قل عمره، طويل العمر. ومن عاش في وحدة وضيق وقلة خير

على نفسه وأصحابه فهو، وغن طال عمره، قصير العمر. وقد كان يقال: البائس من طال عمره في ضرر. ويقال: ليعد من البقر والغنم من لم يكن له هم إلا بطنه.

قال كليلة: قد عرفت مقاتلك فراجع عقلك واعلم أن لكل إنسان منزلة وقدرًا. فإذا كان في منزلته متماسك الحال في أهل طبقتة كان حقيقاً أن يقنع ويرضى. وليست لنا من المنزلة ما نحط به حالنا التي نحن عليها.

قال دمنة: إن المنازل مشتركة، فذو المروءة ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة إلى المنزلة الرفيعة، والذي لا مروءة له هو يحط نفسه من المنزلة الرفيعة إلى المنزلة الوضيعة. والارتقاع من صغر المنازل إلى أشرفها شديد. وموونة الانحطاط من الشرف إلى الضعة سهل. وإنما مثل ذلك مثل الحجر الثقيل الذي رفعه من الأرض إلى العاتق عسير وطرحه من العاتق إلى الأرض يسير. فنحن أخوان نروم ما فوقنا من المنازل طاقتنا ونلتمس ذلك بمروءتنا، ولا نقيم على مرتبتنا هذه ونحن نستطيع ذلك.

قال كليلة: فما الذي أنت فيه الآن مجمع؟

قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الوهلة. فإن الأسد ضعيف الرأي، وقد التبس عليه وعلى جنوده أمرهم. ولعلي على هذا الحال أدنو من الأسد بنصيحة فأصيب عنده منزلة وجاهاً.

قال كليلة: فما الذي أنت فيه الآن مجمع؟

قال دمنة: أريد أن أتعرض للأسد عند هذه الوهلة. فإن الأسد ضعيف الرأي، وقد التبس عليه وعلى جنوده أمرهم. ولعلي على هذا الحال أدنو من الأسد بنصيحة فأصيب عنده منزلة وجاهاً.

قال كليلة: وما يدريك أن الأسد قد التبس عليه أمره؟

قال دمنة: أعرف ذلك بالرأي والحرص، فإن ذا الرأي ربما عرف باطن أمر صاحبه بما يظهر منه، حتى ربما عرف ذلك في هيئته وشكله.

قال كليلة: كيف ترجو المكانة عند الأسد ولست صاحب سلطان ولا لك علم بخدمة السلاطين ومعاشرتهم وأدابهم.

قال دمنة: إن الرجل القوي الشديد البطش لا يعيبه الحمل الثقيل، والضعيف لا تغني عنه الحيلة شيئاً ولا تضر العاقل الغربة، ولا يتمتع من المتواضع اللين الجانب أحد.

قال كليلة: فإن السلطان لا يتوخى بكرامته أفضل من بحضرته ولكنه يؤثر بذلك من دنا منه. ويقال إن مثل السلطان في ذلك مثل الكرم الذي لا يتعلق بأكرم الشجر، إنما يتعلق بمن دنا منه. فكيف ترجو المنزلة من الأسد ولست تدنو منه؟

قال دمنة: لقد فهمت ما ذكرت وأنت صادق. ولكني أعلم أن الذين هم أقرب إلى السلطان منا قد كانوا وليست لهم منازلهم. ثم دنوا منه بعد البعد فبلغوا المنازل. فأنا ملتصق بلوغ منازلهم ومكانهم جهدي بالدنو منه. وقد كان يقال إنه لا يواظب على باب السلطان أحد فيلقي عنه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا وصل إلى أعلى درجة من السلطان.

قال كليلة: قد فهمت: فهبك قد وصلت إلى الأسد، فما توفيقك الذي ترجو أن تنال به المنزلة عنده والحظوة لديه؟

قال دمنة: لو قد دنوت منه عرفت أخلاقه ثم انحططت في هواه ورفقت بمتابعته وقلة الخلاف عليه. فإذا أراد أمراً هو في نفسي صواب زينته له وبصرته ما فيه وشجعت له حتى يزداد به سروراً. وإذا أراد أمراً أخاف عليه ضرره وشئته بصرت ما فيه من الضرر والشين، وما في تركه من النفع والزين، ودخلت عليه بالرفق واللين. فأنا أرجو أن يزداد لي الأسد بذلك خيراً وأن يرى في ذلك مني ما لم ير من غيري. فإن الرجل الأديب الرفيق لو شاء أن يبطل حقاً ويحق باطلاً أحياناً لفعل، كالمصور الماهر الذي يصور في الجدار تصاوير فتري

كانها خارجة من الجدار وليست بخارجه، وأخرى تراها كأنها داخله وليست بداخله فيه. فإذا أبصر الأسد فضلي وعرفه وعرف ما عندي كان هو أحرص على كرامتي وتقربي منه.

قال كليله: أما إذا كان هذا رأيك فإني أحذرك صحبة السلطان فإن صحبته خطر عظيم. وقد قالت العلماء: في أمور ثلاثة لا يجتري عليها إلا الأهوج ولا يسلم منها إلا القليل؛ منها صحبة السلطان، ومنها شرب السم للتجربة، ومنا ائتمان النساء على الأسرار. وإنما شتهت العلماء السلطان بالجبل الوعر الصعب المسلك الذي فيه كل ثمرة طيبة، وهو معدن النمر والأسد والذئب وكل سبع مخوف، والارتقاء إليه شديد والمقام فيه أخوف.

قال دمنة: صدقت فيما وصفت غير أنه من لم يركب الأهوال لم يدرك الرغائب، ومن ترك الذي لعله يبلغ فيه حاجته هيبة له ومخافة لما لعله يتوقى فليس ببالحجس. وقد قيل في أعمال ثلاثة لا يستطيعها أحد إلا بمعونة من ارتفاع الهمة وعظم الخطر: منها صحبة السلطان ومنها تجارة البحر ومنها مناجزة العدو. وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل المروءة إنه لا ينبغي أن يرى في مكانين ولا يليق به غيرهما، إما مع الملوك مكرماً وإما مع النساك متبتلاً، كالليل إنما يرغب ببقائه وجماله في مكانين، إما في برية وحشياً وإما مركباً للملوك.

قال كليله: فخار الله لك فيما عزمت عليه. وأما أنا فإني مخالفك برأيك هذا.

ثم إن دمنة انطلق حتى دخل على الأسد وسلم عليه. فقال الأسد لمن عنده: من هذا؟ قالوا: هذا فلان بن فلان. فقال الأسد: قد كنت أعرف أباه. فادناه الأسد ثم قال له: أين كنت؟ فقال دمنة: لم أزل مرابطاً بباب الملك رجاء أن يحضر امرئ أعين الملك فيه. فقد تكثر عنده الأمور التي ربما احتيج فيها إلى من لا يؤبه له، فإنه لا يكاد يخلو أحد، وإن كان صغير القدر والمنزلة، أن يكون عنده منفعة وإن صغرت. فإن العود المنتثر في الأرض ربما انتفع به المنتفع تأكله أذنه فيحكما به. فالحيوان العالم بالضرر أحرى أن ينتفع به.

فلما سمع الأسد كلام دمنة أعجبه وظن أن عنده نصيحة ورأيا، فأقبل على قرابته فقال لهم: إن الرجل ذا المروءة والعلم يكون حامل المنزلة غامض الأمر، ثم تأبى مروءته وعقله ألا يتبين ويعرف كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً.

فلما عرف دمنة أن الأسد قد أعجب به قال: أيها الملك إن رعيتك ومن بحضرتك حذروا أن يرفعوا ما عندهم إليك، ولا تنزلهم منازلهم إلى بذلك كالزرع المدفون في الأرض من الحنطة والشعير وسائر الأنواع لا يدري أحد ما أجناسها حتى تكون هي التي تخرج وتظهر. وحق على السلطان أن يبلغ كل امرئ مرتبته على قدر نصيبته ورأيه وما يجد عنده من المنفعة والأدب. فإنه كان يقال: في أمرين لا ينبغي لأحد، وإن كان ملكاً، أن يضع واحداً منهما في غير موضعه ولا يزيله في منزلته، وهما حلية الرجلين وحلية الرأس. ومن ضيَّب الياقوت واللؤلؤ بالبرصا فليس ذلك مما يصغر باللؤلؤ والياقوت ولكنها تعد جهالة ممن فعل ذلك. وكذلك يقال: لا يصحب الرجل صاحباً لا يعرف ليمينه من شماله موضعاً. وإنما يستخرج ما عند الرجال ولاتها وما عند الجند قاداتها وما في الدين وتأويله وعلماءه وفقهاؤه. وقد قيل: إن أشياء ثلاثة فضل ما بينها متضارب وإن كان يجمعها اسم واحد: فضل المقاتل على المقاتل، والعالم على العالم، والمتكلم على المتكلم. وإن كثرة الأعوان إذا لم يكونوا متحيزين مضرّة في العمل. وجاء العمل بصالح الأعوان لا بكثرتهم، كالرجل الذي يحمل الياقوت فلا يتقل عليه حملة وهو واحد به حاجته. وكذلك العمل الذي بلوغه بالرفق لا يصلحه العنف وإن استظهر به. والوالي حقيق ألا يحتقر مروءة رجل وإن صغرت منزلته. وإن الصغير ربما عظم فعظم كالعصب يؤخذ من الميتة فيستعمل في القوس فيصير إلى حد كرامة عند الملك لحاجته إليه في القوة والبأس، ويستعمل في السروج فيصير مركباً للملوك والأشراف.

وأحب دمنة أن ينال المنزلة والكرامة من الملك وأن يعلم القوم أن ذلك ليس من قبل معرفة الأسد إياه ولكن لمروءته في نفسه ورأيه فقط، فقال: إن السلطان لا يقرب الرجال لقرب آبائهم منه، ولا يباعدهم لبعدهم ولكنه ينزلهم على قدر ما عند كل امرئ منهم من المنافع. فإنه ليس شيء أقرب إلى الرجل من جسده فيعتل عليه بعضه فلا يدفع عنه تلك العلة إلا بدواء يؤتى به من بعد. والجرذ في البيت جار مجاور، فلما صار مؤذياً عودياً ونفياً. والبازي وحشياً فلما صار نافعاً اقتني واتخذ حتى أن الملك يحمله على يده.

فلما فرغ دمنة من كلامه هذا ازداد به الأسد عجباً وأحسن عليه الرد والثناء وقال لجلسائه: إنه لا ينبغي للوالي أن يلج في تصيير حق ذي الحق ووضع ذي المنزلة عن منزلته، بل ينبغي للوالي أن يستدرك ما مضى من

تفريطه في ذلك ولا يغترّ برضا المفعول به وإقراره بذلك. فإن الناس في ذلك رجلاّن: رجل أصل طباعه الشراسة، فهو كالحية إن وطئها الواطئ فلم تلدغه لم يكن جديراً أن يغره ذلك فيعود إلى وطنها فلتدغه.

ورجل أصل طباعه السهولة، فهو كالصنديل البارد الذي إذا أفرط في حكه عاد حاراً مؤذياً.

ثم إن دمنة لما استأنس بالأسد خلا به وقال له: إني قد رأيت الملك أقام بمكانه هذا زمناً لا يبرح منه فأنى ذلك؟

قال الأسد وكره أن يعلم دمنة أن ذلك منه جبن: لم يكن ذلك لياس.

فبينما هما يتحاوران إذ خار الثور خوّاً شديداً هتجّ روح الأسد حتى أخبر دمنة بما في نفسه، فقال: هذا الصوت الذي أسمع لا أدري ما هو. غير أنني أظن أن جثة صاحبه على قدر صوته، وأن قوته على قدر جثته. فإن كان ذلك كذلك فليس لنا هنا مكان ولا قرار.

قال دمنة: فهل راب الملك شيء غير هذا الصوت؟

قال الأسد: لم يريني شيء غيره.

قال دمنة: فليس الملك بحقيق أن يبلغ منه هذا الصوت إلى أن يدع مكانه. فإنه يقال: إن السكر الضعيف آفته الماء، وإن العقل آفته الصلف، والمروءة آفتها النميمة، والقلب الضعيف آفته الصوت الشديد والجلبة. وإن في بعض الأمثال بياناً من أن ليس كل الأصوات تُهاب.

قال الأسد: فما هذا المثل؟

### مثل الثعلب والطبل

قال دمنة: زعموا أن ثعلباً جائعاً أتى على أجمة فيها طبل ملقى إلى جانب شجرة. فإذا هبت الريح تحركت أغصان الشجرة وأصابت الطبل فصوت صوتاً شديداً. فسمع الثعلب ذلك الصوت فتوجه نحوه حتى انتهى إلى الطبل. فلما رآه ضخماً قال في نفسه: إن هذا لخليق بكثرة الشحم واللحم. فعالجه أشد العلاج حتى شقه. فلما رآه أجوف، قال: لعل أقسل الأشياء أعظمها جثة وأعظمها صوتاً.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن هذا الصوت الذي يروّنا لو انتهينا إليه وجدناه أيسر مما في أنفسنا. وإن شاء الملك بعثني نحو هذا الصوت وأقام هو مكانه حتى أرجع إليه ببيان خبره. فوافق الأسد دمنة على قوله فأذن له.

فانطلق دمنة نحو المكان الذي فيه الثور. فلما فصل دمنة من عند الأسد فكر الأسد في أمره فندم على إرساله دمنة حيث أرسله، وقال في نفسه: ما أصبت بآئتمان دمنة على ما آئتمنته عليه وإطلاعه على سري بعد أن كان مطروحاً على بابي. فإن الرجل الذي يحضر باب السلطان إذا كانت قد أطلبت جفوتته من غير جرم، أو كان متعتاً عليه عند سلطانه، أو معروفاً بالحرص والشره، أو كان أصابه ضرٌّ وضيق فلم ينتعش، أو حيل بينه وبين ما كان في يديه من سلطان أو مال، أو كان يلي عملاً ففرق وانتقص منه وشورك بينه وبين آخر، أو كان اجترم جرماً يخاف العقوبة عليه، أو كان شريراً لا يحب الخير، أو كان وقف على خزاية، أو كان جنى جناية في نظرائه، أو كان أبلى هو ونظراؤه بلاءً حسناً ففضلوا في الجزاء، أو كان له عدو مشاحن ففضل عليه في المنزلة والجاه، أو كان غير موثوق به في الدين والهوى، أو كان يرجو في شيء مما ينفعه، أو هو لعدو السلطان مسلماً ولسلمه حرباً. فكل هؤلاء ليس السلطان حقيقاً أن يعجل الاسترسال إليهم والثقة بهم والائتمان لهم. وإن دمنة ذو دهاء وأرب، فقد كان ببابي مطروحاً فلعله قد احتمل بذلك ضغنا يحمله على أن يخزنني ويتعبنى. ولعله إن صادف صاحب الصوت أقوى مني سلطاناً يرغب فيما عنده فيميل معه عليّ ويدله على عورتي.

فلم يزل الأسد يفكر في ذلك حتى استخفه الفكر من مكانه فجعل يمشي ويقعد وينظر إلى الطريق حتى رفع له دمنة مقبلاً. فلما رآه قد أقبل وليس معه أحد اطمأنت نفسه ورجع إلى مكانه، إرادة أن لا يظن دمنة أن شيئاً استخفه من مكانه.



فلما دخل دمنة على الأسد قال له: ما صنع؟ قال: رأيت ثوراً هو صاحب الصوت الذي سمعت. قال الأسد: فما قوته؟ قال: لا شوكة له، قد دنوت منه وكلمته وحاورته محاوراة الأكفاء فلم يستطع لي شيئاً. قال الأسد: لا يغرنك ذلك منه ولا يصغرن عندك أمره، فإن الريح الشديدة لا تحطم الحشيش الضعيف وهي تحطم عظام الشجر والقصور. وكذلك الصناديد يقصد بعضها بعضاً. قال دمنة: لا يهابن الملك منه شيئاً ولا يكبرن أمره في نفسه. فإن الملك إن شاء الله أن آتيه به فيكون له عبداً سامعاً مطيعاً فعلت.

ففرح الأسد بقوله وقال: دونك، فقد شئت ذلك. ثم إن دمنة انطلق إلى الثور فقال له غير هباب ولا متعت: إن الأسد أرسلني إليك لآتيه بك، وأمرني إن أنت عجلت الإيصال إليه طائعاً أن أؤمنك على ما سلف من ذنوبك في تأخرك عنه وتركك لقياءه، وإن أنت تلكأت أن أسرع إليه الرجعة فأخبره بذلك.

قال الثور: ومن هذا الأسد الذي أرسلك إليّ وأين هو؟

قال دمنة: هو ملك السباع ومنزله بمكان كذا وكذا مع جنوده من السباع.

فرعب الثور من ذكر الأسد والسباع وقال لدمنة: إن أنت جعلت لي الأمان على نفسي انطلقت معك إليه. فأعطاه دمنة الأمان وما وثق به منه.

ثم أقبل جميعاً حتى دخلا على الأسد فأحسن الأسد مقابلة الثور وقال: قدمت هذه البلاد وما أقدمكما؟ فقصّ عليه شترية قصته.

فقال الأسد: إن مكرمك ومحسن إليك وما صحبتني. فدعا له الثورة وأثنى عليه وأقام معه وقرّبه الأسد وأكرمه ولطفه واختبره فوجد منه رأياً وعقلاً فآتمنه على أسرارهِ واستشاره في أموره، فلم يزد طول المقام عنده إلا عجباً به ورغبة فيه وتقريباً منه حتى صار أخصّ أصحابه عند منزلة.

فلما رأى دمنة أن الأسد استخص الثور لنفسه دونه ودون أصحابه، وأنه صاحب خلواته وحديثه ولهوه حسده كل الحسد، وبلغ منه كل مبلغ، فشكا ذلك إلى أخيه كليلة وقال: ألا تعجب لعجز رأيي وصنيعي بنفسي ونظري فيما ينفع الأسد وإغفالي نفع نفسي وضرها، حتى جلبت إليه من غلبي على منزلتي.

قال كليلة: أصابك ما أصاب الناسك.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

### مثل الناسك واللص والثعلب وامرأة الإسكاف

قال كليلة: زعموا أن ناسكاً أصاب من بعض الملوك كسوة فاخرة فبصُرَ به لص من اللصوص فرغب في الكسوة التي كسيها الناسك، فانطلق إليه قائلاً: إني أريد أن أصحبك وأتعلم منك وأخذ من أدبك. فصحبه متشبهاً بالناسك. وكان يرفق بالناسك ويتلطف في خدمته ويوقره حتى أصاب منه غفلة فاحتمل تلك الكسوة فذهب بها. فلما فقد الناسك الرجل والثياب عرف أنه صاحبه، فطلبه في مظائه حتى توجه في طلبه نحو مدينة من المدائن. فمرّ في طريقه على عَليْن يتناطحان فطال انتطاحهما حتى سالت الدماء منهما. فجاء الثعلب يلغ في تلك الدماء. فبينما هو مكبّ عليها إذ التفّ عليه الوعلان ينطحانه وهو غافل فقتلاه.

ومضى الناسك حتى انتهى إلى المدينة فدخلها ممسياً. ولم يجد مأوى ولا مبيتاً إلا بيت امرأة أرملة فنزل بها. وكان لتلك المرأة عيد يتاجر بمالها، فعرفت أنه يخونها ويضرها فاضطغت عليه واحتالت لقتله ليلة أضافت الناسك. فسقت العبد من الخمر صرفاً حتى غلب فنام. فلما استنقل نوما عمدت المرأة إلى سمّ كانت قد هيّأته فجعلته في قصبة لتنتفخه في أنفه. فوضعت إحدى طرفي القصبة في أنفه والطرف الآخر في فيها. فبدره من قبل أن تنتفخ في القصبة عطاس خرج من أنفه فطار ذلك السم في حلق المرأة فوقعت ميتة، وذلك كله بعين الناسك. ثم أصبح غادياً في طلب ذلك اللص فأضافه رجل إسكاف وقال لامراته: انظري هذا الناسك فكرميه وأحسني القيام عليه فإنه قد دعاني بعض أصحابي إلى دعوة. فاطلق الإسكاف.

وكان بين المرأة وزوجة رجل حجّام صداقة فأرسلت إليها تدعوها إلى وليمة وتخبرها أن زوجها عند أصحابه، وأنه لا يرجع إلا سكران في منتصف الليل، فلهمي لنقضي بعض ساعات في القصف. إلا أن الإسكاف عاد بعد

قليل وطلب العشاء وكانت امرأته تقاعدت عن تهيئته لتستعد لاستقبال صديقتها امرأة الحجام. فاعتذرت له فلم يقبل عذرها فأقبل عليها وضربها ضرباً مبرحاً وأوثقها إلى سارية في البيت وذهب ونام لا يعقل.

ثم جاءت امرأة الحجام بعد ساعة لمسامرة صديقتها امرأة الإسكاف فوجدتها مربوطة، فقالت لها: إن زوجي عاد قبل أوانه وربطني بهذه السارية فإن شئت أن تحسني إليّ وتحليني ربطتك مكاني حتى أعد الوليمة كما وعدتك. ففعلت امرأة الحجام ذلك. فاستيقظ الإسكاف قبل رجوع امرأته فناداها في الظلام مراراً باسمها فلم تجبه امرأة الحجام مخافة أن يعرف صوتها. ثم دعاها وسمّاها مراراً. كل ذلك وامرأة الحجام لا تحببه فازداد غضباً، وقام إليها بالسكين واحتزّ أنفها وقال لها: خذا هذا جزاء عنادك، وهو لا يشك في أنها امرأته.

ثم رجعت امرأة الإسكاف فرأت صنع زوجها بامرأة الحجام فساءها ذلك وحلت وثاقها وأوثقت نفسها مكانها وأخذت الأخرى أنفها وانطلقت إلى بيتها خائبة. كل ذلك بعين الناسك وسمعه.

ثم إن امرأة الإسكاف رفعت صوتها فدعت ربها وتضرعت إليه وجعلت تبتهل وتقول: اللهم إن كان زوجي قد ظلمني فأعني عليّ أنفي صحيحاً. فقال لها زوجها: ما هذا الكلام يا ساحرة. فقالت: قم أيها الظالم فانظر إلى عملك وتغيير الله عليك ورحمته إياي، فما قد عاد إليّ أنفي صحيحاً. فقام وأوقد ناراً ونظر إلى امرأته فوجد أنفها صحيحاً فباء بالذنب إلى ربه واعتذر إلى امرأته وسألها أن ترضى عنه.

أما امرأة الحجام فلما انتهت إلى بيتها حارت في أمرها وقالت: ما عذري عند زوجي وعند الناس في جدع أنفي؟ فلما كان السحر استيقظ زوجها فناداها أن انتيني بمطاعي فإني أريد أن أحجم بعض أشرف المدينة. فلم تأت منه متاعه بشيء إلا بالموسى. فغضب الحجام فرماها بالموسى في الظلمة فرمت بنفسها إلى الأرض وصرخت وولولت: أنفي.. أنفي. فلم تزل تصيح حتى جاء أهلها ونزقوا ربانها فانطلقوا بزوجها إلى القاضي فقال له: ما حملك على جدع أنف امرأتك؟ فلم يكن له حجة يحتج بها فأمر القاضي بالحجام أن يعاقب.

فلما قدّم للعقوبة قام الناسك فتقدم إلى القاضي وقال له: لا يشتبهنّ عليك أيها القاضي، فإن اللص ليس هو من سرقتي، وإن الثعلب ليس الوعلان قتلاه، وإن الأرملة ليس السم قتلها، وإن امرأة الحجام ليس زوجها جدعها، بل نحن جميعاً فعلنا ذلك بأنفسنا. فسأله القاضي عن تفسير ذلك فأخبره، فأمر القاضي بإطلاق الحجام.

قال كليلة لدمنة: وأنت أيضاً فإنما فعلت ذلك بنفسك.

قال دمنة: قد سمعت هذا المثل وهو شبيه بأمري. ولعمري ما ضرني أحد سوى نفسي، ولكن ما الحيلة الآن؟

قال كليلة: أخبرني أنت عن رأيك في ذلك؟

قال دمنة: أما أنا فلست ألتمس اليوم إلا أن أعود إلى منزلي. فإن خلا ثلاثاً للعاقل حقيق بالنظر فيها والاحتياط له: منها النظر فيما مضى من الضر والنفع فيحترس من الضر الذي أصابه أن يعود إليه ويعمل الطبيب لالتماس النفع الذي مضى عليه ويحتال لاستقباله. ومنها النظر فيما هو مقيم عليه من المنافع والمضار فيعمل في تلك المنافع والاستثمار منها لئلا تزول عنه، والخروج من تلك المضار جهده. ومنها النظر في مستقبل ما يرجو من قبل النفع وما يتخوف من قبل الضر ثم التأمي لما يرجو من ذلك والتوقي لما يخاف منه. وإنما نظرت في الأمر الذي أرجو أن تعود به منزلتي التي كنت عليها فلم أجد لذلك إلا الاحتياط على الثور حتى يفارق الحياة. فإن ذلك صالح لأمري، وعسى مع ذلك أن أكون خيراً للأسد منه، فإنه قد أفرط في أمر الثور إفراطاً قد هجنّ رأيه فأضغن عليه عامة قرائبه.

قال دمنة: بلى إن الأسد قد أغرم بالثور إغراماً شديداً حتى استخف بغيره من نصحائه وقطع عنهم منافعه. وإنما يؤتى السلطان من قبل ستة أشياء: منها الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق. فأما الحرمان فإنه يحرم صالح الأعوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة، ويبعد من هو كذلك منهم. وأما الفتنة فهو يجر الناس إلى وقوع الفتن والحرب بينهم. وأما الهوى فالإغرام بالنساء والحديث أو بالشراب أو بالصيد وما أشبه ذلك. وأما الفظاظة فإفراط الحدة حتى يجمح اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعهما. وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من الشر والموتان والغريق ونقص الثمرات وأشباه ذلك. وأما الخرق فإعمال الشدة في موضع اللين، واللين في موضع الشدة. وغن الأسد قد أغرم بالثور إغراماً شديداً، وهو الذي ذكرت لك أنه خليق أن يشينه ويضره في أمره.

قال كليله: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك وأكرم على الأسد وأكثر أصدقاء.

قال دمنه: لا تنظرن إلى صغري وضعفي، فإن الأمور ليست تجري على القوة والشدة والضعف. وكم من صغير ضعيف قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عن الأسد. أولم يبلغك أن غراباً احتال لأسود حتى قتله برفقه ورأيه.

قال كليله: وكيف كان ذلك؟

### مثل الغراب والأسود وابن آوى

قال دمنه: زعموا أن غراباً كان له وكر في شجرة في الجبل وكان قربه حجر ثعبان أسود. وكان إذا أفرخ الغراب في كل سنة ذهب الأسود إلى وكره فأكل فراخه. فلما فعل ذلك به مرات وبلغ من الغراب كل مبلغ، شكاً أمره إلى صديق له من بني آوى، فقال له: أردت أن أستمرك في شيء هممت به إن واطأنتني عليه. فقال: وما هو؟ قال: أريد أن آتي الأسود فأفقد عينيه. قال ابن آوى: بس الحيلة احتلت، فالتمس حيلة تظفر بها من الأسود في غير إهلاك لنفسك ولا مخاطرة. وإياك أن يكون مثلك مثل المكاء الذي أراد قتل السرطان فقتل نفسه.

قال الغراب: وكيف كان ذلك؟

### مثل المكاء والسرطان

قال ابن آوى: كان المكاء معششاً في أجمة مخصبة كثيرة السمك فعاش هناك ما عاش. ثم كبر فلم يستطع الصيد فأصابه جوع شديد وجهد فالتمس الحبل وقعد متحاذناً، فرأه سرطان من بعد فدنا منه وقال له: ما لي أراك قد علتك الكآبة؟ قال المكاء: وكيف لا أكون كذلك وإنما كانت عيشتي إلى اليوم مما أصيد هاهنا من السمك كل يوم سمكة أو سمكتين فكنت أعيش بذلك، وكان ذلك لا ينقص السمك كثيراً. وإني رأيت اليوم صيادين أتيا هذا الموضع فقال أحدهما لصاحبه: أرى في هذه الأجمة سمكا كثيراً نصيد لمدة. فقال صاحبه: إني قد عرفت في ما أمامنا مكانا فيه السمك أكثر، وأنا أحب أن نبدأ به، فإذا فرغنا منه انصرفنا إلى ما هاهنا فنقيم عليه حتى نفرغ منه. وقد علمت أنهما إذا رجعا مما توجهوا له انصرفا إلينا فلم يدعنا في هذه الأجمة سمكة إلا صاذاها. فإذا كان ذلك كذلك فهو موتي.

فانطلق السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك فأقبلن إلى المكاء يستشرنه فقلن له: إنا قد أتيناك نستشيرك فأشر علينا، فإن ذا العقل لا يدع مشورة عدوه إذا كان ذا رأي في الأمر يشير بما فيه نفعه أو ضرره. وأنت ذو رأي، ولك في بقائنا صلاح ونفع، فأشر علينا. قال المكاء: أما قتال الصيادين ومكابرتهم فلا طاقة لي بهما، ولا أعلم حيلة. إلا أنني قد علمت موضعاً فيه غدير كثير الماء، وفيه قصب. فلو استطعتن التحول إلى ذلك الغدير كان فيه صلاحكن وخصب بكن. قلن: وكيف لنا بالتحول إلا أن تجتاز بنا إليه؟ قال: فإني سأفعل ولكن في ذلك إبطاء، ولعل الصيادين لا يحتبسان عني حتى أفرغ من نقلكن. فجعل المكاء يحمل كل يوم سمكتين فينطلق بهن إلى بعض التلال فيأكلهن ولا يشعر بذلك بقيتهن حتى كان ذات يوم وقال له السرطان: إني قد أشفقت من مكان هذا فأحملني إلى ذلك الغدير. فحمل المكاء السرطان حتى أتى بعض الأماكن التي كان يأكل السمك فيها. فنظر السرطان فإذا عظام كثيرة من عظام السمك، فعلم أن المكاء صاحبها وأنه يريد به مثل ما صنع بالسمك، فقال في نفسه: إن اللاقي إذا لقي عدوه في الوطن الذي يعلم أنه مقتول فيه إن قاتل أو لم يقاتل فإنه حقيق ألا يلقي بنفسه في التهلكة، ولكن يقاتل كرمًا وحفاظًا. فأهوى السرطان بكليتيه إلى عنق المكاء فعصره عصره وقع منها إلى الأرض ووقع السرطان معه فمات المكاء وخرج السرطان يدب حتى رجع إلى السمك فأخبرهن الخبر.

قال ابن آوى للغراب: إنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بعض الحيل مهلكة للمحتال، ولكني أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود وراحتك منه.

قال الغراب: وما ذلك؟

قال: أن تطير فتتظر لعلك أن تظفر بحلي من حلي النساء نفيس عند أهله فتختطفه ثم تطير به قريباً، فلا تبرح واقفاً وطائراً حتى لا تقوت العيون وتطلبك النساء وتنتهي بالحلي إلى جحر الأسود فترمي به عنده. فإذا انتهت

الناس إلى حليهم أخذوه وأراحوك من الأسود. فانطلق الغراب حتى أشرف على امرأة في حجرة لها قد وضعت ثيابها وحليها وهي تغتسل فاختطف من حليها عقداً، فلم يزل يطير به ويقع حيث يراه الناس حتى انتهى إلى جحر الأسود فرمى به عليه، فهجم الناس على الأسود فقتلوه وأخذوا العقد.

قال دمنة لكيلة: إنما ضربت هذا المثل لتعلم أن الحيلة تفعل ما لا تفعل القوة.

قال كيلة: إن الثوة لو لم يكن جمع مع شدته رأياً لكان ذلك، ولكنه مع نجدته ذو رأي وعقل فكيف ذلك به؟

قال دمنة: إن الثور شديد في قوته ورأيه ولكنه بي مغتر ولي آمن. فأنا خليك أن أصرعه كما صرعت الأرنب الأسد.

قال كيلة: وكيف كان ذلك؟

### مثل الأرنب والأسد

قال دمنة: زعموا أن أسداً كان في أرض كثيرة الماء والخصب، وكان ما بتلك البلاد من الوحش في سعة من الماء والمرعى. إلا أن ذلك لم يكن ينفعهما من خوف الأسد. فائتمرت تلك الوحوش واجتمعت إلى الأسد فقلن له: إنك لا تصيد الدابة منا إلا في تعب ونصب. وإنا قد رأينا لنا ولك فيه راحة، فإن أنت أمنتنا فلم تخفنا جعلنا لك كل يوم دابة ترسل بها إليك عند غداك. فرضي الأسد بذلك وصالحهن عليه وقررن ذلك له. ثم غن أرنباً أصابته القرعة فقالت لهن: ما ضركن إن أنتن رفقتن بي فيما لا يضركن لعلني أن أبطئ على الأسد، فقلن: وما الذي تأمرين من الرفق بك؟ قالت: تأمرن من ينطلق معي ألا يتبعني لعلني أن أبطئ على الأسد بعض الإبطاء حتى يتأخر غداؤه. قلن: فلك ذلك. فانطلقت الأرنب متأنية حتى إذا جاوزت الساعة التي كان الأسد يأكل فيها تقدمت إليه تدب رويداً. وقد جاع الأسد حين أبطأ عنه غداؤه فغضب وقام من مريضه يتمشى حتى إذا رأى الأرنب قال لها: من أي جئت وأين الوحوش؟

قالت: كإني رسول الوحوش أرسلتني إليك وقد بعثت معي لك بأرنب. فلما كنت ههنا قريباً منك استقبلني أسد فأخذها مني وقال: أنا أولى بهذه الأرض ووحشها. فقتلت له: إن هذه غداء الملك أرسلت بها إليه الوحوش فلا تغضبته. فغضب الأسد وقال: انطلق معي فأريني هذا الأسد. فانطلقت بالأسد إلى جب ذي صاف عميق فقالت: هذا مكان الأسد وأنا أفرق منه إلا أن تحملني في حضنك فلا أخافه حتى أريكه. فاحتضنها الأسد وقدمته إلى الماء الصافي فقالت له: هذا الأسد وهذه الأرنب. فنظر الأسد فرأى ظله وظل الأرنب في الماء فلم يشك في قولها، فوضع الأرنب ووثب لقتاله فغرق في الجب وأفلتت الأرنب وعاد إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعهما بالأسد.

قال كيلة: إن أنت قدرت على هلاك الثور في شيء ليس على الأسد فيه مضرة فشأنك به. فإن مكان الثور قد أضرب بك وبغيرنا من جنود الملك. وإن أنت لم تستطع ذلك إلا بشيء ينجس الأسد فلا تشتريين ذلك بهذا، فإنه غدر منك ومنا ولؤم.

ثم إن دمنة ترك الدخول على الأسد أباما ثم أتاه على حال خلوة وفراغ منه متحازناً. فقال الأسد: ما لي أراك اليوم خبيث النفس ولم أراك منذ أيام؟ قال: ما يخفى عليك. قال الأسد: خير. قال: ليكن الخير. قال الأسد: هل حدث شيء؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الأسد يريده ولا أنا. قال الأسد: وما ذلك؟ قال دمنة: هو كلام غليظ فطيع لا يصلح ذكره إلا على فراغ. قال الأسد: فهذه حال خلوة وفراغ فأخبرني بما عندك.

قال دمنة: إن كل كلام يكرهه سامعه لم يتشجع عليه قائله. فإن كان نصحاً فهو من قائله جراً إلا أن يثق بعقل صاحبه المقول له ذلك. فإذا كان المقول له عاقلاً احتمل ذلك واستمع له لأنه ما كان فيه من نفع فهو للسامع. فأما القائل فإنه لا نفع له إلا أداء الحق والنصيحة. وإنك أيها الملك ذو الفضيلة في الرأي والعقل، فأنا متشجع لثقتي بك على أن أخبرك بما يكرهه الملك لأنك تعرف نصيحتي وإيثاري إياك على نفسي. فإنه ليعرض في نفسي أنك غير مصدق ما أنا ذاكر لك. ولكن إذا ذكرت أن أنفسنا، معشر السباع، معلقة بنفسك لم أجد بداً من أداء الحق الذي يلزمني. وإن أنت لم تسألني أو خفت أن لا تقبله مني فإنه يقال: إن من كتم السلطان نصيحته أو كتم الأطباء مرضه أو كتم الإخوان فاقته فقد خان نفسه.

قال الأسد: ما ذلك الأمر؟

قال دمنة: أخبرني الأمين الثقة أن شتربة خلا برؤوس جندك فقال لهم: "قد عجمت الأسد وبلوت رأيه وقوته ومكيدته فاستبان لي أن ذلك كله منه ضعف، وأن لي وله شأنًا". فلما بلغني هذا عرفت أن شتربة خوآن كافر غدار بك قد أكرمته الكرامة كلها وجعلته نظيراً لنفسك. وقد تطلعت نفسه إلى أن ينزل بمثل منزلتك، وأنتك لو زلت عن مكانك صار ملكنا. فهو لا يدع جهداً إلا بلغه فيك. فإنه قد كان يقال: إذا عرف الملك رجلاً قد كاد أن يساويه في المنزلة والرأي والهيئة والمال والمنع فليصرعه. فإنه إن لم يفعل ذلك كان هو المصروع. وأنت أيها الملك أعلم بالأمور وأبلغ فيها. وإني أرى أن تحتال لهذا الأمر قبل تفاقمه ولا تنتظر وقوعه. فإني لا أدري هل تقدر على استدراكه بعد ذلك أم لا. وقد كان يقال إن الرجال ثلاثة: حازمان وعاجز. فأحد الحازمين من إذا نزل به البلاء لم يدهش ولم يعي بحيلته ورأيه ومكيدته التي يرجو بها المخرج مما نزل به ولم يذهب قلبه شعاعاً. وأحزم من هذا المتقدم ذو البعد في الرأي الذي يعرف الأمر مقبلاً قبل وقوعه فيعظمه إعظامه ويحتال له حيلة كأنه رأي عين فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ويدفع الأمر قبل وقوعه. فأما العاجز فهو المتردد في أمره المتواني في رأيه المتمني فيما بينه وبين نفسه حتى ينزل به الأمر. وهو مفرد مضيع حتى يهلك. ومثل ذلك مثل السمكات الثلاث.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

### مثل السمكات الثلاث

قال دمنة: زعموا أن غديراً كان فيه ثلاث سمكات عظام، وكان ذلك الغدير بفجوة من الأرض لا يقربها أحد. فلما كان ذات يوم اجتاز من هناك صيادان فأبصرا الغدير فتواعدا أن يرجعا بشبكتهما فيصيда تلك السمكات الثلاث التي فيه. فسمعت السمكات قولهما. وإن سمكة منهن كانت أعظهن ارتابت وتخوفت وحاولت الأخذ بالحزم فخرجت من مدخل الماء الذي كان يخرج من الغدير إلى النهر فتحوّلت إلى مكان غيره. وأما الثانية التي كانت دونها في العقل فإنها تأخرت في معالجة الحزم حتى جاء الصيادان فقالت: قد فرطت وهذه عاقبة التفريط. فرأتها وعرفت ما يريدان فوجدتهما قد سداً ذلك المخرج فقالت: قد فرطت فكيف الحيلة على هذا الحال للخلاص، وقلما تنجح حيلة العجلة والإرهاق. ولكن لا نقنط على حال ولا ندع ألوان الطلب. ثم إنها، للحيلة، تماوتت فطفت على الماء منقلبة على ظهرها فأخذها الصيادان يحسبان أنها ميتة فوضعاها على شفير النهر الذي يصب في الغدير فوثبت في النهر فنجت من الصيادين. وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت.

وأنا أرى أيها الملك معالجة الحزم في الحيلة كأنك تراه رأي العين فتحسم الداء قبل أن يُبتلى به وتدفع الأمر قبل نزوله.

قال الأسد: قد فهمت مثلك ولكني لا أظن الثور يغشني ولا يبتغي لي الغوائل بعد حسن بلائي عنده وصنيعي إليه، وإنه لا يستطيع أن يتذكر مني سيئة أتيتها إليه ولا حسنة رددتها عنه.

قال دمنة: إنه لم يفسد عقله عليك إلا فضل إكرامك إياه حتى بلغ في نفسه ما طمع في مرتبتك. فإن اللئيم العاجز لا يزال مناصحاً نافعاً حتى يُرفع إلى المنزلة التي ليس هو لها بأهل، فإذا بلغها رغب عنها ومنته نفسه وما فوقها بالغش والخيانة. وإن اللئيم الكفور لا يخدم السلطان ولا ينصح له إلا عن فرق أو حاجة. فإذا استغنى وأمن وعاد إلى جوهره وأصله كذنب الكلب الأعقف الذي يُربط ليقوم لا يزال مستقيماً ما دام مربوطاً. فإذا أطلق عاد لانحنائه وعوجه.

واعلم أيها الملك أن من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه في ما ينصحون له فيه لم يحمد غبّ رأيه، وكان كالمريض الذي يدع ما تنعت له الأطباء ويعمد لشهوة نفسه. وإن من الحق على وزير السلطان الإبلاغ في التحضيض له على ما يشتبه ويريده والكف عما يضره ويشينه. وخير الإخوان والأعوان أقلهم مصانعة في النصيحة. وخير الأعمال أجملها عاقبة. وخير النساء الموافقة لبعْلِها. وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار. وخير الأصدقاء من لا يخاصم. وخير الأغنياء من لا يكون للحرص أسيراً. ثم قال: لو أن امرأاً توسد الحيات واقترب النار كان أخق لأن يهتنه النوم منه إذا أحس من صاحبه عداوة يريد بها نفسه يغدو بها عليه ويروح. وأعجز الملوك أخذهم بالهويناء. وأقلهم نظراً في الأمور أشبههم بالقليل الهائج الذي لا يلتفت إلى شيء، فإن حدث به أمر تهاون به.

قال الأسد: لقد أغلظت في القول، وقول الناصح مقبول وإن غلظ. ولكن شتربة وإن كان عدوا كما تقول فليس يستطيع لي ضراً. وكيف يستطيع ذلك وهو أكل عشب وأنا أكل لحم؟ وإنما هو لي طعام ولست أرى علي منه خوفاً ولا أجد إلى الغدر به سبيلاً بعد الأمان الذي جعلت له، وبعد حرمة النصيحة وما كان من إكرامي إياه وحسن ثنائي عليه عند جميع جندي. فإني إذا فعلت ذلك جهّلت نفسي وغدرت بذمتي.

قال دمنة: لا تغترنّ بقولك "هو لي طعام". فإن النور إن لم يستطعك بنفسه احتال لك بغيره. وقد كان يقال: إن أضافك ضيف ساعة وأنت لا تعرف أخلاقه فلا تأمنه على نفسك أن يصل إليك منه أو في سببه شرّ كما أصاب القملة في ضيافة البرغوت.

قال الأسد: وما أصاب القملة؟

### مثل القملة والبرغوت

قال دمنة: زعموا أن قملة لزمت فراش رجل من الأشراف زماناً وكانت تصيب من دمه وهو نائم وتدب عليه دببياً رفيقاً، وإن برغوتاً ضافها ذات ليلة في فراش ذلك الشريف فلذعه لذعة أيقظته. فأمر الرجل بفراشه فنظر فيه فطفر البرغوت فذهب وأخذت القملة فقصعت.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب السوءات لا يسلم من شره. وإن ضعف عن ذلك بنفسه جاءت المعارض بسببه. فإن كنت لا تخاف الثور خفت عليك مع أني قد أعرف أن لا بدّ له من مناظرتك، وأنه لا يكل أمره إلى غير نفسه.

فوقع في نفس الأسد قول دمنة وقال له: ماذا تأمرني به؟

قال دمنة: إن الضرس المكسور المأكول لا يزال صاحبه منه في أذى وألم حتى يفارقه، والطعام الذي غثت النفس عنه وقلقت منه فالراحة في قذفه، والعدو المخوف داؤه فقده.

قال الأسد: قد تركتني وأنا أكره مجاورة شتربة إياي. وإني مرسل إليه فذاكر له ما وقع في نفسي من أمره ثم أمره بالانصراف حيث أحب.

فكره دمنة ذلك وعرف أنه إن كلم الأسد والثور وسمع منه جوابه وعذره عرف كذبه ولم يخف عليه أمره.

فقال دمنة للأسد: أما إرسالك إلى الثور ومذاكرتك إياه ما كان من ذنبه فلا أراه حزماً. فانظر أيها الملك في ذلك. فإنه لا يزال لك من أمرك الخيار ما لم تكشف ما وقع في نفسك منه، لأنني أخاف إن كشفت له ذلك أن يعالجك بالمكابرة. فإن قاتلك قاتلك مستعداً، وإن فارقك له عليك فصل في الغدر، مع أن أهل الحزم من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه ولكن لكل ذنب عقوبة. فلذنب السر عقوبة السر ولذنب العلانية عقوبة العلانية.

قال الأسد: إن الملك إذا عاقب أحداً أو أهانه على ظنة يظنها وعلى غير استيقان بجرمه فنفسه عاقب وإياها أهان.

قال دمنة: أما إذا كان هذا فلا يدخلن عليك إلا وأنت مستعد، ولا يصبن منك غرة فإني لا أحسبك لو نظرت إليه حين يدخل عليك إلا ستعرف أنه قد هم بعظيمة. ومن علامة ذلك أنك ترى لونه متغيراً وترى أوصاله ترعد وتراه يلتفت بيميناً وشمالاً وترى قرنيه قد هيأهما، فعل الذي يهم بالنطح.

قال الأسد: سأكون منه على حذر. وإن أنا رأيت منه هذه العلامات التي ذكرت وعلمت أن ليس في أمره شك.

فلما فرغ دمنة من الأسد وعرف أنه قد أوقع في نفسه ما طلب، وأن الأسد سيحذر الثور ويتهياً له، أراد أن يأتي الثور فيعرفه بالأسد. ثم أحب أن يكون انطلاقه بأمر الأسد لئلا يبلغه من غيره فيتهمه. فقال للأسد: هل أتى الثور فأطلع عليه وأنظر ما حاله وأسمع من كلامه، ولعلي أتسقط منه شيئاً أعلمك به. فإذن له الأسد في ذلك.

فانطلق دمنة حتى دخل على الثور شبيهاً بالمكتتب. فلما رآه الثور رحّب به وقال له: لم أرك منذ أيام فما حبسك؟  
أسلام؟

قال دمنة: ومتى كمان من أهل السلام من لا يملك نفسه ومن كان أمره بيد غيره ممن لا يوثق به ولا ينفك على خوف وخطر فلا يأتي عليه ساعة إلا وهو خائف على نفسه ودمه.

قال الثور: وما الذي حدث؟

قال دمنة: حدث الذي قتر. فمن ذا يغالب القدر؟

ومن ذا بلغ جسيماً فلم يبصر؟ ومن ذا اتبع الهوى فلم يعطب؟ ومن ذا جاور النساء فلم يفتن؟ ومن ذا طلب إلى الناس فلم يهن؟ ومن ذا واصل الأشرار فلم يفسد؟ ومن ذا صحب السلطان فلم يغب؟ ولقد أصاب القائل الذي قال: إنما مثل السلطان في قلة وفائه لمن صحبه وسخاء نفسه عن من فقد منهم كمثل صاحب فندق كلما ذهب واحد جاء آخر.

قال شترية: أسمع كلاماً وأخاف أن يكون قد أراك من الأسد ريب.

قال دمنة: لقد رايني منه ريب وليس ذلك لنفسى. قد علمت حقك على وود ما بيني وبينك وما كنت جعلت لك من نفسى وذمتى أيام أرسلني إليك الأسد. ولا أجد بداً من حقك وإطاعتك على ما اطعته عليه مما أخاف عليك.

قال شترية: وما ذلك.

قال دمنة: أخبرني الصادق المؤتمن أن الأسد قال لبعض أصدقائه وأصحابه: لقد أعجبني سمن الثور وليس بي إليه حاجة ولا أراني إلا أن أكله وأطعم من لحمه. فلما بلغتني مقالته هذه عرفت كفره وسوء عهده وأقبلت إليك لأعلمك بذلك فأقضى الذي يجب لك عليّ، فتحثال رفقا لأمرك.

فلما سمع شترية كلام دمنة وتذكر ما كان من دمنة لما جعل له من العهد والمثاق وفكر في أمر الأسد ظن أن دمنة قد صدقه ونصح له.

فقال شترية لدمنة: ما كان ينبغي للأسد أن يغدر بي وما أذنبت إليه ذنباً ولا إلى أحد من جنده ولكنه حمل عليّ بالكذب وشبه عليه. فإن الأسد قد صحبه قوم سوء وجرت منهم أمور تصدق عنده ما بلغه من غيرهم. وكذلك صحبة الأشرار ربما أورت حزنًا كثيراً طويلاً وسوء ظناً بالأخيار حتى تدعوه التجربة في ذلك إلى الخطأ كخطأ البطة التي رأت في الماء ضوء الكوكب فظنته سمكة فحاولت أن تصيدها. فلما حرمت ذلك مراراً عرفت أنه ليس بشيء. ثم جازت مسال الغدير في تلك الليلة فرأت في ذلك المكان سمكة فظنت أنها مثل التي قبلها فلم تصدها ولم تطلبها.

فإن كان الأسد بلغه عني شيء فصدق به فهلا جرّب واختبر فيجري عليّ ما اختبر من غيري. وإن كان لم يبلغه عني شيء فأراد بي سوءاً من غير عليه فذلك العجب. وقد كان يقال إن من العجب أن تطلب رضا صاحبك وتنتهي رضاه فلا يرضى. وأعجب من ذلك أن تستنمّ رضاه ثم يسخط. وإذا كان السخط من غير علة انقطع الرجاء لأن العلة إذا كانت موجودة في ورودها كان الرضا مأمولاً في صدورها. وقد تذكرت فلا أعلم مما بيني وبين الأسد جرماً إن كان إلا صغيراً. فلعمري ما يستطيع أحد أطل صحبة صاحب أن يتحفظ في كل شيء ويحترس حتى لا تكون منه فارطة صغيرة ولا كبيرة يكرها صاحبها. ولكن ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط صاحبه وأذنب نظر في سقطته وذنبه بقدر مبلغ ما كان منه وخطره، أعمداً كان ذلك أم خطأ. وهل في الصفع عنه أمر يخاف ضرره وشينه أم لا. ثم لا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد إلى الصفع عنه سبيلاً. فإن كان الأسد تعنت عليّ ذنباً فإنني لا أعلمه. إلا أنني ربما خالفت عليه في بعض رأيه نظراً مني ونصيحة، فعسى أن يكون أنزل ذلك مني على الجرأة عليه وعلى مخالفته إذ يقول "لا" فأقول "نعم" أو أن يقول "نعم" فأقول "لا". ولست أجدني مخصوصاً في هذه المقالة لأنني لم أخالفه في شيء من ذلك قط على رؤوس جنده ولا عند خاصته، ولكن كنت أخلو به فالتمس ما أكلمه من ذلك كلام القانت لربه الموقن له. وعرفت أنه من طلب الرخص من النصحاء عند المشاورة، ومن الأطباء عند المرض، ومن الفقهاء في الشبهة أخط منافع الرأي وازداد في الرأي المريض وجعل الوزر في الدين.

فإن لم يكن هذا فعسى ذلك أن يكون من بعض سكرات السلطان. فإن من سكراته أن يرضى عن من استوجب السخط، ويسخط على من استوجب الرضا من غير سبب معلوم. وكذلك قالت العلماء: خاطر من لجج وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان، فإن هو صحبه بالوفاء والاستقامة والمودة والنصيحة فهو خليك لأن يعثر فلا ينتعش أو يعود وقد أشفى على الهلة إن انتعش.

وإن لم يكن هذا فلعل بعض ما أعطيته من الفضل جعل فيه هلاكي. وبعض المحاسن أفة لصاحبها. فإن الشجرة الحسنة ربما كان فسادها في طيب ثمرتها إذا تدلت أغصانها فتجذب حتى تكسر وتقصد، وإن الطاوس ربما صار ذنبه الذي هو حسنه وجماله وبالأعلى عليه. فإذا احتال إلى الخفة والنجاة ممن يطلبه شغله عن ذلك ذنبه، والفرس الجواد القوي ربما أهلكه ذلك فجهد وأتعب واستعمل لما عنده من الفضل حتى يهلك. وكذا الرجل ذول الفضل، ربما كان فضله سبب هلاكه لكثرة من يحسده ويبغي عليه من أهل الشر. وأهل الشر أكثر من أهل الخير بكل مكان. فإذا عادوه وكثروا عليه أوشكوا أن يهلكوه.

فإن لم يكن هذا، فهو إذا القدر الذي يسلب الأسد شدته وقوته حتى يدخلوه القبر. وهو الذي يحمل الضعيف على ظهر الفيل. وهو الذي يسلب الحوَّاء على الحية فينزعه حمتها فيلعب بها كيف شاء. وهو الذي يعجز الأريب ويحزم العاجز ويتبط الشهم ويشتم الثبط ويوسع على المقتر ويقتصر على الموسر ويشجع الجبان ويجبن الشجاع عندما تعثره المقادير من معاريض العلل.

قال دمنة: إن إرادة الأسد لما يريد بك ليست بشيء مما ذكرت من إغراء الأشرار ولا غير ذلك، ولكنه للغدر والفجور. فإنه جبار غدار أول طعامه حلاوة وآخره مرارة، بل أكثره سم مميت قاتل.

قال شترية: صدقت، لعمري لقد طعمت طعاماً فاستلذذته فأراني قد انتهيت إلى الذي فيه الموت. وما كان لولا الجبر مقامي مع الأسد فهو أكل لحم وأنا أكل عشب. فقباً للحرص وقباً للأمل، فهما قذفاني في هذه الورطة واحتبساني عن مذهبي كاحتباس النحل فوق النيلوفر إذا وجدت ريحه واستلذت به وأغفلت منهاجها الذي ينبغي لها أن تطير فيه قبل انضمام النيلوفر فتلج فيه فتموت. ومن لم يرض بالكفاف من الدنيا وطمحت نفسه إلى الفضول والاستكثار، ولم ينظر في ما يتخوف أمام كان كالذباب الذي ليس يرضى بالشجر والرياحين حتى يطلب المال الذي يسيل من أذن الفيل الهائج فيضربه الفيل بأذنيه فيقتله. ومن بذل نصيحته واجتهاده لمن لا يشكر له هو كمن بذر بذره في السباح أو أشار على الميت أو سار الأعمى.

قال دمنة: بأي شيء أحتال لنفسي إن أراد الأسد قتلي. فما أعرفني بأخلاق الأسد ورأيه فأعرفني بأنه لو لم يرد إلا الخير ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكي عنده لقدروا على ذلك. فإنه لو اجتمع المكر الظلمة على البريء الصحيح كانوا خلقاء أن يهلكوه، وإن كانوا ضعفاء وكان قوياً، كما أهلك الذئب الغراب وابن آوى والجمال حين اجتمعوا عليه بالمكر والخلافة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

### مثل الذئب والغراب وابن آوى والجمال

قال الثور: زعموا أن أسداً كان في أجمة مجاورة طريقاً من طرق الناس له أصحاب ثلاثة: ذئب وابن آوى وغراب. وأن أناساً من التجار مروا في ذلك الطريق فتخلف عنهم جمل لهم فدخل الأجمة حتى انتهى إلى الأسد فقال له الأسد: من أين أقبلت؟ فأخبره بشأنه. فقال له: ما تريد؟ قال: أريد صحبة الملك. قال: فإن أردت صحبتي فاصحبني في الأمن والخصب والسعة.

فأقام الجمل مع الأسد حتى إذا كان يوم توجه الأسد في طلب الصيد فلقى فيلاً فقاتله قتالاً شديداً. ثم أقبل الأسد تسليلاً دماؤه مما جرحه الفيل بنابه فوقع مثنخاً لا يستطيع صيداً. فلبث الذئب وابن آوى والغراب أياماً لا يصيبون شيئاً مما كانوا يعيشون به من فضول الأسد، وأصابهم جوع وهزال شديد فعرف الأسد ذلك منهم، فقال: جهدتُم واحتجتم إلي ما تأكلون. فقالوا: ليس همّا أنفسنا ونحن نرى بالملك ما نرى ولنا نجد للملك بعض ما يصلحه.

قال الأسد: ما أشك في مودتكم وصحبتكم ولكن إن استطعتم فانتشروا فعسى أن تصيبيوا صيداً فتأتوني به. ولعلي أكسبكم ونفسي خيراً. فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد، ففتحوا ناحية وانتصروا بينهم وقالوا: ما لنا ولهذا الجمل الأكل العشب الذي ليس شأنه شأننا ولا رأيه رأينا؟ ألا نزيّن للأسد أن يأكله ويعطعنا من لحمه؟



قال ابن أوى: هذا ما لا تستطيعان ذكره للأسد، فإنه قد أمّن الجمل وجعل له ذمة. قال الغراب: اقيما مكانكما ودعاني والأسد.

فانطلق الغراب إلى الأسد. فلما رآه قال له الأسد: هل حصّلت شيئا؟ قال له الغراب: إنما يجد من به ابتغاء ويبصر من به نظر. أما نحن فقد ذهب منا البصر والنظر لما أصابنا من الجوع. ولكن قد نظرنا إلى أمر وافق عليه رأينا، فإن وافقتنا عليه فنحن مخصبون.

قال الأسد: ما ذلك الأمر؟ قال الغراب. هذا الجمل الأكل العشب المتمرغ بيننا في غير صنعة..

فغضب الأسد وقال: ويلك ما أخطأ مقالتك وأعجز رأيك وأبعدك من الوفاء والرحمة. وما كنت حقيقاً أن تستقبلني بهذه المقالة. ألم تعلم أنني أمنت الجمل وجعلت له ذمة؟ ألم يبلغتك أنه لم يتصدق المتصدق بصدقة أعظم من أن يجير نفساً خائفة وأن يحقن دماً؟ وقد أجرت الجمل ولست غادراً به. قال الغراب: إني لأعرف ما قال الملك. ولكن النفس الواحدة يُفتدى بها أهل البيت، وأهل البيت يُفتدى بهم القبيلة، والقبيلة يُفتدى بها المصر، والمصر فدى الملك إذا نزلت به الحاجة. وإني جاعل للملك من ذمته مخرجاً فلا يتكلف الأسد أن يتولى غدراً ولا يأمر به، ولكننا محتالون حيلة فيها وفاء للملك بدمته وظفر لنا بحاجتنا. فسكت الأسد. فأتى الغراب أصحابه فقال: إني قد كلمت الأسد حتى أقرّ بكذا وكذا، فكيف الحيلة للجمل إذا أبى الأسد أنني يلي قتله بنفسه أو أن يأمر به؟ قال صاحبه: برفقك ورأيك نرجو ذلك.

قال الغراب: الرأي أن نجتمع والأسد والجمل ونذكر حال الأسد وما أصابه من الجوع والجهد، ونقول: لقد كان إلينا محسناً ولنا مكرماً فإن لم ير منا اليوم خيراً وقد نزل به ما نزل اهتماماً بأمره وحرصاً على صلاحه أنزل ذلك منا على لوم الأخلاق وكفر الإحسان. ولكن هلموا فتقدموا إلى الأسد فنذكر له حسن بلائه عندنا وما كنا نعيش به في جاهه، وأنه قد احتاج إلى شكرنا ووفائنا. وأنا لو كنا نقدر له على فائدة نأتيه بها لم ندخر ذلك عنه. فإن لم نقدر على ذلك بأنفسنا له مذبولة. ثم ليعرض عليه كل واحد منا نفسه وليقل: كلني أيها الملك ولا تمت جوعاً. فإذا قال ذلك قائل أجابه الآخرون وردوا عليه مقاتلة بشيء يكون له فيه عذر فيسلم وتسلمون إلا الجمل، ونكون قد قضينا دمام الأسد.

ففعّلوا ذلك ودعوا الجمل إلى نادي الأسد، ثم تقدموا إليه فبدأ الغراب وقال: أحق أن تطيب أنفسنا لك، فإننا بك كنا نعيش وبك نرجو عيش من بعدنا من أعقابنا. وإن أنت هلكت ليس لأحد منا بعدك بقاء ولا لنا في الحياة خير. فأنا أحب أن تأكلني، فما أطيب نفسي لك بذلك. فأجابه الذئب والجمل وابن أوى أن اسكت فما أنت وما في أكلك شبع للملك. قال ابن أوى: أنا مشبع الملك. قال الذئب والجمل والغراب: أنت منتن البطن خبيث اللحم فنخاف إن أكلك الملك أن يقتله خبث لحمك. قال الذئب: لكني لست كذلك فليأكلني الملك. قال الغراب وابن أوى والجمل: قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم الذئب فإنه يأخذه منه الخناق. وظن الجمل أنه إذا قال مثل ذلك يلتهمسون له مخرجاً كما صنعوا بأنفسهم ويسلم ويرضى الأسد. قال الجمل: لكن أيها الملك لحي طيب ومريء وفيه شبع للملك. فقال الذئب وابن أوى: صدقت وتكرمت وقلت ما نعرف. فوثبوا عليه فمزقوه.

وإنما ضربت لك هذا المثل عن الأسد وأصحابه لعلمي بأنهم إن اجتمعوا على هلاكي لم أمتنع منهم. ولو كان رأي الأسد في غير ما هو عليه لم يكن في نفسه إلا الخير. فإنه قد قيل: إن خير السلطان من أشبه النسر حوله الجيف لا من أشبه الجيف حولها النسور. ولو أن الأسد لم يكن في نفسه إلا الرحمة والحب لم تلبس عليه الأقاويل إذا كثرت فتذهب برقته ورحمته حتى يستبدلها بالشرارة والغلظة. ألا ترى أن الماء ألين من القول وأن الحجر أشد من القلب، وليس يلبث الماء إذا طال تحدره على الحجر الصلد أن يؤثر فيه.

قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع؟

قال شترية: ما إن أرى إلا أن أجاهده. فإنه ليس للمصلي في صلاته الدهر ولا أرى للمتصدق في صدقته ولا للورع في ورعه مثل الجهاد إذا جاهدوا على الحق. فإنه من جاهد عن نفسه ودافع عنها كان أجره في ذلك عظيماً وذكره رفيعاً إن ظفر أو ظفر به.

قال دمنة: لا أرى ذلك، فإنه لت ينبغي القتال مع الأعداء إلا بعد ذهاب الحيل وانقطاعها. فإن معالجة القتال قبل الاستعداد بغى وخفة. وقد قيل: لا تحقرن عدواً وإن كان حقيراً ضعيفاً مهيناً، ولا سيما إذا كان ذا حيلة يقدر على

أعوان، فكيف بالأسد مع جرأته وشدته، فإنه من احتقر ضعيفاً لضعفه أصابه ما أصاب المتوكل بالبحر مع الطيطوى.

قال شترية: وكيف كان ذلك؟

### مثل الموكل بالبحر مع الطيطوى

قال دمنة: زعموا أن طائراً من طيور البحر يدعى الطيطوى كان وطنه على بعض سواحل البحر مع زوجته. فلما كان أو أن إفراخهما قالت الأنثى للذكر: إنه قد أن لي أن أبيض، فالتمس لي مكاناً حصيناً أبيض فيه. قال الذكر: ليكن ذلك في مكاننا هذا فإن الماء والعشب منا قريب، ومكاننا هذا جامع لكل ما نحب، وهو أرفق بنا. قالت الأنثى: ليحسن نظرك فيما تقول، فإننا على غرر في مكاننا هذا. فإن البحر لو قدم لذهب بفراخنا. قال الذكر لا أظن أن البحر يحمل علينا لما يخاف من الموكل بالبحر ووكيل البحر لا يجترئ علي.

قالت الأنثى: ما أشد بغيك في هذه المقالة! أما تستحي نفسك من تهددك للموكل بالبحر وعنادك إياي وأنت تعرف نفسك. وحق ما يقال إنه ليس شيء أقل معرفة لنفسه من الإنسان. فاسمع كلامي وانتقل بنا من هذا المكان قبل وقوع ما لا نحب وقوعه بنا. فأبى الذكر أن يطاوعها. فلما كثرت عليه ولم يسمع منها قالت: إن من لا يسمع من أصحابه وأصدقائه يصيبه ما أصاب السلحفاة التي لم تقبل قول أصحابها. قال الذكر: وكيف كان ذلك؟

### مثل البطتين والسلحفاة

قالت الأنثى: زعموا أن عيناً كان فيها بطتان وسلحفاة وكان بينهما لجوار ألفة، ففقس في بعض الأزمنة ماء تلك العين نقصاناً فاحشاً. فلما رأت البطتان نقصان الماء قالتا: ينبغي لنا ترك هذه العين والتحول منها فودعتا السلحفاة وقالتا: السلام عليك فإننا ذاهبتان. قالت السلحفاة: إنما اشتد نقصان هذا الماء على مثل هذه الشقية التي لا تقدر أن تعيش إلا بالماء. فأما أنتما فإنكما تعيشان حيث توجهتما فاحتالا لي واذهبا بي معكما. قالتا: إنا لن نقدر على أن نذهب بك معنا إلا أن نشتري لنا إذا جعلناك في الهواء ورأك الناس فذكروك ألا تجيبهم. ففعلت ذلك واشترطت ألا تجيب أحداً. ثم قالت: وكيف السبيل لكما إلى حملي. قالتا: تعضين في وسط عود ونأخذ بطرفيه ونعلو بك في الهواء. فرضيت بذلك وحملتاه واستعلتا بها. فلما رآها الناس تنادوا وقالوا: انظروا إلى العجب، سلحفاة بين بطتين في الهواء. فلما سمعت السلحفاة مقالتهن وتعجبهم منها قالت: فقأ الله أعينكم، فلما فتحت فاهما بالنطق وقعت إلى الأرض فماتت.

قال الطيطوى: قد سمعت مقالته فلا تخافي البحر. فأفرخت الأنثى مكانها. فلما سمع الموكل بالبحر قول الطيطوى ذكر مد البحر فذهب بفراخه مع عشه فغيبهم. فقالت الأنثى لما فقدت فراخها للذكر: إنني قد كنت أعرف في بدء أمرنا أن هذا كائن وأنه سيرجع علينا فلة عرفانك لنفسك، فانظر إلى ما أصابنا من الضرر.

قال الطيطوى الذكر: أوما قد قلت في أول أمري وأنا أقول في آخره: إن جعل علينا البحر فسيرو صنيعي في ذلك. واجترأ فذهب إلى أصحابه فشكى إليهم ما لقي من الموكل بالبحر وما أصابه، وقال: إنكم إخواني وأهلي وثقتي في طلب ظلامتي فأعينوني واحتالوا لي، فإنه عسى أن ينزل بكم غداً ما نزل بي اليوم، فقالوا له: إنا أعوانك على ذلك ما استعنتنا، ولكن ما عسى أن نقدر عليه من الموكل بالبحر.

قال الطيطوى: يا معشر الطيور سيدتنا العقاب العنقاء فلا نزال نتضرع ونناديها بأعلى أصواتنا حتى ترانا فتنتقم لنا من الموكل بالبحر. فأجابوا إلى قول الطيطوى وصرخوا إلى العنقاء فظهرت لهم وقالت: ما جمعكم ولم دعوتنني. فشكوا إليهما ما لقوا من الموكل بالبحر وقالوا: إنك سيدتنا والملك الذي يقتعدك أقوى من الموكل بالبحر ليقاتله. فلما عرف الموكل بالبحر ضعفه عند قوة ذلك الملك الذي يقتعد العنقاء عجل فردّ الفراخ.

وإنما حدثتكم بهذه الأحذوثة لتعلم أنه لا ينبغي لأحد أن يخاطر بنفسه وهو لا يستطيع، فإن قتل قيل: قد أضاع نفسه، وإن ظفر قيل: القضاء. ولكن العاقل يعاجل الحيل ويؤخر القتال ويتقدم قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحل.

قال الثور: فما أنا بمقاتل الأسد، ولا نصب له العداوة سرا ولا علانية، ولا أتغير عن أحسن ما كنت عليه حتى يبدو لي منه ما أخاف به على نفسي.

قال دمنة وقد كربه قوله: لا أتعير للأسد عن أحسن ما كنت عليه. وظن أن الأسد إن لم يرَ من الثور العلامات التي ذكرها له فإنه متهمه، فقال للثور: إنك لو قد نظرت إلى الأسد استبان لك منه ما يريد.

قال الثور: وكيف أعرف ذلك؟

قال دمنة: إن رأيت الأسد حين ينظر إليك منتصباً مقعياً رافعاً صدره مشدداً نحوك نظره صاراً أذنيه فاغراً فاه يضرب بذنبه الأرض فاعلم أنه يريد قتلك.

قال الثور: إن رأيت منه هذه العلامات فما هي في أمره من شك.

ثم إن دمنة لما فرغ من تحميل الأسد على شترية ومن تحميل شترية على الأسد توجه نحو كليله. فلما انتهى إليه قال له كليله: إلى أين انتهى عملك؟

قال دمنة: قد قارب الفراغ على الذي أحب وتحب فلا تشكّن في ذلك ولا تظن أن المودة بين الأخوين تثبت إذا احتال لقطع ما بينهما ذو الحيلة الرقيق.

ثم إن كليله ودمنة انطلقا ليحضروا قتال الأسد فوافقا شترية داخلا عليه. فلما رآه الأسد انتصب مقعياً وصرّ أذنيه وفغر فاه وضرب الأرض بذنبه. فلم يشكّ الثور أنه واثب عليه فقال في نفسه: ما صاحب السلطان في قلة ثقته به وما يتخوف من بواده وتغير ما في نفسه له عندما يؤتى إليه من البغي والطعن والكذب إلا كصاحب الحية إذا جاورها في مبيتة ومقيله فلا يدري ما يهيج منها، أو كمجاورة الأسد في عرينه، أو كالسباح في الماء الذي فيه التمساح فلا يدري متى هو مساوره. ففكر الثور في هذا وهو يتأهب لقتال الأسد إن هو أراد.

فلما نظر الأسد عند دغره منه وما داخله من سوء الظن رأى فيه بعض العلامات التي ذكرها له دمنة فلم يشكّ إلا أنه إنما جاءت لقتاله، فواثبه الأسد ونشب بينهما القتال. واشتد قتال الثور حتى طال وسالت الدماء منهما جميعاً حتى هلك الثور.

فلما رأى كليله الأسد قد بلغ منه ما بلغ وسالت الدماء قال لدمنة: انظر إلى حيلتك ما أنكرها وأسوأ عاقبتها. قد هلك الثور وتفرقت كلمة الجند ووقعت ملامتهم مع ما استبان من خرقك الذي ادعيت فيه الرفق. أو ما تعلم أن أخرج الخرق من كلف صاحبه القتال وهو عنه غني؟ وربما أمكنت الرجل فرصته في القتال فيتركها مخافة التعرض للمخاطرة والنكبة، ورجاء أن يقدر على صاحبه بغير قتال. وإذا كان وزير السلطان يأمر بالمحاربة فيما يقدر عليه بالملاينة والظفر بالحاجة فهو أشد له عداوة من لسانه. وكما أن اللسان تدركه الزمانة عن نهكة الفؤاد. كذلك النجدة تدركها الزمانة عن خطئ الرأي. فإن النجدة والرأي إذا فقد أحدهما صاحبه لم يكن للآخر عنه غنى عند المحاربة، وللرأي على النجدة فضل. فإن أموراً كثيرة يجزئ بها الرأي دون البأس ولا يجزئ البأس شيئاً يستغنى به عن الرأي. ومن أراد المكر ولم يعرف وجه الأمر الذي يأتيه منه كان عمله كعملك. وكان لي علم ببغيك وتعجبك برأيك. ولم أزل مذ رأيت وسمعت كلامك أتوقى معرة تجنيها علي وعلى نفسك. فإن العاقل يبدأ بالنظر في الأمور والأعمال قبل ملامستها. فما رجا منها أن يتم على ما يريد أقدم عليه وما خاف ألا يتم انصرف عنه ولم يتلّس به. ولم يمنعني من لائمتك في أول أمرك وتوقيفك على عيوبك. إلا أنه كان أمراً لم أستطع إظهاره وابتغاء الشهود عليك والأعوان وعرفت أن قولي لا يزيدك خيراً ولا يردك عن سوء.

فأما الآن حين استبان لي عجز رأيك وخرق عملك ورأيت سوء عاقبة أمرك فأخبرك عن نفسك وأوقفك على عيوبك. من ذلك أنك تحسن القول وتسيء العمل. وقد قيل: لا شيء أهلك من صاحب يحسن القول فلا يحسن العمل. وإنما غرّ الأسد منك أنك تحسن الكلام فأهلكته لأنك لا تحسن الفعل. ولا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في النظر إلا مع الخبرة، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في الصديق إلا مع الوفاء، ولا في العفة إلا مع الورع، ولا في الصديق إلا مع الوفاء، ولا في الصدقة إلا مع حسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة والأمن والسرور. وقد شرطت أمراً لا يداريه إلا العاقل الرفيق كالمريض الذي تجتمع عليه وجوه مختلفة من الأمراض والأدوية فلا يستطيع دواءه إلا الطبيب الرقيق.

واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الأحق سكرًا كما أن النهار يزيد على كل ذي بصر بصرًا، والخفافيش يسوء به بصرها. وذو العقل لا تبطره منزلة أصابها ولا شرف بلغه كالجبل الذي لا يتزلزل وإن

اشتدت الريح. والسخيف تبطره أدنى منزلة كالحشيش الذي يحركه نسيم الريح. وقد اذكرت أمراً سمعته يذكر من أمر السلطان أنه إذا كان صالحاً وكان وزراؤه وزراء سوء امتنع خيره من الناس فلم يستطع أحد أن ينتفع منه بمنفعة ولا صحة. وإنما مثله في ذلك مثل الماء الصافي الطيب الذي في التماسيح، لا يستطيع أحد أن يدخله وإن كان سابحاً وكان إلى دخوله محتاجاً. وإنما حيلة الملوك وزينتهم وقراباتهم إذا كثروا وصلحوا. إنك أردت ألا يدبر أمر الأسد غيرك، وإنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواله. والخرق التماس الرجل الإخوان بغير وفاء، والأخذ بالرياء ومودة النساء بالغلظة، ونفع الناس بضرّ نفسه، والعلم والفضل بالدعة والحفظ. ولكن ما نفع هذه المقالة وما حد هذه العظة، وأنا أعلم أن الأمر في ذلك كما قال الرجل لطائر: لا تطلب تقويم ما لا يستقيم ولا تأديب ما لا يرفعوي.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

### مثل القروذ والطائر والرجل

قال كليله: زعموا أن جماعة من القروذ كانوا في جبل من الجبال فأبصروا ذات ليلة يراعة تطير فظنوا أنها شرارة فجمعوا حطباً فوضعوه عليها ثم أقبلوا ينفخون. وكان قريباً منهم شجرة فيها طائر فجعل يناديهم: إن الذي رأيتم ليس بنار. فأبوا أن يسمعوها منه فنزل إليهم ليعلمهم. فمر عليه رجل فقال: أيها الطائر لا تلتمس تقويم ما لا يستطيع ولا تأديب ما لا يتأديب، فإنه من عالج ما لا يستقيم بالمعالجة ندم. فإن الحجر الذي لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف. والعود الذي لا ينحني لا يعالج انحناءه. ومن عالج ما لا يستقيم ندم. فأبى ذلك الطائر أن يسمع من ذلك الرجل وينتفع بشيء من قوله حتى دنا من القردة ليفهمهم أمر اليراعة أنها ليست بنار. فقتلوه بعض القروذ فقطع رأسه.

فهذا مثلك في قلة انتفاعك بالأدب والموعظة. وأنت يا دمنة قد غلب عليك الخب والعجز. والخب والعجز خلنا سوء. والخب أشدهما عاقبة، فأشبههما أمراً بالخب شريك المغفل.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

### مثل العلجوم والحية

قال أبو الخب: زعموا أن علجوماً جاورته حية وكان إذا أفرخ العلجوم ذهبت الحية إلى عشه فأكلت فراخه. وكان العلجوم قد وافقه مكانه فلم يتسرع تركه وحزن لما لقي من الحية. ففطن لذلك سرطان دنا منه فسأله: ما يحزنك؟ فأخبره ما لقي. فقال له السرطان: أفلا أدلك على أمر تستفي به من الحية. قال: وما ذلك؟ فأولماً السرطان إلى جحر قبائله فقال: أترى ذلك الجحر؟ فإن فيه ابن عرس وهو عدو للحيات. فاجمع سمكاً كثير اص ثم ضع شيئاً منه عند جحر الحية إلى جحر ابن عرس. فإن ابن عرس يأكل من السمكات الأول فالأول حتى ينتهي إلى جحر الحية فيقتلها. ففعل العلجوم ذلك وانتهى ابن عرس إلى الحية فقتلها. ثم جعل يرجع إلى ذلك المكان للعبادة يلتمس طعاماً حتى وقع على عش العلجوم لقرب جواره من جحر الحية فأكل العلجوم وفراخه.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن من لم يتثبت في حيلته ويدبرها أوقعته في أشد ما يحتال لغيره. قال الخب: قد سمعت هذا المثل فلا تهابنه لأنه أيسر أمراً مما تظن. فتابع الشيخ ابنه وانطلق إلى الشجرة فدخل فيها، وغدا القاضي والخب والمغفل إلى الشجرة وسألها القاضي: هل عندك شهادة؟ فأجابته الشيخ من جوف الشجرة أن نعم، المغفل صاحب الدنانير. فاشتد عجب القاضي واستنكره وجعل ينظر ويتفطن، هل طاف بالشجرة أحد. وبصر بذلك الجوف فنظر فيه فلم ير شيئاً لأن الرجل قد كان ارتفع عن المكان الذي تتاله فيه العين. فأمر القاضي بالحطب فجمع، ودعا النار فدخل في ذلك الجوف وتصير أبو الخبر ساعة ثم نزل به الجهد فصاح ونادى واستغاث. فأمر القاضي فأخرج بعد ما أشفى على الموت. فعوقب الخب ثم غرّم ثم انقلب بأبيه على ظهره ميتاً وانطلق المغفل بالدنانير.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن صاحب المكر والخديعة ربما كان هو المغبون. وأنت يا دمنة جامع للخب والخديعة والعجز من ثمرة مكرك هذا الذي ترى، مع أنك لست بناج من العقوبة. وكذلك تكون عاقبة أمر من كان مثلك، فإنك ذو وجهين ولسانين. وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تنته إلى البحور، وصلاح أهل البيت ما لم يفسد بينهم مفسد، وبقاء الإخاء بين الأخوان ما لم يدخل بينهم ذو لسانين. فإن ذا اللسانين ليس شيء أشبه منه بالحية لأن الحية ذات لسانين، ويجري من لسانك بينهم كسمها. ولم أزل لذلك السم من لسانك خائفاً مشفقاً أن

يعرّني بشيء كارهاً لقربك، ذاكراً لموعزة قرابة وصحية ومواصلة. فإن الفاجر من الأصحاب كالحية يربيهها صاحبها ويمسحها ثم لا يكون له منها إلا اللسع. وكان يقال: الزم ذا العقل والكرم واسترسل إليه وإياك وفراقه، ولا بأس عليك أن تصحبه وإن كان غير محمود الخلق. ولكن احتسب من شين أخلاقه وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، وفرّ الفرار كله من اللئيم الأحمق. وإني بالفرار منك والاجتناب لك لجدير. وكيف يرجو أحد غيرك وفاء وكرماً وقد صنعت لملك الذي أكرمك وشرّفك ما صنعت. بل مثلك في ذلك مثل التاجر القائل: إن أرضاً يأكل جردّها مئة منّ حديداً غير مستنكر فيها أن تختطف بزاتها الفيلة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

### مثل الخبّ والمغفل

قال كليلّة: زعموا أن خباً ومغفلاً أصابا في طريق بدرة فيها ألف دينار، وكانا شريكين في تجارة. فبدا لهما أن يرجعا إلى منازلهما. فلما دنوا من مدينتهما قعدا لاقتسام الدنانير. فقال المغفل للخب: خذ نصفها واعطني النصف. وكان الخب قد وطّن نفسه على أن يذهب بها كلها. فقال: لا نقتسمها، فإن الشركة والتفاوض أقرب إلى المخالصة والصفاء. ولكن خذ منها نفقة وأخذ أنا مثلها وندفن البقية في مكان حريز، فإذا احتجنا إلى النفقة جئنا جميعاً فأخذنا حاجتنا.

قال المغفل: نعم. فأخذا من الدنانير شيئاً يسيراص ودفنا البقية في أصل شجرة عظيمة من شجر الدوح. ثم إن الخبّ خالفه إلى الدنانير وأخذها وسوّى الأرض على موضعها. فقال المغفل بعد ذلك بأشهر للخب: قد احتجنا إلى نفقة فانطلق بنا إلى الدنانير نأخذ منها نفقة. فانطلقا جميعاً حتى أتيا الشجرة فاحتفرا المكان الذي كانت فيه الدنانير فلم يجدا فيه شيئاً، فأقبل الخب على شعره وينتفه وعلى صدره يضربه وصاح وقال: لا يتفق أحد بأحد ولا يغترّن بأخ ولا صاحب. خالفت إلى الدنانير فأخذتها. فجعل المغفل يتنصّل ويلعن، ولا يزداد الخب إلى شدة عليه فيقول له: من أخذها غيرك؟ هل شعر بنا أحد سوانا؟

ثم إن الخب أخذ المغفل فانطلق به إلى القاضي فاقتص عليه قصته وزعم أن المغفل هو الذي أخذ الدنانير. فقال له القاضي: هل لك بيّنة؟ قال الخب: نعم تشهد لي الشجرة التي كانت الدنانير في أصلها. فعجب القاضي من ادعائه شهادة الشجرة وأنكر ما قال فأمر به أن يكفل نفسه. وقال للكفيل: وافني به غدا ليطلعنا على ما ادعى من شهادة الشجرة.

فانصرف الخبّ إلى بيته فقصّ على أبيه القصة وقال: يا أبت إنني لم أستشهد الشجرة لما كنت رأيت فيها وإنما اتكلت عليك فيما ادعيت به. فإن شئت فقد أحرزنا الدنانير وكسبنا مثلها من قبل المغفل. قال أبو الخب. وما ذلك الذي تأمرني به: قال الخب: إنني قد توخيت بالدنانير شجرة عظيمة من شجر الدوح جوفاء فيها مدخل لا يرى فدفنتها في أصلها في خالفت إليها فأخذتها وادعيت على المغفل زوراً. فأنا أحب أن تذهب الليلة فتدخل في ذلك المكان، فإذا جاء القاضي فسأل الشجرة شهادتها تكلمت من جوفها وقالت: المغفل أخذ الدنانير. قال أبو الخب: يا بني إنه ربّ متحيل أوقعته حيلته في شرّ فيائك أن يكون تمحلك شبيهاً بتمحل العجوم. قال الخب: وكيف كان ذلك يا أبت؟

### مثل التاجر المستودع حديداً

قال كليلّة: زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا تاجر مقلّ فأراد التوجه في وجه من الوجوه ابتغاء الرزق. وكان له مئة منّ من حديد فاستودعها رجلاً من معارفه ثم انطلق. فلما رجع بعد حين طلب حديده، وكان الرجل قد باعه واستنفق ثمنه، فقال له: كنت وضعت حديدك في ناحية من البيت فأكله الجرذان. قال التاجر: إنه قد كان يبلغني أن ليس شيء أقطع للحديد من أسنانها وما أهون هذه الرزية فاحمد الله على صلاحك. ففرح الرجل لما سمع من التاجر وقال له: اشرب اليوم عندي. فوعده أن يرجع إليه. فخرج التاجر من عنده فلقي ابناً له صغيراً فحمله وذهب به إلى بيته فخبّاه ثم انصرف إلى الرجل وقد افتقد الغلام وهو يبكي وبصرخ.

فسأل التاجر: هل رأيت ابني: قال له: لقد رأيت حين دنوت منكم بازياً اختطف غلاماً فعسى أن يكون هو. فصاح الرجل وقال: يا عجباً، من رأى أو سمع أن البزاة تختطف الغلمان. قال التاجر: ليس بمستنكر أن أرضاً يأكل جردّها مئة منّ حديد قد تختطف بزاتها الفيلة، فكيف غلاماً. قال الرجل: أكلت الحديد وسماً أكلت فاردد ابني وخذ حديدك.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذ غدرت بملكك ذي البلاء الحسن عندك فلا أشك بغدرك بمن سواه. فلا طمع لذي عقل في وفائك لأحد. وقد علمت أنه ليس للمروءة عندك موضع. فإنه لا شيء أضيع من مودة تمنح لمن لا وفاء له، أو بلاء حسن يصطنع عند من لا شكر له، أو أدب صالح يؤدّب به من لا يستمع له، أو سرّ يستودعه من لا حصافة له. ولست في شك من تغير طباعك لأنني أعرف أن الشجرة المُرّة لو طليت بالعسل والسمن لم تثمر إلا مرّاً. وقد خفت صحبتك على رأيي وأخلاقي. فإنّ صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تحدث كل شرّ كالريح إذا مرّت على النتن احتملت ننتاً وإذا مرّت على الطيب احتملت طيباً. وقد عرفت ثقل كلامي عليك فلم تزل السخفاء تستخف العلماء واللؤماء تعيب الكرماء وذوو العوج يُضرّ وعجهم باستقامة من خالطهم.

فانتهى كلام كلبلة إلى هذا وقد فرغ الإد من الثور. فلما قتله راجع رأيهِ وفكر فيما صنع بعد سكون غيظه وضاق به ذرعاً وقال في نفسه: لقد كان الثور ذا عقل وخلق ولا أدري لعله كان بريئاً مبيعاً عليه، وقد فجعت نفسي بفجيعة ما أصبت منها عوضاً. فحزن وندم وعرف دمنة ذلك من الأسد فترك محاوره كلبلة وتقدم إليه فقال له: ما يحزنك أيها الملك وقد أظفر الله يدك وأهلك عدوك.

فقال الأسد: حزنت على عقل الثور وكرم خلقه وذكرته صحبتته وحرمته فداخلني له رأفة.

قال دمنة: لا ترحمته أيها الملك. فإن العاقل لا يرحم من يخاف غائلته. وإن الملك الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ثم يقبل عليه فيقرّبه ويؤليه الأمور لما يعرف عنده من الغناء والعقل، كما يقبل الرجل على الدواء البشع الكريه رجاء منفعتة. وربما أحب الرجل وعزّ عليه فأقصاه وابعده مخافة ضرره كفعل الرجل تلسع الحية إصبعه فيقطعها ويرمي بها مخافة أن ينتشر سمّها في جسده كله فيقتله.

فأقرّ الأسد بقوله. ثم إن الأسد فحص عن أمر الثور وعما كان من قول دمنة وبغيه عليه فاستبان الأسد كذب دمنة وسوء عمله وخيانتته له فقتله شرّ قتل. فهذا حديث الأخوين المتحابين يقطع بينهما الخؤون الكذوب.

### باب الفحص عن أمر دمنة

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت حديثك في محال العدو المحتال كيف أفسد اليقين بالشبهة حتى أزال المودة وأدخل العداوة، فحدثني إن رأيت كيف اطلع الأسد على ذنب دمنة حتى قتله وكيف كانت معاذيره ومدفعه عن نفسه.

قال بيدبا الفيلسوف: إنا وجدنا في كتب خبر دمنة أن الأسد لما قتل شترية ندم على معالجته بالقتل وتذكر حرمة. وكان من جنود الأسد وقرابته نمر كان من أكرم أصحابه عليه، وأخصّم عنده منزلة، وأطولهم به خلوة بالليل والنهار. وكان الأسد بعد قتله شترية يطيل مسامرة أصحابه ليقطع عنه بحديثهم بعض ما قد داخله من الكآبة والحزن بقتله الثور. وإن النمر لبث في سمره ذات ليلة حتى مضت هدأة من الليل. ثم خرج من عنده منصرفاً إلى منزله. وقد كان منزل كلبلة ودمنة قرب منزل الأسد فدنا النمر من منزلهما ليصيب قبساً يستضيء به وكانا مترافقين.

فسمع النمر محاورتهما ونصت لهما حتى سمع كلامهما كله، ووجد كلبلة قد أقبل على دمنة يعذله ويقبّح له رأيهِ وفعله ويعظّم له جرمه ويوبّخه بغدره. وكان فيما أنبه به أن قال: إن الذي هيجت بين الأسد والثور من العداوة بعد المودة والفرقة بعد الألفة والشحناء بعد السلامة بسخافة عقلك وقلة وفائك لمظهر أمرك ومطلع طلعه، ولازمك من بغيه ما تستوبل عاقبته وتستمر مذاقته. فإن الغدر وإن كان عاجله واستحليت فروعه مرّ العاقبة بعيد المهواة وخيم المزلة، وإنني باجتنابك وترك مقارنتك والافتداء بك لحقيق، فلست بأمن على نفسي من معرفتك وشرّك وغدرك. وقد قالت العلماء: اجتنب أهل الريبة لنلا تكون مريباً. فإني تارك مقارنتك ومتباعد منك ومغترّب عنك لسوء أخلاقك التي بها أنشبت العداوة بين الملك ووزيره الناصح المأمون، فلم تزل بتشبيهك وتمويهك بالباطل حتى حملته على القسوة وأورطته الورطة فقتله مظلوماً بريئاً.

قال دمنة: قد وقع من الأمر ما لا مردّ له فدع تضيق الأمور عليّ وعلى نفسك فإني سأعمل في التغيب عن موقع الأمر في نفس الأسد. فقد كرهت ما مضى مني. والحسد والحرص حملاني على ما صنعت.

فلما سمع النمر ذلك من كلامهما انصرف خفياً مسرعاً حتى دخل على اللبوءة أم الأسد فأخذ عليها عهداً ألا تشفي سرّه إلى الأسد ولا إلى غيره. فعاهدته على ذلك فأخبرها بالقصة على وجهها من قول كليلّة وإقرار دمنة.

فلما أصبحت أم الأسد أقبلت حتى دخلت على الأسد فوجدته مكتئباً حزيناً لقتله شترية فقالت: إن حزنك غير رادّ عليك مدبراً ولا سائق إليك نفعاً، وأنت غنيّ عن أن تجعله للبلاء عوناً عليك فتضعف به فؤادك وتنهك به جسمك وتحمل به المضرة على نفسك، وأنت بحمد الله بتحصيل الأمور رفيق بصير بصادرها وواردها. فإن علمت أن لك في الحزن فرجاً فحملنا منه مثلما أنت فيه. وإن علمت أن لك في الحزن فرجاً فحملنا منه مثلما أنت فيه. وإن علمت أنك لا ترجع به مدبراً ولا تسوق به إليك نفعاً فارغب عنه وانظر فيما يعود عليك نفعه. وإن اعتبار ما بلغك عن شترية حتى يصحّ لك حقيق ذلك من باطله ليسير.

فقال الأسد: فكيف لي بذلك؟

قال أم الأسد: إن العلماء قد قالوا من أراد أن يعرف محبه من مبغضه وعدوه من صديقه فليعتبر ذلك من نفسه. فإن الناس على مثل ذلك له كما هو عليه لهم وإن أقنع ما شهد على امرئ نفسه. فلنا من قولك دليل على أن قلبك يشهد عليك بأنك عملت ما عملت بغير علم ولا يقين. وذلك فاعلم أنه رأس الخطأ. ولو كنت حين بلغك عن الثور ما بلغك كففت نفسك وملكت غيظك ثم عرضت ما بلغك عنه على قلبك بحسن النظر لاكتفيت بقلبك دليلاً على تكذيب ما أتاك عنه، لأن القلوب تتكافأ فيما يتلاقى بعضها من بعض في سرّها وعلايتها. ففس أمرك وأمر الثور بموقع أمر كان في نفسك جنايته وموقعه اليوم بعد موته.

فقال الأسد: لقد أكثرت الفكر وحرصت على التجني على الثور بعد قتلي إياه لعلي أخذه في ذنب واحد كان فيما بيني وبينه أقوى به تهمني فما يزداد ظني به إلا حسناً وله وداً. ولست أتذكر منه شرارة خلق أقول هي حملته على أن ابتدأني بالحسد ولا نقص رأي أتهمه به على طلب مغاليتي، ولا أتذكر مني إليه أمراً سيئاً أرى أنه دعاه إلى عداوتي. فإني أحب أن أفحص عن أمره وأبالغ في البحث عنه وإن كنت أعرف أن ذلك غير مصلح ما فرط مني. ولكنني أحب أن أعرف موقعي الذي أنا عليه فيما صنعت من الخطأ أو الصواب. فأخبريني هل سمعت من أمره شيئاً تذكرينه لي.

قالت أم الأسد: نع قد بلغني أمر استكتمنيه بعض أهلك. ولولا ما قالت العلماء في إذاعة السر والتضييع للأمانات وأنت تترك ما لا نفع فيه وما منجى لأخبرتكم بما علمت.

قال الأسد: إن العلماء لأقاولهم وجوه كثيرة ومعان مختلفة وأحوال متصرفة، وليس في كل الوجوه أمر بالكتمان ولكل أمر موضع وخير. فإذا كان في موضعه صلح العمل به ونفع، وإن كان في غير موضعه ضرر وأفسد. فمما تعظم مضرّه ولا يرضى استتالته كتمان ما ينبغي له أن يعلن عذراً في إسراره ولا سعة في السكوت عنه. فإني أرى أن مطلّعك عليه قد ألقى على نفسك وزره وحملك خيره وشرّه وأنت حقيقة بإظهاره، وحمله الوجمل على نفسه من كتمانها، فالقي ما استودعت منه عنك بإفشائه إليّ وإظهاره.

قالت أم الأسد: قد عرفت الذي قلت وإنه كما قلت وإن كان في ما ذكرت ما يحملن يعلى كثير من الكلام لعلمي بموقع هذا الأمر في نفسك. فلا أراك إن كنت على ما أرى من الرأي أن يمنعك من العزم والمبالغة في نكال أهل الجريمة والغدر في اعتقاد الألفة والثقة والتصديق. فحدثني إن كان في نفسك مني حرج.

قال الأسد: ما في نفسي حرج ولا أنت عندي نمانة ولا أنا في نصحك مراتب ولا أرى عليك في ذلك من ضرر في إفشاء ذلك الأمر إليّ.

قالت أم الأسد: بل ضرر منه عليّ في خلال ثلاث: أما واحدة فانقطاع ما بين وبين صاحب هذا السر من المودة لإباحتي بسرّه، وأما الأخرى فخيانتي لما استخففت من الأمانة، وأما الثالثة فوجل من كانوا يسترسلون إليّ قبل اليوم مني وقطعهم أسرارهم عني.

قال الأسد: الأمر على ما قلت وما أنا عمّا كرهت بالمفتش، وما يختلج في صدري الارتياح بنصحك، فأخبرني بجملة الأمر إن كرهت أن تخبريني باسم صاحب السر ما أسرّ إليك منه.

فأخبرته بجملة ذلك الحديث ولم تسم من ذكره لها. وكان فيما قالت أن قالت: إنه لا ينبغي للولادة والرؤساء استبقاء الخونة الفجرة أهل الغدر والنميمة والمحال والإفساد بين الناس بفساد صلاحهم. وأول من نفى عن الناس من يفسدهم وساق إليهم من يصلحهم القادة المتولون لأموهم. وأنت بقتل دمنة حقيق، فإنه قد كان يقال: إن إفساد أجل الأشياء من قبل خصلتين: إذاعة السر وانتمان أهل الغدر. وإن الذي أنشأ العداوة بينك وبين شترية أصبح الوزراء وخير الإخوان حتى قتلته غدر دمنة وجهالته ومكره وخيانتته. وقد اطلعت على مكنونه وبدا لي ما كان يُخفي عليك وعلمته نحو ما كان يذكر من حديثه إياك قبل اليوم. فالراحة لك ولجندك وإن ظهر منه ما كان يكتُم وعلم منه ما كان يبطن بقتله، فاقتله عقوبة لجريمته وإبقاءً على جندك فيما يُستقبل من شره. فإنه ليس على مثله إن انتعش بمأمون. ولعلك أيها الملك أن تترك إلى ما أمر به الملوك من العفو عن أهل الجريمة. فإن رأيت ذلك فاعلم أنه ليس في من بلغ جرمه جرم دمنة لأنه لا ذنب له أكثر مما جنى دمنة علانية وسراً بخلايته ومكره وتحميل الملك على البريء من وزرائه السليم صدره الناصح جيبه، حتى انطوى منه على حسده وقتله على شبهة.

ثم قالت: إني لست أجهل قول العلماء لتعظيم الفضل في العفو عن أهل الجرائم. ولكن الفضل في ذلك إنما هو دون النفوس أو جناية العامة التي يقع فيها الشين وتحتج بها السفهاء عندما يكون من أعمالهم السيئة واستعد بها الملك بالأمر الذي يضل خطره فيه إن كان إلى العامة.

فأمر الأسد أمه بالانصراف عنه وبعث حين أصبح إلى جنوده فأدخل عليه وجوهمهم. فأرسل إلى أمه فحضرت المجلس ثم دعا بدمنة فأتي به. فلما أقام بين يديه قلب الأسد يده بالتمثيل به. فلما رأى دمنة ذلك أيقن بالهلكة فالتفت إلى بعض من يليه فقال له بصوت خفي: هل حدث من حديث أحزن الملك أو هل كان شيء جمعكم له كما أرى؟

قال دمنة: ما أرى الأول ترك للأخير مقالاً في شيء من معاريض الأمور. وقد جرى في بعض ما يقال أن أشد الناس اجتهاداً في توقي الشر أكثرهم فيه وقوعاً، ولا يكون للملك وجنوده المثل السوء. وقد علمت أن ذلك إنما قيل في صحة الأشرار. إنه من أصحابهم وهو يعلم عملهم لم ينجهم من شرورهم توقيه إياها. ولذلك انقطعت النساك بأنفسها واختارت الوحدة في الجبال على مخالطة الناس وأثرت العمل لله على العمل لخلقته لأنه ليس أحد يجزي بالخير خيراً إلى الله. فأما من دونه فقد تجري أمورهم على فنون شتى يكون مع ذلك في أكثرها الخطأ. وما أحد بأحق بإصابة الصواب من الملك الموفق الذيا لا يصانع أحداً لحاجة به إليه ولا لعاقبة يتخوفها منه. وإن كان أحق من ذلك من عظمت فيه رغبة الملوك من محاسن الصواب فمكافأة أهل البلاء الحسن عندهم. وما بلاء أبين حسناً من نصيحة. ولقد علم وعلمت وعلم جميع من حضر أنه لم يكن بيني وبين الثور أمر أضطغن عليه فيه حقداً ولا أبغى له غائلة، وما كان بذلك من ضرر ولا نفع. ولكنني نصحت الملك فيه وأعلمته ما اطلعت عليه من أمره حتى أبصر مصداق ما ذكرت له وكان فيه أفضل رأياً وأشد حزمًا وعزماً. ولقد أعرف أنه قد تخوف مثلها مني غير واحد من أهل الغش والعداوة فنصبوا نصبي وأجمعوا على طلب هلاكي. وما كنت أتخوف أن يكون جزائي على النصيحة وحسن البلاء أن يحزن الملك على تركه إياي حياً.

فلما سمع الأسد قول دمنة قال: أخرجوه عني وادفعوه إلى القضاء، فليفتشوا عن أمره، فإنني لست أحب أن أحكم على محسن ولا مسيء إلا بظهور وجه الحق والعدل.

فسجد دمنة للأسد ثم قال: أيها الملك إنه ليس أكشف للعمى ولا أوضح للشبهة ولا أشد استخراجاً لغامضات الأشياء من الاجتهاد والمبادرة فيما يصاب به ذلك. وقد علمت أيها الملك أن النار تكون مستكنة في الشجر والحجارة فلا تخرج ولا تصاب منفعتها إلا بالعمل والطلب. ولو كنت مجرمًا لتخوفت التكتشف عن جرمي كما قد أصبحت لعلمي ببراءتي، أرجو أن يخرج الفحص والتكشف صحة أمري. وكذلك كل شيء طابت رائحته أو نتنت فالיום يزيد فوجاً وظهوراً. ولو كنت أعرف مع ذلك لنفسي ذنباً أو جرماً لوجدت في الأرض مذهباً ولما لزمتم باب الملك أنتظر ثواب عملي. ولكنني أحب أن يأمر الملك من يلي الفحص عن أمري أن يرفع إليه في كل يوم ما يكشف من عذري وبراءتي ليرى في رأيه ويعارض بعض أمري ببعض ولا يعمل في أمري بشبهات أهل البغي والعداوة، فإن الذي رأى الملك من تشبيهِهم عليه ما قد استبان من عداوة الثور لجدير أن يمنعه من الإقدام على قتلي بعد الذي علم من نصيحتي وحطتي عليه ومن رأيه الذي قد علمه الملك من منزلتي في نفسي من خساسة الحال وصغر الخطر. وإنني لست أستطيع أن أدفع نفسي عن نسبة العبودية ولا أطعم فيما يطعم فيه من فوق. فإنني وإن كنت عبد الملك فإن لي من عدله نصيباً أعرف أن الملك معطينيه من نفسي في حياتي وبعد موتي. فإن كان الملك أجمع على دفعي إلى من يبحث عن أمري وينظر في براءتي فإنني أرغب إلى عدله ولا يغفل أمري وأن يأمر برفع معاذيري إليه يوماً بيوم. فإن كان الملك للبلاء المقدور عليّ وقلة استطاعتي لامتناع



من القدر غير مترو في أمري ولا متجث عن شأني ولا صارف العقوبة عني لقول أهل الشرارة والمحال على غير ذنب سلف مني، فلم يبق لي ناصر الجأ إليه إلا الله فإنه كاشف الكرب. وقد قالت العلماء: إنه من صدق فيما يشبه عليه بما ينبغي الشك فيه وكذب بما ينبغي أن يصدق فيه أصابه ما أصاب المرأة التي بذلت بمالها لعبدها بتشبيهه عليها.

قال الأسد: وكيف كان ذلك؟

### مثل المرأة والمصور والعبد

قال دمنة: زعموا أنه كان بمدينة باثرون في أرض تدعى كشمير تاجر يدعى حبلاً وكانت له امرأة ذات حيلة ودهاء تختلس من ماله فتبيعه لشؤونها. وكان إلى جانب بيتها مصور ماهر بالتصوير يواطئها على اختلاس المال. فقال المرأة للرجل في بعض أحيانه التي كان يأتيها فيها: إن استطعت أن تحتال بصناعة اطلع بها على مجيئك إذا جئتني بالليل من غير نداء ولا رمي ولا شيء يرتاب به يكون رفق ذلك بي وبك. فقال المصور: عندي في ذلك من الحيل ما يسرك، وهو أن عندي ملاءة بتهاويل الصور، وجهها الواحد شبيه باليقق الأبيض الشبيه بضوء القمر، والوجه الآخر حالك السواد شبيه بالظلمة الهندسية منظرًا. فبباضها يدعوك في الليلة الظلماء بضوئه وسوداها يبدو لك في الليلة المقمرة، فقال: إذا رأيتها فاعلمني أني صاحبك فتأتيني بالمال دون نداء. فدخل عبد للتاجر وهما يتفاوضان في ذلك فسمع قولهما، فأراد أن يصيب شيئاً من المال المختلس. فلما كان بعد ذلك وكان العبد صديقاً لأمة المصور طلب إليها أن تعيره الملاءة ليربها صاحباً له ويسرع إلى ردها. فأعطته الملاءة فلبسها ولقي المرأة على نحو ما كان يأتيها المصور. فلما رآته لم ترتب بشيء من شأنه فبذلت له حصّة من المال ثم رجع العبد بالملاءة إلى الأمة فوضعتها في موضعها. وكان المصور عن بيته غائباً. فلما مضت هدأة من الليل رجع المصور إلى بيته وليس الملاءة وأتى بها المرأة. فلما رأت الملاءة دنت منه فقالت: ما شأنك أسرع رجعت راجعاً وقد أخذت المال في أول الليل. فلما سمع المصور كلامها خبت نفسه وانصرف نحو منزله، ثم دعا جاريته فتوغدها بالضرب فأخبرته بالأمر على وجهه، فأحرق المصور الملاءة وندم على صنعه إياها.

وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أن الشبهة كذب وأن الكذب يعيب صاحبه. ولست أنت حقيقة بقتل البريء ذي الصبغة لوشي الوشاة وتحامل الخونة عليه. ولست أقول أيها الملك هذا كراهة للموت فإنه، وإن كان كريهاً، فلا منجى منه، وكل حي ميت. ولو كانت لي مائة نفس وأعلم أن رضا الملك في إتلافهن لطلبت له بهن نفساً. فإن ظننت أيها الملك أن لك بقتلي روحاً وفرجاً فإن العلماء قد قالوا: من اقترف خطيئة أو ذنباً فأسلم نفسه للقتل تكفيراً عن إثم عفا الله عنه ونجا من الشر في الآخرة. فإني وإن كنت أعلم أن الله قد باعد الملك من الجور والاعتداء وإهلاك النفس البريئة بوشي الأشرار وتحميل الفجار، فإني أحب أن لا يعجل بأمر دون الفحص والترويه.

فبينما دمنة يقول معذرتة إذ اعترض له أحد الحضور من بعض جلساء الملك فقال: أيها الملك إن دمنة ليس ما يقول تعظيماً لحق الملك ولا توفيراً لفضله، ولكنه يريد أن يدفع عن نفسه ما قد نزل به من سوء عمله.

قال دمنة: وهل، وليك، على امرئ في العذر لنفسه عيب؟ وهل أحد أقرب إلى الإنسان من نفسه؟ إذا لم يلمس لها العذر فمن يلمسه لها؟ وقد أحق بنصيحتي من نفسي، أو من أحق أن أنصح عنه منها؟ وقد قالت العلماء: إن المستهين لنفسه المبغض لها هو لغيرها أقطع وأبغض ولمن سواها أغش وأرفض. وقولك هذا مما يستدل به من حضر على قلة عقلك لما قلت ولجهالتك لما يدخل عليك فيه. ولقد ظهر منك ما لا تملكه من الحسد والبغضاء، وعرف من سمع قولك أنك لا تحب أحداً، وأنتك عدو نفسك فمن سواها. فمثلك لا يصلح أن يكون إلا مع البهائم فضلاً من أن تحضر مجلس الملك أو تكون ببابه.

فلما سمع المقول له هذه المقالة من دمنة سكّت فلم يحرج جواباً وخرج مستحيًا.

فقال أم الأسد لدمنة: إن من العجب انطلاقتك بالقول مجيباً لمن تكلم وقد كان منك ما كان.

قال دمنة: علام تنظرين بعين واحدة وتسمعين بأذن واحدة لشقاوة جدي؟ كذا كل شيء قد تنكر وتغير. فليس ينطق أحد بحق ولا يقوم به ولا يتكلم إلا بالهوى. ومن بباب الملك لتقتهم به وطمائنتهم إليه وتعطفه عليه لا يتقون أن يتكلموا بأهوائهم فيما رافق الحق أو خالفه وهو لا يغير عليهم ولا ينهائهم.

قالت أم الأسد: انظر إلى هذا الفاسق الفاجر الذي ركب الأمر العظيم كم يأخذ بأعين الناس ويبرئ نفسه.

قال دمنة: إن الفاسق الفاجر من يذيع ولم يدفنه، والرجل الذي يلبس لباس المرأة والمرأة التي تلبس لباس الرجل، والضيف الذي يزعم أنه رب البيت، ومن ينطق في مجتمع عند الملك بما لا يسأل عنه.

قالت أم الأسد: يا شقي، أما تعلم من نفسك سوء عملك ومكرك وفجورك.

قال لها دمنة: الشقي الذي يرتكب المنكر ولا يريد لأحد خيراً ولا يدفع عن نفسه المكروه.

قالت أم الأسد: أيها الخائن الفاجر، إنك لتجتري على مثل هذا القول. عجباً للملك أن يتركك حياً.

قال دمنة: إن الخائن الفاجر الذي يؤتى بالنصيحة ويمكّن من عدوه ثم لا يشكر ذلك ولا يعرفه لمن أتاه به، ولكن يريد قتله على غير ذنب.

قالت أم الأسد: لسمع موعظتك وضربك الأمثال لمن كلمك أعجب عندي من الذي سلف من خلابتك ومكرك وحسدك.

قال دمنة: هذا موضع العظة إن قبلت وموضع الأمثال إن نفعت.

قالت أم الأسد: أيها الغادر الفاجر إن في سوء عملك لشاغلاً لو عقلت من ضرب الأمثال.

قال دمنة: إنما الغادر من أخاف من عمل في أمنه وعادى من كشف له عداوة أعدائه.

قالت أم الأسد: كأنك ترجو أيها الكاذب أن تنجو بتسطير المقال مما اجترمت.

قال دمنة: إن الكاذب من كافي بالإحسان إساءة بالخير شراً وبالأمن خوفاً. وأما أنا فقد أنجزت ما وعدت ووفيت العهد.

قالت أم الأسد: ما وعد الذي أنجزت وعهدك الذي وفيت؟

قال دمنة: سيدي يعلم أنني لو كنت كاذباً لم أجتريء على الكلام عنده بالباطل وانتحال الكذب.

فلما رأت أم الأسد أن كلام دمنة لا يزيد الأسد إلا لدينا ارتابت وداخلها الخوف شفقاً على أن يرى بعض ما يقول دمنة في براءته وعذره فقالت للأسد: إن الصمت على حجج الخصم لشبيه بالإقرار بحقيقة ما يقول. ومن هنالك قالت العلماء: أقر صامت. ثم قامت وهي غضبانة تريد الخروج.

فأمر الأسد بدمنة فجعلت الجامعة في عنقه وحبس وأمر بالفحص عنه.

فقالت أم الأسد له: إنني لم أزل أسمع بمكر دمنة منذ زمان، ثم حقق عندي ما سمعت من إفكه وافتعاله المعاذير وكثرة مخارجه بغير صدق ولا براءة. فإنك إن أمكنته من الكلام دافعك عن نفسه بالحجج الكاذبة. وفي قتله لك ولجنودك راحة عظيمة، فاجل قتله. ولا تأخذك فيه هودة ولا توقفك عنه شبهة؛ فإن الصغير والكبير من جندك عرفوا بنميمة دمنة وعلموا بفضائحه خاصة في أمر البريء الناصح وخير الوزراء شترية. فقد استعاد الكذب وهو منه خلق راسخ وطبيعة لازمة. والراحة لك ولجندك ترك المناظرة والقتل له بذنبه.

قال الأسد: إن من شأن بطانة الملوك وقرابنتهم التنافس في المنازل بينهم ودخول البغي والحسد من بعضهم على بعض ولا سيما على ذي الرأي والنبالة منهم لخاصته. وقد علمت أن مكان دمنة قد ثقل على غير واحد من جنودي وأهلي، فلست أدري لعل الذي أرى وأسمع من جماعتهم وإجماعهم عليه لبعض ذلك. وأنا أكره العجلة في أمره. فإن العلق الصالح لا يستهلك إلا في حقه وموقع القدر فيه لمن استهلكه. ولا أجدني معذوراً باتباع نفسي والمعالجة له دون الفحص والثبات. ولكن كوني بخير واسلمي فإنني قد بدا لي من الرأي ما ينبغي.

فانصرفت أم الأسد بسكون جأشها وطيب نفسها وأخذ الأسد مضجعه.

ولما أدخل دمنة السجن وغلظ عليه الوثاق أخبر كليلة أن دمنة قد ردت إلى السجن فداخلته له رقة وأدركته فيه رحمة لطول الصحبة والمخالحة والإخاء الذي كان بينهما. فانطلق له مستصفاً حتى لقيه في السجن. فبكى كليلة لما نظر إليه وإلى ما هو فيه من الغم والضيق والبلاء، ثم قال له: إن ما أنت فيه لكافيك من عظمتي، ولكن لا يمنع ذلك إنذارك والنصيحة لك. فإن لكل مقال موضعاً. ولو كنت قصرت في عظمتك حين احتجت إلى ذلك مني في حال العاقبة لكنت اليوم شريكك في الذنب، ولكن الإعجاب بنفسك دخل بك مدخلاً قهر رأيك وغلب على عقلك. وقد كنت أضرب لك مثلاً قول العلماء: "إن المحتال يموت قبل أجله"، وليس قولهم "يموت قبل أجله"، انقطاع الحياة، ولكنهم أرادوا دخول الأشياء التي تفسد الحياة كنحو ما أنت فيه مما الموت أروح منه.

قال دمنة: لم تنزل منذ كنت تقول الحق بجهدك وقد كنت تعظني وتنصحنني ولكن شدة النفس والحرص على طلب المنزل فيلاً رأيي وسقها نصحك عندي، كالمريض المولع بالطعام الذي عرف أنه يغلط مرضه ويضر جسمه فيدع معرفته وينقاد لشهوته. وقد عرفت أنني زرعت لنفسي هذا البلاء، والزرع إنما ينبت لأوانه وزمانه وإن تقدم في زرعه. وهذا أوان حصاد ما زرعت لنفسي. وإنما يشتد عليّ البلاء لخوفي أن تنهم في أمري لما كان بيني وبينك، وأخاف مع ذلك أن بسطت عليك العقوبة أن تعترف بما كنت اطلعت عليه من أمري. وأما الأخرى فإنك ممن لا يتهم في صدق مقالته على البعيد فكيف على من منزلته مثل منزلتي.

قال كليلة: عرفت، وقالت العلماء إن الأجساد لا تصبر على حلول العذاب ولا تمتنع عنده من القول بكل ما تستطيع أن تدفعه. وإنني لأرى إذ نزلت بك هذه النازلة أن تبوء بذنبك وتعترف بإساءتك فتخرج نفسك من تبعة الآخرة بالتوبة مما صنعت، فإنك لا محالة هالك. فلا تجمع على نفسك هلاك العاجل والآجل. ولخير لك أن تعذب في الدنيا بجرمك من أن تعذب في جهنم مع الإثم.

فقال دمنة: صدقت ونصحت وأنا مفكر فيما ذكرت. ولكن العمل فيه شاق مهول وعقاب الأسد شديد أليم. فانصرف كليلة إلى منزله مغموماً تحدى نفسه بكل بلاء وشر. فلم يزل كذلك حتى هاج عليه بطنه فمات قبل أن يصبح. وكان في السجن فهد محبوبس كان نائماً قريباً من دمنة وكليلة حتى اجتمعا في السجن، فاستيقظ بكلامهما فسمع كل ما دار بينهما من معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله وإقرار دمنة بإثمه فحفظ ذلك وكنمه فلم يذكره.

فأصبحت أم الأسد فذكرت للأسد أمر دمنة وعذره وقالت: إن استيقا الفجار بمثابة قتل الأبرار، وإن من استبقى فاجراً شاركه في فجوره أو برّاً شاركه في برّه.

فلما سمع الأسد كلام أمه أمر القاضي والنمر بتعجيل النظر في أمر دمنة والمسألة عنه في عامة الناس، وأن يرفعوا إليه ما يلحق بدمنة من ذنب أو سبيل، وما ادعى دمنة من عذر ومخرج.

فخرج النمر والقاضي نظران في ذلك من أمره وبعثا إلى دمنة من يأتي به. فلما أتوا به توسط محفل مجلسهم فانصب قائماً فهجر النمر بصوته وقال: إنكم قد علمتم معشر الجند ما دخل على الملك من الحزن في قتل شترية شفقاً من أن يكون أحد أنهي إليه باطلاً في أمره وشبه عليه دمنة بالكذب في السعاية به. وقد نصبا للنظر في ذلك، وأنتم محقون ألا تكتموه سراً ولا تدخروه نصحاً ولا تخفوا عليه جرماً. فليقل كل امرئ منكم بما يعلم وليتكلم به على رؤوس الجمع والأشهاد، فإنه لا يجب أن تفرط بده بعقوبة أحد لهوى له أو لغيره من غير استحقاق المعاقب للعقوبة بجنايته.

قال القاضي: قد سمعتم الذي قيل لكم فلا ينبغي لأحد منكم كتمان شيء مما علم من خصال ثلاث: إحداهن الصدق فيما استشهدتم عليه وألا تجعلوا العظيم من الحق صغيراً. فأبي عظيم أعظم من ستر ذنب من أورد الأخبار واستزلهم وأهلك بعضهم ببعض بسعايته كذباً وميناً. فالكاتم عليه ليس بريئاً من ضرر جنايته ولا بعيداً من أن يكون شريكاً له في عمله. والثانية معاقبتنا المذنب مقمعة لأهل الريبة، مصلحة للملك والرعية. والثالثة أن الأشرار إذا نفوا من الأرض زاد ذلك الرعية تواصلاً والصالحين سروراً وأهل التناصح اغتباطاً. فليقل كل امرئ منكم ما علم لكيما يكون القضاء في ذلك على الحق لا على الهوى والظن.

فلما قصّ قائلهم قوله سكت من حضر فلم ينطق منهم أحد بكلمة لأنهم لم يعلموا من أمره علماً واضحاً يتكلمون به، وكرهوا القول بالظنون خوفاً من أن يدخل قولهم حكماً أن يوقع قتلاً. فلما رأى دمنة سكوتهم تكلم فقال: إنني

لو كنت مجرمًا لسررت بسكوكتكم عن القول في أمري إذ لم تعلموا لي جرمًا لأن كل من لم يعلم له جرمًا فلا سبيل عليه، فهو البريء المعذور. ولك قول عاقبة عاجلة أو آجلة. فمن عرّضني لعطب بغير علم أو قال في أمري بالشبهة والظن أصابه من عاقبة قوله ما أصاب المتطبب الذي انتجب علم ما لما علم له به.

قال القاضي: وكيف كان ذلك؟

### مثل المتطبب الكاذب

قال دمنة: زعموا أنه كان ببعض مدائن السند متطبب ذو وفق وعلم، كثير الحظوة فيما يجري على يديه من أسباب العافية فيما يعالج به الناس من طَبِّه وأدويته. فمات ذلك المتطبب وانتفع الناس بما في كتبه. وإن رجلاً سفيهاً ادعى علم الأدوية وأشاع ذلك في الناس. وكان لملك تلك المدينة ابنة لها داء ثقيل فبعث الملك يطلب الأطباء فذكر له متطبب على رأس فراسخ يوصف بعلم الطب فبعث إليه. فلما جاءه الرسول وجده قد ذهب بصره من الكبر، فذكروا له علة الجارية وما تجد، فوصف لها دواء له اسم معروف يقال له زمهران. فقالوا له: اخلط لنا هذا الدواء. قال: لست أبصر لأجمع أخلاطه على معرفتي. فأتاهم ذلك السفيه المدعي علم الطب فأعلمهم أنه عارف بذلك الدواء، عالم بالأخلاط والعقاقير، بصير بطبائع الأدوية المفردة والمركبة. فأمر الملك بإخراج كتب المتطبب الميت إليه وإدخاله الخزانة ليأخذ مما فيها من أخلاط الأدوية. فلما دخل وعرضت عليه أخلاط الأدوية وهو لا يدري ما هي ولا معرفة له بها، أخذ منها أشياء بغير علم ولا معرفة إلا على الظن والشبهة فوقع في سم قاتل، فأخذه وخلطه بأخلاطه تلك ثم سقى الجارية، فلم تلبث إلا ساعة حتى ماتت. فأخذه الملك فسقاه من دوائه الذي خلطه فمات لوقته.

قال دمنة: إنما ضربت لكم هذا المثل لتعرفوا ما يدخل على القاتل بالجهالة والعامل بالشبهة من الإثم. ثم تكلم سيد الخنازير صاحب مائدة الملك إتباعاً لهوى أم الأسد، فقال: إن أحق من لم يسأل عنه العامة ولم يشكل أمره على الخاصة لهذا الشقي الذي قد ظهرت فيه علامات الشر وسمات الفجور وقد عرف العلماء ما الحكم فيها.

قال رأس القضاة: وما تلك العلامات والسمات؟ فأطلعنا على ما ترى في صورة هذا الشقي. فجهر سيد الخنازير بصوته وقال: إن العلماء قد قالوا: إن من صغرت عينه اليسرى وهي لا تزال تختلج، ومال أنفه بعض الميل إلى شقه الأيمن وبعد ما بين حاجبيه، وكانت منابت شعر جسده ثلاث شعرات ثلاث شعرات، وإذا مشى كان أكثر نظره إلى الأرض ويلتفت تارة بعد تارة، فإن ذلك مستجمع للغدر وطباع الأثام والبغي على الصالحين. وهذه العلامات كلها في دمنة.

فلما قضى قوله أكثر دمنة التعجب من كلامه وقال: إن الأمور يحكم بعضها بعضاً وإن حكم الله صواب لا خطأ فيه ولا جور فيه ولا عدوان. ولو كانت هذه العلامات التي ذكرتها وأشباهاها يناب بها عن العدل والمعرف بالحق، لم يتكلف الناس الحجج ولم كان جزاء أهل الإحسان وجزاء أهل الفجور إلى على هذه العلامات. وهذا لم يوجب عليّ شيئاً لأن هذه العلامات تخلق مع صاحبها حين يخلق وتولد معه حين يولد. وإن كنت تزعم أن الخير والشر إنما يكونان بالعلامات فكذلك إذا لا حمد للمحسن ولا ذم على المسيء، ولا أجدني في هذا أيضاً إلا معذوراً، ولا أراك تنطق إلا بعذري وتذكر براءتي وأنت لا تدري ولا تفكر فيما تقول وإنما أنت في هذا كرجل قال لامرأته: أبصري عيبك يا سفيهة ثم عيبي غيرك.

فسئل دمنة كيف كان ذلك؟

### مثل الرجل والمرأتين

قال دمنة: زعموا أن مدينة كانت تدعى بورخشت دخلها الأعداء مرة فقتلوا ممن كان فيها عالماً وسبوا نساءهم واقتسموا السبي. فأصاب جندي من العدو رجلاً حراً مع امرأتين. فكان ذلك الرجل يعريهم من الكسوة ويصومهم عن المطعم والمشرب. فانطلق الحرات يوماً من الأيام مع الرجل والمرأتين ليحنتبوا فوجدت إحداها خرقة فاستترت بها فقالت الأخرى لبعلاها: ألا تنظر إلى هذه كيف تمشي بخرقتها. فقال زوجها: ويلك ألا تبصرين نفسك فتستري مثلها ثم تكلمي.

فأمرك أنت أعجب فيما قد عرفت من قذارة جسمك ونجاستك وجرأتك على ذلك من الدنو إلى طعام الملك والقيام عليه وبين يديه كالبريء من العيب والنقي من الدنس، ولست بالمطلع على عيبك دون أهل العقل من أهل

المجلس. ولم يمنعي من إبداء عيبك قبل اليوم إلا مودة كانت ما بيني وبينك. فأما إذ قد طعنت عليّ وابتدأتني بالظلم لما انطويت عليه من عداوتي وقذفتني على غير علم بالباطل بمحضر الجند، فإني قائل بما أعلم من عيبك مبدي الذي أخفيت من دنسك الذي لم يكن معه داع أن تخدم الملك ولا أن تخدم الذي تحته. فحقّ على من عرفك حق المعرفة أن يمنح الملك من استعمالك ويدفعه إلى عزلك عن طعامه.

فلما سمع سيد الخنازير ذلك من دمنة كفّ وتلجج لسانه واستحيا وكفّ جميع من حضر من الجمع عن القول في شيء من أمره.

وكان بين الحضور شعور قد جرّبه الأسد فوجد فيه أمانة وصدقاً فاتخذ في خدمته وأمره أن يحفظ جميع ما يجري بينهم وبطلعه عليه. فدخل على الأسد وأعلمه بحديثهم من أوّله إلى آخره دون أن يكتم عنه شيئاً. فلما سمع الأسد ذلك أمر بعزل سيد الخنازير عن عمله ومنعه من الدخول عليه ورؤية وجهه، ثم أمر بدمنة أن يردّ إلى السجن. وكتب ما جرى في محاكمته وختم عليه النمر.

وكان لكليلة في حاشية الأسد صديق يدعى روزبة بينه وبين كليلة إخاء ومودة. وكان عند الأسد وجبهاً وعليه كريماً، فانطلق إلى دمنة وأخبره بموت كليلة الذي قضى إشفافاً من أن يتلخّ بشيء من أمر أخيه وحذراً عليه. فبكى دمنة وحزن وقال: ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الرحيم والصديق الحميم. لقد صدق القائل إن الإنسان إذا ابتلي ببلية آتاه الشر من كل جانب واكتنفه الهم والحزن من كل مكان. ثم التفت إلى روزبة قائلاً: ولكن أحمد الله تعالى إذ لم يمت كليلة حتى أبقى لي أخاً مثلك. قد وثقت بنعمة الله وإحسانه إليه فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك إياي. وقد علمت أنك رجائي وركني فيما أنا فيه. فأريد من فضلك أن تتنطق إلى مكان كذا وكذا فتتظر ما جمعتنا أنا وأخي كليلة بحيلتنا وسعيينا ومشينة الله تعالى فانتنا به.

ففعل روزبة بما أمره دمنة وأتى بمال كثير وضعه بين يديه. فأعطاه دمنة أكثره وقال: إنك على الدخول والخروج على الأسد إذا شئت أقدر من غيرك فتفرّغ لشأني واصرف اهتمامك إليّ واسمع ما أذكر به عند الأسد إذا رفع إليه ما جرى بيني وبين الخصوم، وما يبدو من أم الأسد من حقي، وما ترى من موافقة الأسد لها ومخالفتها إياها في أمري، واحفظ ذلك كله وأعلمني به.

فأخذ روزبة ما أعطاه دمنة وانصرف إلى منزله.

فلما أصبح الأسد من الغد جلس حتى إذا مضى من النهار ساعات استأذن علي أصحابه فأذن لهم فدخل القاضي وطائفة من الوجوه ووضعوا بين يديه كتاب ما قال دمنة في معاذيره. فقبض الأسد ذلك الكتاب وأمرهم بالانصراف عنه.

ثم أرسل إلى أمه فقرأ عليها ذلك الكتاب فشوّ عليها ما سمعت ونادت بأعلى صوتها: إن أنا أغلظت لك أيها الملك فلا تغضب.

قال الأسد: لست أغضب فقولني ما أحببت.

قالت: ما أراك تعرف ما يضرّك مما ينفعك. وإنني لأحسب دمنة في طول تصريفك النظر في أمره سيهيّج عليك ما لا تقعد له ولا تقوم. ولهذا كنت أنهارك عن سماع كلام هذا المجرم المسيء لدينا قديماً الغادر بذمتنا. ثم قامت وخرجت وهي غضبانة.

فخرج روزبة في إثرها مسرعاً حتى أتى دمنة فأخبره بما قالت أم الأسد. فلما كان في الغد بعث القاضي إلى دمنة فأخبره وشاور عليه ثم قال: يا دمنة قد أنبأني بخبرك الأمين الصادق وليس ينبغي لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا لأن العلماء قالوا إن الله تعالى جعل الدنيا سبباً ومصادقاً للأخرة، ولأنها دار الرسل والأنبياء الدالين على الخير الهادين إلى الجنة الداعين إلى معرفة الله تعالى. وقد ثبت شأنك عندنا وأخبرنا عنك من وثقتنا بقوله. إلا أن سيدنا الأسد أمرنا بالعود إلى أمرك والفحص عن شأنك وإن كان عندنا بيناً.

قال دمنة: أراك أيها القاضي لم تتعوّد العدل في القضاء وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب لهم إلى قاض غير عادل، بل يأمرهم بمحاكمتهم والدود في حقوقهم. والعلماء لم يقولوا في حقي شيئاً.

فقال له القاضي: إنه وإن سكت جميع من حضرك ولم يقولوا شيئاً فإن ظنونهم قد اجتمعت على أنك مجرم ولا خير لك في الحياة بعد استقرار تهمة في قلوبهم، فلا أرى شيئاً خيراً لك من الإقرار بذنبك فتخرج لعنتك من تبعه الآخرة ويعود لك حسن قول في أمرك لخصلتين: إحداها قوتك على المخارج وافتعال المعاذير التي تدفع بها عن نفسك، والأخرى إقرارك بذنبك اختياراً للسلامة في الآخرة عن سلامة الدنيا. فإن العلماء قد قالت: إن الموت فيما يجمل خيرٌ من الحياة فيما يقبح.

فأجابه دمنة: إن القضاة لا تقضي بظنونها ولا بظنون العامة ولا الخاصة. وقد علمت أن الظن لا يغني عن الحق شيئاً. فإني وإن ظننتكم جميعاً أنني صاحب هذا الجرم فإني أعلم بنفسني منكم، وعلمي بنفسني يقين لا شك فيه. وإنما قبح أمرني في أنفسكم لأنكم ظننتكم أنني سعت بغير زوراً، فما عذري عندكم لو سعت بنفسني كاذباً عليها فأسلمتها لتقتل على معرفة ببراءتها؟ فهي أعظم الأفسس عليّ حرمة وأكرمها حقاً. ولو فعلت ذلك بأدناكم أو أقصاكم لم يسعني ذلك في ديني ولم يجمل بي في خلقي. فاكفف إذن عني هذه المقالة. فإن كانت هذه منك نصيحة فقد أخطأت موضعها، وإن كمانت منك خديعة فإن أقبح الخداع ما فطن له. وليس الخداع ولا المكر من أخلاق صالح القضاة. وإلا فاعلم أن قولك هذا حكم منك وسنة لأن كل أمر أمرت به القضاة يحكم بصوابه أهل الصواب ويتخذونه سنة ويصير خطأه عدلاً لأهل الأدغال. وإن من شقاء جدي أيضاً أنك لم تزل في أنفس الناس فاضلاً في رأيك وفي حكمك حتى أنسيت ذلك في أمري فتركت علم القضاة وانصرفت إلى العمل بالظنون التي تختلف بها الحالات في الأمور. أو ما بلغك عن العلماء أنهم قالوا: من ادعى علم ملا لا يعلم وشهد بالغيب أصابه ما أصاب البازيار القاذف عبد مولاه.

قال القاضي: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنه كان في بعض المدن رجل من المرازبة مذكور وكان له عبد صالح جعله وكيله يأتئنه على كل خزانته. وكان للرجل بازيار ماهر خبير بسياسة البزاة وعلاجها. وكان البازيار عند المرزبان بمكان جليل بحيث أدخله داره وأجلسه مع أهله. فاتفق أن البازيار حسد عبد الرجل وفكر له الشر ليطرده مولاه. فعمل الحيلة في بلوغ غرضه فضاقت عليه أبواب الحيل وتعدت عنه الأسباب. فخرج يوماً إلى الصيد على عادته، فأصاب فرخي ببغاء فأخذهما وجاء بهما إلى منزله ورباهما، فلما كبرا فرّق بينهما وجعلهما في قفصين وعلم أحدهما أن يقول: رأيت الوكيل يخلّس مال سيده خفية. وعلم الآخر أن يقول: هذا صحيح ثم أدبهما على ذلك مدة حتى حذقاه وأتقناه.

فلما بلغ منهما ما أراداه إلى أستاذه. فلما رآهما أعجبه ونطقا بين يديه فأطرباه. إلا أنه لم يعمل ما يقولان لأن البازيار كان علمهما ذلك بلغة العجم التي يجهلها المرزبان. وكان هذا مولعاً بالببغاءين يلهو بهما. وحظي البازيار عنده بذلك حظوة عظيمة وأمر امرأته بالمراعاة لهما والاحتياط عليهما والتعاهد لطعامهما وشربهما.

واتفق بعد مدة أن قدم على المرزبان قوم من أعظم أعاجم بلخ فتأنق لهم بالطعام والشراب وقدم لهم من اصناف الفواكه والتحف شيئاً كثيراً. ولما فرغوا من الأكل وشرعوا في الحديث أشار إلى البازيار أن يأتي بالببغاءين فأحضرهما. فلما صاحبا بين يديه وسمعهما الضيوف عرفوا ما يقولان ونظر بعضهم إلى بعض.

فسألهم الرجل عما قالتا فامتنعوا أولاً، فألح عليهم بالسؤال إلى أن أقرروا قائلين: إنما تقولان كذا وكذا بحق عبدك وكيل أموالك. فلما قالوا ذلك أمرهم المرزبان أن يكلموا الطيرين بغير ما نطقا به ففعلاً ذلك ولم يجدوهما تعرفان غير ما تكلمتا به، وبأن للرجل والجماعة براءة الوكيل مما رمي به وثبت كذب البازيار الذي علمهما ذلك فانتهره الوكيل: أيها العدو لنفسه أنت رأيتني أخلّس مال سيدي وأخفيه؟ قال: نعم أنا رأيته. فلما قال ذلك وثب باز عن يده إلى عينيه ففقاها. فقال العبد: بحق أصابك هذا، إنه لجزاء من الله تعالى لشهادتك بما لم تره عينك.

وإنما ضربت لك هذا المثل أيها القاضي لتزداد علماً بوخامة عاقبة الشهادة بالكذب في الدنيا والآخرة. فلما سمع القاضي والحضور احتجاج دمنة كتبوا ذلك كله ورفعوه إلى الأسد، فنظر فيه ودعا أمه فعرض ذلك عليها فكان من قولها أن قالت: لقد صار اتهامي بأن يحتال لك دمنة بمكره ودهائه حتى يتلك أن ينقض عليك أمرك أعظم من اهتمامي بما سلف من ذنبه إليك من الغش والسعاية بوزيرك وصفيك حتى قتلته بغير ذنب. فوقع قولهما في نفس الأسد فقال لها: أخبرني عن الإنسان الذي أنبأك بما سمع من كلام كليله ودمنة، فإن قتلته ذلك حجة على دمنة.

قالت: إنني أكره أن أفشي سراً استظهرت عليه بركوب ما نهت عنه العلماء من كشف الأسرار، ولكنني سأطلب إلى الذي ذكر لي ذلك أن يحلني من ذكره لك أو أن يفوه هو بما علم وما سمع.

ثم انصرفت فأرسلت إلى النمر فأتاها، فذكرت له فضل منزلته عند الأسد وما يحق عليه من تربيته وحسن معاونته على الحق وإخراج نفسه من الشهادة التي لا يكتمها مثله مع ما يحق عليه من نصرة المظلومين والمعاونة على تثبيت حجّتهم يوم القيامة. فلم تزل به حتى جاء فشهد على دمنة بما سمع من كلامه وكلام كليله.

ولما شهد النمر على دمنة بذلك، أرسل الفهد المسجون الذي سمع قول كليله لدمنة ليلة دخل عليه في السجن أن عندي شهادة فأخرجوني لها. فبعث إليه الأسد فشهد على دمنة بما سمع من قول كليله وتوبيخه إياه بدخوله بين الأسد والثور بالكذب والنميمة حتى قتله الأسد وإقرار دمنة بذلك.

قال له الأسد: فما منعك أن تكون أعلمتنا بشهادتك عن دمنة حين سمعت ذلك منه.

قال الفهد: منعني من ذلك أن شهادتي وحدي لم تكن توقع حكماً ولا تحجّ خصماً، فكرهت القول في غير منفعة.

فاجتمعت على دمنة شهادتان فأرسلهما الأسد إلى دمنة ثم بكته الشاهدان في وجهه بمقالته فأمر به الأسد فغلظ عليه الوثاق ثم ترك في السجن حتى مات جوعاً. فهذا ما صار إليه أمر دمنة وكذلك تكون عواقب البغي ومواقع أهل الحسد والكذب.

### باب الغراب والمطوقة والجرذ والسلحفاة والطبي

قال الملك لبيدبا: قد سمعت مثل المتحابين يقطع بينهما الخؤون المحتال. فاضرب لي مثل إخوان الصفا، وكيف يكون بدء تواصلهم واستماع بعضهم من بعض.

قال العالم العاقل: إنه لا يعدل بصالح الإخوان شيء من الأشياء لأن الإخوان هم الأعوان على الخير كله والمؤاسون عند الشدائد. ومن أمثال ذلك مثل الغراب والحمامة المطوقة والجرذ والسلحفاة والطبي.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض من الأرضين مكان كثير الصي يتصيد فيه الصيادون، وكان في ذلك المكان شجرة عظيمة كبيرة الغصون متلفة الورق، وكان فيها وكر غراب. فبينما الغراب ذات يوم على الشجرة إذ أبصر رجل من الصيادين قبيح المنظر، سيء الحال، على عاتقه شرك يحمله، وفي يده عصا، مقبلاً نحو الشجرة، فدعر منه الغراب وقال: لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان أمر فسانظر ماذا يصنع. فأقبل الصياد فنصب شركه ونثر حبه وكمن في مكان قريب، فلم يلبث إلا قليلاً حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة حمام كثير وهنّ معها. فأبصرت المطوقة وسربها الحبّ ولم يبصرن الشرك فوقعن فيه جميعاً. ثم أقبل الصياد إليهنّ مسرعاً فرحاً بهنّ. وانفردت كل حمامة منهنّ عن ناحيتها تعالج نفسها لتفرّ. فقالت لهنّ المطوقة: لا تتخاذلن في المعالجة، ولا تكونن نفس واحدة منكنّ أهم إليهما من نفس صاحبتهما، ولكن لنتعاون جميعاً لعلنا نقتلع الشرك فينجي بعضنا بعضاً. ففعلن ذلك واقتلعن الشرك، فطرن به في السماء وتبعهنّ الصياد، وظنّ أنهنّ لن يتجاوزن قريباً حتى يتقلهنّ الشرك فيقعن.

فقال الغراب: لأتبعهنّ حتى أنظر إلى ما يصير أمرهنّ وأمر الصياد. والتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهنّ، لم ينقطع رجاؤه منهنّ، فقالت لصواحبها، إنني أرى الصياد جاداً في طلبكنّ، فإن استقمتمنّ في الفضاء لن تخفينّ عليه. ولكن توجّهنّ إلى الخير والعمران، فإنه لن يلبث أن يخفى عنه منتهاكنّ فينصرف أنساً منكنّ. وأنا أعرف فيما بلينا به مكاناً قريباً من العمران والريف فيه جحر جرذ، وهو صديق لي، فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك وما عتقنا منه.

فتوجهنّ حيث قالت المطوقة، فخفينّ من الصياد، وانصرف أنساً منهنّ. ولم ينصرف الغراب بل أراد أن ينظر هل لهنّ حيلة يحتلنها للخروج من الشرك فيتعلمها، وتكون له عدة لأمر إن كان.

فلما انتهت المطوقة بهن إلى الجرذ أمرت الحمام بالوقوع فوقهن، ووجدن حول جحر الجرذ منة ثقب أعدها للمخاوف، وكان مجرباً للأمور داهية. فنادثه المطوقة باسمه، وكان اسمه أيزك، فأجابها الجرذ من جحره قائلاً: من أنت؟ قالت أنا خليلتك المطوقة. فأقبل إليها مسرعاً. فلما رآه في الشرك قال لها: ما أوقعك في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟

قالت المطوقة: ألم تعلم ما يفعل الجهل في عقل المرء؟ فإن الغباوة أوقعني في هذه الورطة، وهي التي رغبني في الحب وأعمت بصري عن الشرك حتى لججت في أنا وأصحابي. وليس أمري وقلة امتناعي من مصائب الدهر بعجيب، فقد لا ينجو منها من هو أقوى مني وأعظم شأنًا. قد تُكسف الشمس والقمر إذا قضى عليهما ذلك، وقد تصاد الحيتان في الغمر ويستنزل الطير الذي يحول دون الحازم وطلبته.

ثم إن الجرذ أخذ بقرض العقد التي كانت فيها المطوقة. فقالت له المطوقة: ابدأ بعقد صواحي ثم أقبل علي عقدي. فأعادت عليه القول مراراً، كل ذلك والجرذ لا يلتفت إلى قولها، ثم قال لها: قد كررت علي هذه المقالة كأنك ليست لك بنفسك رحمة ولا ترين لها حقاً.

فقالت المطوقة: لا تلمني على ما أمرتك به، فإنه لم يحلني على ذلك إلا أني تلكت الرئاسة على جماعة هؤلاء الحمام، فلذلك لهن علي حق، وقد أدّين إليّ حقي في الطاعة والنصيحة، وبطاعتهم ومعونتهم نجّانا الله من صاحب الشرك. وتخوّفت، إن أنت بدأت بقطع عقدي، أن تملّ وتكسل عند فراغك من ذلك عن بعض ما بقي من عقدهن. وعرفت أنك، إن بدأت بهن وكنت أنا الأخيرة، أنك لا ترضى، وإن أدركك الفتور والممل أن تدع معالجة قطع وثاقي عني.

قال الجرذ: وهذا مما يزيد أهل المودة لك والرغبة فيك رغبة ووداً.

ثم أخذ الجرذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها، وانطلقت المطوقة وحمامها إلى مكانهن راجعات آمناً.

فلما رأى الغراب صنيع الجرذ وتخليصه الحمام، رغب في مصادقة الجرذ وقال: ما أنا من مثل ما أصاب الحمام بأمن، ولا أنا عن الجرذ ومودته بغنى.

فدنا من جحر الجرذ، ثم ناداه باسمه فأجابه الجرذ: من أنت؟

قال: أنا غراب كان من أمري كيت وكيت، وإنني رأيت من أمرك وفائك لأخلائك الحمام ما رأيت، فتبين لي صفاء ودك وحسن صداقتك فرغبت في إخائك، وجئتك لذلك.

قال الجرذ: ليس بيني وبينك سبب تواصل، وإنما ينبغي للعاقل أن يطلب ما يجد إليه سبيلاً ويترك ما طلب ما لا يكون، لنألا يعد جاهلاً فيشبه رجلاً أراد أن يجري السفن في البرّ والعجل على الماء. وكيف يكون بيني وبينك تواصل وإنما أنا طعام لك؟

قال الغراب: اعتبر بعقلك أن أكلي إياك، وإن كنت لي طعاماً، لا يغني عني شيئاً، وأن بقاءك ومودتك أبسر لي وأمن ما بقيت. ولست حقيقاً إذ جئت أطلب مودتك أن ترجعني خائباً، فإنه قد زهر لي حسن خلقك، وإن كنت لا تلتمس ظهوراً. فإن ذا العقل لا يخفى فضله وإن هو أخفى ذلك جهده، كالمسك الذي يكتّم وختّم ثم لا يمنع ذلك ريحه من الفيوح، وعبيره من الانتشار. فلا تغلبن عليك خلقك، ولا تمنعني ودك وملاطفتك.

قال الجرذ: إن أشدّ العداوة عداوة الجوهر، وهما عداوتان: منها عداوة متحاذية متكافئة كعداوة الفيل والأسد، فإنه ربما قتل الأسد الفيل، وربما قتل الفيل الأسد. ومنها عداوة الجوهر يحصل ضرراً من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور وكعداوة ما بيني وبينك، فإن العداوة مني ليس بضر مني عليكما، ولكنها للضرر عليّ منكما. وليس لعداوة الجوهر من صلح، فإن الماء، وإن أسخن وأطيل إسخانه، فليس يمنعه ذلك من إطفاء النار إذا صبّ عليها. وإنما صاحب المصالح كصاحب الحية يحملها في كمّه. وليس يستأنس العاقل إلى العدو، ولا يسترسل إليه، وإن كان عاقلاً أربياً.

قال الغراب: قد فهمت ما تقول، وأن حقيق أن تأخذ بفضل خليقتك وتعرف صدق مقالتي ولا تصعب الأمر فيما بني وبينك بقولك: "ليس لنا إلى التواصل سبيل". فإن العقلاء الكرماء يبتغون إلى كل معروف وصلة وسبيلاً.



والمودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها. ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب الذي هو بطيء الانكسار، هين الإعادة والإصلاح إن أصابه كسر. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعهما، بطيء اتصالها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عيب، ثم لا وصل له أبداً. والكريم يود الكريم على لقاء واحد أو معرف يوم، واللئيم لا يصل أحداً إلا عن رهبة أو رغبة. وأنت كريم وأنا إلى ودك محتاج، وأنا لازم بابك وغير ذائق طعاما حتى تؤاخيني وتواصلني.

قال الجرذ: قد قبلت إخاءك. فإني لم أرد ذا حاجة قط عن حاجته، وإنما ابتدأتك بما ابتدأتك به للاعتذار عن نفسي. فإن أنت غدرت بي لا تقل: وجدت الجرذ ضعيف الرأي، سريع الانخداع.

ثم خرج من جحره، فقام عند الباب، فقال له الغراب: ما يحبسك عند باب الجحر؟ وما يمنعك من الخروج إلي والاستئناس بي؟ أفي نفسك ريبة بعد؟

قال الجرذ: إن أهل الدنيا يتعاطون بينهم أمرين، يتواصلون عليهما، وهما ذات النفس وذات اليد. فأما المتبادلون ذات النفس فهم الأصفياء المتخالصون. وأما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون والمستمتعون الذين يستمتع بعضهم بالانتفاع من بعض. ومن كان يصنع المعروف التماس الجزاء أو اكتساباً لبعض منافع الدنيا، فإنما مثله فيما يعطي ويمنع مثل الصياد وإلقائه الحب للطير لا يريد به نفعها، ولكن يريد نفع نفسه. فتعاطي ذات النفس أفضل من تعاطي ذات اليد. فإني قد وثقت بذات النفس ومنحتك مثل ذلك من نفسي. وليس يمنعني من الخروج إليك سوء ظن، ولكنني قد عرفت أن لك أصحاباً جوهرهم كجوهرك، وإنما رأيهم فيّ ليس كرايك، فأنا أخاف أن يراني بعضهم معك فيهلكني.

قال الغراب: إن من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً، ولعدو صديقه عدواً، وإنه ليس لي بصاحب ولا صديق من لم يكن له محبا. وإنما تهون عليّ قطيعة من كان كذلك، لأن زارع الريحان إذا نبت في ريحانه شيء من النبات الذي يضرّ به ويفسده اقتلعه واقتلع من ريحانه معه.

ثم إن الجرذ خرج إلى الغراب، فتصافحا وتعانقا وتصافيا، واستأنس كل واحد منهما بصاحبه، فأقاما على ذلك أياماً إلى ما شاء الله.

ومضت بينهما على ذلك مدة من الدهر، حتى قال الغراب يوماً للجرذ: إن جحرك قريب من طريق الناس، وأنا أخشى على نفسي من ذلك، وقد عرفت مكاناً ذات عزلة وخير وبركة، ولي فيه صديق من السلاحف، وهناك عين كثيرة السمك، وأنا واجد عندها ما أكل، وأريد أن أنطلق إليها فأعيش معها أماناً.

قال الجرذ: وأنا أحب أن أنطلق معك فإني لمكاني هذا كاره.

قال الغراب: وما تكره من مكانك؟

قال الجرذ: إن لي أخباراً وقصصاً سأقصها عليك لو انتهينا إلى المكان الذي تريد.

فأخذ الغراب بذنب الجرذ، فطار به حتى بلغ حيث أراد. فلما دنا من المكان الذي فيه السلحفاة، ورأت السلحفاة غراباً ومعه جرذ ذعرت منه، ولم تعلم أنه صاحبها، فغاصت في الماء، فوضع الغراب الجرذ، وقعد على شجرة فنادى السلحفاة باسمها، فعرفت صوته وخرجت إليه، ورحبت به وسألته من أين أقبل. فأخبرها الغراب بقصته وقصة الصياد حين تبع الحمام، وخلص المطوقة بواسطة الجرذ، وما كان من أمره بعد ذلك وأمر الجرذ حتى انتهينا إليها.

فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ تعجبت من عقله وفائه، ورحبت به وقالت: ما ساقك إلى هذه الأرض؟

فقال الغراب للجرذ: ارو لنا الأخبار والقصص التي زعمت أنك تحدثني بها فاقصصها الآن إذ سألتك السلحفاة عنها، فإن السلحفاة منك بمثل منزلتي.

**قصة الجرذ والناسك**

بدأ الجرذ في قصصه وقال: كان أول منزل نزلته في مدينة من المدن في بيت رجل من الناسك. ولم يكن للناسك عيال. وكان يُؤتى كل يوم بسلة من الطعام، فيأكل منها حاجته ثم يضع بقية الطعام فيها ويعلقها في البيت. فكننت أرصد الناسك حتى يخرج، فإذا خرج وثبت إلى السلة فلم أدع فيها طعاماً إلا أكلته، ورميت به على الجرذان. وجهد الناسك مراراً ليعلق تلك السلة معلقاً لا أناله فلم يقدر على ذلك. ثم إن ضيفاً نزل بالناسك ذات ليلة فتعشياً جميعاً، حتى إذا كان عهد الحديث قال الناسك للضيف: من أي أرض أنت وأين توجهك الآن؟ وكان الضيف رجلاً قد طاف الأرض، ورأى العجائب فأخذ يحدث الناسك بما وطئ من البلدان ورأى من الأمور. وجعل الناسك من خلال ذلك يصفق بيديه أحياناً لينفّرني عن السلة. فغضب الضيف وقال: أحذثك وتصقّق كأنك تهزأ بحديثي، فما حملك على أن تسألني؟ فاعتذر الناسك للضيف وقال: إني قد أنصت لحديثك، ولكني قد صققت لأنقر الجرذان عن سلة طعامي، ولقد تحيرت في أمرها. لست أضع في البيت طعاماً إلا أكلته.

قال الضيف: أجزد واحد هو أم أكثر؟

قال الناسك: بل جرذان كثيرة، وفيها جرذ واحد هو الذي غلبني فلا أستطيع له حيلة.

قال الضيف: ما هذا الأمر؟ إنه ليذكرني قول الرجل الذي قال لامرأته: لأمر ما باعت هذه المرأة السمسم مقشوراً بغير مقشور.

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

### مثل البائعة السمسم المقشور بغير المقشور

قال الضيف: نزلت مرة على رجل بمدينة كذا وكذا، فتعشياً ثم فرش لي وانقلب الرجل وزوجته إلى فراشهما، وبينهما خُصٌّ من قصب. فسمعت الرجل وامرأته في بعض الليل يتكلمان، فإذا الرجل يقول لامرأته: أريد أن أدعو غداً رهطاً ليأكلوا عندنا. فقالت امرأته: كيف تدعو الناس إلى طعامك وليس في يدك فضل عن عيالك، وأنت رجل لا تستبقي شيئاً ولا تدخره. قال الرجل: لا تندمي على شيء أنفقناه وأطعمناه، فإن الجمع والإتخار ربما كانت عاقبة صاحبه كعاقبة الذئب.

قالت المرأة: وكيف كان شأن الذئب؟

### مثل الذئب ووتر القوس

قال الرجل: خرج رجل من القناصين غادياً بقوصه ونشابه بيتغي الصيد والقنص، فلم يجاوز بعيداً حتى رمى طلياً فصرعه واحتمله، ورجع به إلى أهله. فعرض له في طريقه خنزير فحمل خنزير فحمل الخنزير على الرجل حين نظر إليه. فوضع الرجل الطلي وأخذ قوسه، فرمى الخنزير رمية نفذت من وسطه. وأدرك الخنزير الرجل فصره بنابه ضربة أطارت منه القوس والنشابة عن يده، ووقعا جميعاً ميتين. فأتى عليهما ذئب جائع، فلما رأى الرجل والطلي والخنزير وثق بالخصب في نفسه فقال: ينبغي أن أدخر ما استطعت، فأنا جاعل ما وجدت ذخراً وكنزاً، ومكتف يومى هذا بوتر القوس. ثم دنا من القوس ليأكل وترها. فلما قطع وتر اضطربت القوس وانقلبت فأصاب المقتل من حلقة فمات.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلمي أن الحرص على الجمع وخيم العاقبة.

قالت المرأة: نعم ما قلت، وعندنا من الأررز والسمسم ما فيه طعام لسته رهط أو سبعة، فأنا غادية على صنع الطعام، فادع من أحببت عند الغداء. فأصبحت المرأة وأخذت السمسم فقشرته ثم بسطته في الشمس ليحفف، وقالت لزوجها: اطرد عن هذا السمسم الطير والكلاب. وذهبت المرأة لبعض شأنها وصنعتها، فغفل الرجل، فذهب كلب إلى ذلك السمسم فجعل يأكل منه. فبصرت به المرأة فقدرته وكرهت أن تطعمه أحداً من زوارها، فانطلقت به إلى السوق فأبدلته بسمسم غير مقشور مثلاً بمثل. ففعلت ذلك وأنا في السوق أرى ما تصنع، فسمعت رجلاً يقول: لأمر ما أعطت هذه سمسماً مقشوراً بسمسم غير مقشور.

وكذلك قولِي في هذا الجرد الذي تذكر أنه يثب إلى السلة حيث وضعتها. فالأمر ما يقوى على ذلك دون أصحابه، فالتمس لي فأساً. فأتى بها الضيف وأنا حينئذ في حجر غير جحري أسمع كلامهما، وكان جحري في موضع فيه ألف دينار ولا أدري من وضعها، فكنت أفترشها وأفرح بها وأعز بمكانها كلما ذكرتُها. وإن الضيف احتقر جحري حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك: هذه كانت تقوى ذلك الجرد للوثوب حين كان يثب، لأن المال جعل زيادة للقوة والرأي، وسترى أن الجرد لن يعود بعد اليوم قادراً على ما كان يقدر عليه فيما مضى. فسمعتُ قول الضيف فعرفت في نفسي الانكسار، وتقاصر إعجابي بنفسي وانتقلت من جحري إلى حجر غيره، وأصبحت أعرف انحطاط منزلتي عند الجرذان وقلة توقيرهنّ إياي، بعد أن كلفنني ما عودتهنّ من الوثوب إلى السلة فعجزت عند ذلك، فزهدن فيّ وجعلن يقلن فيما بينهن: "هلك أخو الدهر ويوشك أن يحتاج إلى أن يعوله بعضكن"، فرفضتني بأجمعهن ولحقن بأعدائي وأخذن في عيبي وانتقاصي عند كل من ذكرنني عنده، فقلت في نفسي: ما التبع والإخوان والأهل والصديق والأعوان إلا تبعاً للمال. وما أرى المروءة يظهرها إلا المال. ولا الرأي ولا القوة إلا بالمال. ووجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به الفقر عما يريد، فانقطع عن بلوغ غايته كما ينقطع ماء أمطار الصيف في الأودية، فلا يصل إلى البحر ولا إلى نهر حتى تنتشفه الأرض.

ووجدت أن من لا مال له من الإخوان لا أهل له ولا ولد له، ولا ذكر له. بل يعتبر كمن لا عقل له عند الناس ولا دنيا ولا آخرة. وإذا أصابت الرجل الفقير الحاجة نبذه إخوانه، وهان على ذوي قرابته، فربما اضطرتّه المعيشة وما يحتاج إليه لنفسه وعياله إلى طلب ذلك بما يغرر فيه بدينه، فيهلك، فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة. فالفقر رأس كل بلاء وداع صاحبه إلى مقت الناس وهو مع ذلك مسلبة للعقل والمروءة، ومذهب للعلم والأدب، ومطية للتهمة، ومقطعة للحياء. ومن انقطع حياؤه ذهب سروره ومقت. ومن مقت أودى، ومن أودى حزن، ومن حزن فقد عقله واستنكر حفظه وفهمه. ومن أصيب في عقله وحفظه وفهمه كان أكثر قوله فيما يكون عليه لا له.

ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمناً وأساء به الظن من كان يظن به حسناً. وليس من خلة هي للغني مدح ولا هي للفقير عيب. فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان جواداً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسنّاً سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي غيباً..

فالموت أهون من الفاقة التي تضطر صاحبها إلى المسألة لا سيما مسألة الأشقاء اللؤماء. فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده فاه التين فيستخرج سمّاً ثم يبتلعه كان ينبغي أن يعدّ ذلك أخف عليه من مسألة اللئيم البخيل. وقد قيل إنه من ابتلي بمرض في جسده لا يفارقه أو يفراق الأحبة والإخوان أو بالغبية حيث لا يعرف مبيتاً ولا مقبلاً، ولا يرجو إياباً، أو بفاقة تضطرّه إلى المسألة، فالحياة له موت والموت له راحة. وربما كره الرجل المسألة وبه حاجة فحملته على السرقة والنهب والظلم. والسرقة والنهب والظلم شرّ من الفاقة التي راغ عنها. فإنه قد قيل: الخرس خير من اللسان بالكذب، والغبن خير من القهر والظلم، والفاقة خير من السعة والنعمة من أموال الناس.

ثم إنني كنت قد رأيت الضيف حين أخرج دنانيري قاسمها الناسك، وجعل الناسك نصيبه في خريطة يضعها بالليل عند رأسه، فطمعت أن أصيب منها دنانير فأردها إلى جحري، ورجوت أن أردّ إليّ بذلك بعض قوتي ويراجعني بعض أصدقائي. فانطلقت والناسك نائم حتى كبت رأسه ووجدت الضيف مستيقظاً، ومعه قضيب فضربني به على رأسي ضربة موجعة، فسعيت إلى جحري. فلما سكن عني الوجع قادني الحرص والشره وغلبانتي على عقلي فخرجت بمثل طمعي الأول حتى دنوت والضيف يرصدني، فعاد لي بالقضيب على رأسي ضربة أسالت منه الدماء وتقلب على ظهري وبطني حتى دخلت الجحر، فخرزت فيه مغشياً عليّ فأصابني من الوجع فوق ما أصابني على المال حتى إنني لا أسمع اليوم بذكر المال إلا يدخلني منه دعر.

ثم تذكرت فوجدت البلايا في الدنيا إنما يسوقها إلى أهلها الحرص والشره. فلا يزال صاحب الدنيا يتقلب في بليّة وتعب لأنه لا يزال يداخله الشره والحرص. ورأيت اختلاف السخاء والشحّ شديداً. ووجدت ركوب الأهوال وتجشّم الأسفار البعيدة في طلب المال أهون عليّ من بسط اليد إلى السخيّ بالمال، فكيف بالشحيح به، ولم أر كالرضا شيئاً. وسمعت العلماء قد قالوا: لا عقل كالتدبير ولا ورع كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صُبر عليه ما لم يكن إلى تغيّره سبيل. وكان يقال: أفضل البرّ الرحمة، ورأس المودة الاسترسال، ورأس العقل المعرفة بما يكون وملا لا يكون، وطيب النفس وحسن الانصراف عما لا سبيل له. فصار أمري إلى أن رضيت وقنعت وانتقلت من بيت الناسك إلى البرية.

وقال الجرذ صاحب الغراب للسلفهة: وكان لي صديق من الحمام قد سبقت إليّ صداقته قبل صداقة الغراب، ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه وأخبرني أنه يريد أن يأتيتك فأحببت أن آتيك معه، وكرهت الوحدة. فإنه ليس من سرور الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا فيها غمّ يعدل بعد الإخوان. وقد جرّبت فعلت أنه لا ينبغي للعقل أن يلتصق من الدنيا فوق الكفاف الذي يدفع به الحاجة والأذى عن نفسه. والذي يدفع ذلك عنه يسيراً، إنما هو المطعم والمأوى إذا أعين بصحة وسخاء منها إلا بالقليل الذي يدفع به الحاجة عن نفسه، فأما سوى ذلك ففي موضع لا يناله. فأقبلت مع الغراب على هذا الرأي وأنا لك أخ فكذاك فلتكن منزلتي في نفسك.

فلما فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلفهة بكلام رقيق لطيف وقالت: قد سمعت مقالتك يا حسن مقالة، إلا إنني رأيتك تذكر بقايا هي في نفسك من حيث قلة مالك وسوء حالك واغترابك عن مواطنك، فاطرح ذلك من قلبك، واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بالعمل. فإن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن هو لا يتداوى به لم يغيثه علمه، ولا يجد راحة ولا خفة. فاستعمل رأيك واعمل بعقلك، ولا تحزن لقلة المال، فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذي يهاب وإن كان رابضاً. والغني الذي لا مروءة له قد يهان وإن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وإن هو طوق وخلخل بالذهب. ولا تكثر في نفسك لغربتك، إن العاقل لا غربة عليه ولا يعترّب إلا ومعه ما يكفي به من عقله، كالأسد الذي لا يتقلب إلا ومعه قوته التي يعيش بها حيثما توجه. ولتحسن تعاونك لنفسك بما تكون به للخير أهلاً، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماء الحذور، وطير الماء الماء. وإنما جعل الفضل للبصير الحازم المتفقد. فأما الكسلان المتردد المدافع فإن الفضل قلما يصحبه.

ولا يحزنك أن تقول: كنت ذا مال فأصبحت معدماً. فإن المال وسائر متاع الدنيا سريع أقباله إذا أقبل، وشبك ذهابه إذا ذهب، كالكرة التي هي سريع ارتفاعها وسريع وقوعها. وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمام، وخلة الأشرار، وعشق النساء، والثناء الكاذب والمال الكثير. وليس يفرح العاقل كثرة المال، ولا يحزنه قلته، لكن ماله عقله وما قدّم من صالح عمله، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمل. وهو حقيق أن لا يغفل عن أمر آخرته والتزود لها، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة وليس بينه وبين أحد وقت معلوم. وأنت عن موعظتي غني بما عندك من العلم، بصير بالأمر، ولكن رأيت أن أقضي من حقك وأنت أخونا وما قبلنا بمذول لك.

فلما سمع الغراب ردود السلفهة على الجرذ وإطافها إياه، وحسن مقالتها له سرّه ذلك وفرح به وقال: لقد سررتني وأنعمت، وأنت جديرة أن تسرّي نفسك بما سررتني به، فإن أولى أهل الدنيا بشدة السرور وكرم العيش وحسن الثناء من لا يزال ربه موطوءاً من إخوانه واصدقائه الصالحين، ولا يزال عنده منهم زحام يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء حاجتهم وأمورهم. فإن الكريم إذا عثر لا يقل عثرته إلا الكريم، كالفيل إذا وحل لم يستخرجه إلا الفيلة. ولا يرى العاقل معروفاً صنعه وإن كثر كثيراً وإن خاطر بنفسه أو عرضها في بعض وجوه المعروف لم ير ذلك عيباً، بل يعمل أنما أخطر الفاني بالباقي واشترى العظيم بالصغير. وأغبط الناس أكثرهم مستجيراً أو سائلاً منجهاً، ولا يعد غنياً من لا يشارك في ماله.

فبينما الغراب في كلامه إذ أقبل نحوهم ظبي يسعى ففرع منه الغراب والجرذ والسلفهة، فوثبت السلفهة في الماء ودخل الجرذ في الجحر وطار الغراب فوق على شجرة. وانتهى الظبي إلى الماء فشرب منه قليلاً ثم قام مذعوراً ينظر. فحلّق الغراب في السماء ينظر هل يرى للظبي طالباً فنظر في كل ناحية فلم ير شيئاً، فنادى السلفهة لتخرج من الماء، وقال للجرذ: اخرج فإنه ليس هاهنا شيء تخافه. فاجتمع الغراب والجرذ والسلفهة في مكانهن، فقالت السلفهة للظبي حين رآته ينظر إلى الماء ولا يشرب: اشرب إن كان بك عطش ولا تخف فلا خوف عليك. فدنا الظبي منهم ورحبّ به السلفهة وحيتّه وقالت له: من أين أقبلت؟ قال: كنت أرى في هذه الصحارى ولم تزل الأساورة تطردني من مكان إلى مكان. ورأيت اليوم شيخاً فخفت أن يكون قانصاً فهربت منه.

قالت السلفهة: لا تخف فإننا لم نر القناص هاهنا قط، ونحن نبذل لك مودتنا ومكاننا، والمرعى منا قريب. فرغب الظبي في صحبتهم وأقام معهم. وكان لهن عريش من الشجر فكنّ يأتينه كل يوم ويجتمعن فيه ويلهون بالحديث ويتذاكرنه. ثم إن الغراب والجرذ والسلفهة وافين العريش ذات يوم لحينهن وغاب الظبي فتوقعنه ساعة، فلما أبطأ عليهن أشفقن أن يكون أصابه عدو فقلن للغراب: طر فانظر هل ترى الظبي في شيء مما نحذره. فحلّق الغراب فنظر فإذا هو بالظبي في حبال القناص، فأجلّ مسرعاً حتى أخبر الجرذ والسلفهة.

فقال السلفاء والغراب والجرذ: هذا الأمر لا يرجى فيه غيرك فأعنت أخانا. فسعى الجرذ سريعاً حتى انتهى إلى الطبي فقال: كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس؟

قال الطبي: وهل يغنى الكيس مع كوارث الدهر وأحواله التي لا ترى ولا تستدرك؟

فبينما هما على محاورتهما إذ وافتهما السلفاء فقال لها الطبي: ما أصبت بمجيئك إلينا. فإن القانص إذا هو انتهى وقد فرغ الجرذ من قطع حباله سبقتة حضراً، وللجرذ جحره والغراب يطير وأنت بطينة السعي فأخاف عليك القانص.

قالت السلفاء: إنه لا يعد من العيش ما كان بعد فراق الأحبة. وأما المعونة على تسليّة الهم وسكون النفس عند البلاء فببقاء الأخ وبيت كل واحد منهما شكواه إلى صاحبه. وإذا فرق بين الأليف والفه فقد سلب فؤاده وحرّم سروره وأغشي على بصره.

فلم تفرغ السلفاء من كلامها حتى طلع القانص ووافق ذلك فراغ الجرذ من الحبال فنجا الطبي وطار الغراب ودخل الجرذ جحره. فلما جاء القانص إلى حباله فرأها قد قطعت عجب وجعل ينظر فيما حوله فلم ير شيئاً غير السلفاء فأخذها وأوثقها بالحبال.

ولم يلبث الطبي والغراب والجرذ أن اجتمعن فنظرن إلى القانص وقد أخذ السلفاء وهو يربطها بالحبال، فاشتد حزنهن لذلك وقال الجرذ: ما ترانا نجاوز عقبة من البلاء إلا صرنا في أخرى أصعب منها! لقد صدق الذي قال: " لا يزال الرجل في إقباله ما لم يعثر، فإذا عثر مرة في أرض خبار لجّ به العثار وإن مشى في جدد". وما كان جدي الذي فرق بين وبين أهلي ومالي ووطني وبلادي ليرضيني حتى يفرّق بيني وبين كل ما كنت أعيش به من صحبة السلفاء، خير الأصدقاء التي ليست خلتها للمجازاة ولا التماس المكافأة، لكن خلتها خلة الكرم والوفاء. خلة هي أفضل من مودة الوالد لولده. خلة لا يزيلها إلا الموت. ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذي لا يزال في تصرف وتقلب لا يدوم له شيء ولا يثبت معه، كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوعه ولا لأفله أفوله، لكنهما في تقلب لا يزال الطالع يكون أفلاً والأقل طالعاً والمشرق غارباً والغارب مشرقاً. وهذا الحزن يذكرني أحزاني كالجرح المندمل تصيبه الضربة فيجتمع على صاحبه ألman: ألم الضربة وألم انتكاس الجرح. كذلك من حقّت كلمه بقاء إخوانه ثم فقدهم.

فقال الغراب والطبي للجرذ: إن حزننا وحزنك وكلامك وإن كان بليغاً، لا يغني السلفاء شيئاً. فدع هذا وأقبل على التماس النجاة للسلفاء، فإن قد كان يقال إنما يختبر ذوو البأس عند البلاء، وذو الأمانة عند الأخذ والإعطاء، والأهل والولد عند الفاقة، والإخوان عند النوائب.

قال الجرذ: أرى من الحيلة أن تذهب أنت أيها الطبي حتى تكون بصدد من طريق القانص فتربص كأنك جريح مثبت ويقع عليك الغراب كأنه يأكل منك. وارقب القانص فكن منه قريباً. وإنني لأرجو أنه لو نظر إليك يضع ما معه من قوسه ونشابيه والسلفاء ويسعى إليك. فإذا دنا إليك فتتقر عنه متضالعاً حتى لا ينقطع طمعه منك، وأمكنه مراراً حتى يذنو منك، ثم مدّ به على هذا النحو ما استطعت. فإني أرجو أن لا ينصرف القانص إلا وقد فرغت من قطع الحبل الذي السلفاء مربوطة به فتتحول السلفاء ونرجع إلى مكاننا.

ففعل الطبي والغراب ذلك، وتعاونوا واتعبا القانص طويلاً ثم انصرف وقد قطع الجرذ حبال السلفاء فنجوا معاً. فلما جاء القانص وجد الحبل مقطوعاً وفكر في أمر الطبي المتضالع والغراب كأنه يأكل من الطبي وليس يأكل، وتقريض الجرذ لحباله قبل ذلك فاستوحش وقال: ما هذه الأرض إلا أرض سحرة أو أرض جن. فرجع لا يلتمس شيئاً وينظر إليه. فانطلق الغراب والطبي والسلفاء والجرذ إلى عريشهن آمناً مطمئناً.

فهذا مثل تعاون الإخوان.

## باب اليوم والغريان

قال دبشليم الملك لبديبا الفيلسوف. قد ضربت لي مثل إخوان الصفا المتعاونين المتحابين، فاضرب لي، إن رأيت، مثل العدو الذي ينبغي أن لا يغترّ به وإن أظهر حسن الصفح تضرعاً وملقاً في العلانية.

قال الفيلسوف: من اغترّ بالعدو الأريب المعروف بالعداوة أصابه من ذلك ما أصاب الغربان.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: إنه كان بأرض في جبل من الجبال شجرة عظيمة كأعظم ما تكون من الدوح، ذات أغصان ملتفة. وكان فيها وكرٌ لألف غراب عليهم ملك منهم. وكان في ذلك الجبل أيضاً مكان فيه ألف بومة عليهن أيضاً ملك منهن. فخرج الملك اليوم ليلة لبعض أموره وفي نفسه عداوة لم تزل بين اليوم والغربان. فأغار على الغربان بمن معه من اليوم فقتل منهم كثيراً وجرح منهم كثيراً. فلما أصبح ملك الغربان جمع ذويه فقال لهم: قد رأيتم ما لقينا من اليوم وكم أصبح فيكم من قتل وجريح ومتوف الرأس والجناح والذنب. وأشد من ذلك كله في نفس ضراوتهن ثم علمن بمكانكم وجراتهن عليكم مثل الذي دقتم وهنّ غير غافلات عنكم فانظروا في أمركم في مهل.

وكان فيهم خمسة غرابان معترف لهم بفضيلة الرأي، كان الغربان يسندون إليهم أمورهم ويفزعون إليهم فيما نزل بهم، وكان الملك يشاورهم في أموره ويأخذ برأيهم. فقال الملك لأحدهم: ما رأيك في هذا الأمر؟

قال الغراب: هذا رأي سبقتنا إليه العلماء فقالوا: ليس لعدو الحنق الذي لا يطاق له حيلة إلا الهرب منه.

قال الملك للثاني: ما رأيك أنت في هذا الأمر؟ قال: أما ما أشار به هذا من الفرار فلا أراه م الصواب. فكيف نجلو عن بلادنا وعن أوطاننا ونذلّ لعدونا عند أول نكبة أصابتنا، ولكننا نجمع أمرنا ونستعدّ لمجاهدة عدونا ونذكي العيون فيما بيننا وبينه ونحترس من العودة والغرة، فإن أقبل إلينا عدونا لقيناهم مستعدين لقتالهم فقاتلناهم مزاحفة حتى تلقى أطرافنا أطرافهم، وتحرز منهم تحرزاً حصيناً وندافع عدونا بالأناة مرة وبالجهد أخرى حتى نصيب فرصتنا أو يعيينا ذلك فنهرب وقد مهّدنا لنا عذراً.

قال الملك للثالث: وأنت ما رأيك؟ قال: ما أرى ما قال، ولكني أريد أن تذكي العيون والطرائع بيننا وبين عدونا فنتجسس ونعلم هل يريد عدونا صلحاً أو يقبل منا دية. فإن رأينا من ذلك أمراً موافقاً لم أكره أن نصالحهم على خراج نؤديه إليهم، فندع عن أنفسنا بأسهم ونطمئن في وطننا. فإنّ من الرأي للملك إذا اشتدت شوكة عدوهم وخافوا على أنفسهم الهلكة والفساد على بلادهم والدمار على رعيّتهم أن يجعلوا الأموال جنة للملوك والبلاد والرعية.

قال الملك للرابع: فما رأيك في هذا الصلح؟ قال: لا أراه رأياً بل ترك أوطاننا والاصطبار على الغربة وشدة المعيشة خير من وضع أحسابنا والخضوع للعدو الذي نحن أشرف منه وأكرم. مع أنني قد عرفت أن لو قد عرضنا ذلك عليهم لم يرضوا فيه إلا بالشطط. وقد كان يقال: قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقارب كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك ويضعف جنك ويدخل نفسك. ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة في الشمس إذا أملت قليلاً زاد ظلها وإن جاوزت الحد في إمالتها نقص الظل. وليس عدونا براص منا بالدون من المقاربة. فالرأي لنا المحاربة والصبر.

قال للخامس: ما ترى، ألقّال أو الصلح أو الجلاء؟ فقال: أما القتال فلا سبيل إلا قتال من ليس المرء بقرن له لأن من يعرف نفسه وعدوّه فقاتل من ليس هو قرن له فنفسه أجهد مع أن العاقل لا يستضعف عدوّاً. ومن فعل ذلك اغترّ، ومن اغترّ لم يسلم وإن لبو شديداً الهيبة، ولو أضربت عن قتالنا وكنت أهابها قبل إيقاعها بنا. فإن الحازم لا يأمن عدوه على كل حال. فإن كان بعيداً لم يأمن معاودته، وإن كان قريباً لم يأمن مواثبته، وإن كان كثيراً لم يأمن استطراده وكربه، وإن كان وحيداً لم يأمن مكره. وأكيس الأقوام من لم يلتبس الأمر بالقتال إذا وجد غير القتال سبيلاً. فإن النفقة في القتال إنما هي من الأنفس. وسائر الأشياء إنما النفقة فيها من المال. فلا يكون قتال اليوم من رأيك. فإن من يرى القتل لا يرى كل الخير.

قال الملك: إذا كرهت القتال ماذا ترى؟ قال: تؤامر وتشاور. فإن الملك الموامر المشاور يصيب في مؤامراته نصحاً من ذوي العقول فيظفر بما لا يصيبه بالجنود والزحف وكثرة العدد. والملك الحازم يزداد في المؤامرة والتشاور ورأي الوزراء والحزمة، كما يزداد البحر بالسواقد من الأنهار. ولا يخفى على الحازم قدر أمره وأمر عدوّه وفرصة قتاله ومواضع رأيه ومكايدته، ولا ينفك يعرض الأمور على نفسه أمراً أمراً يتروى في التقدم على ما يريد منه الأعوان الذين يستعين بهم عليها والعدة التي بعدها لهم. فمن لم يكن له رأي كذلك ولا نصيحة من الوزراء العقلاء الذي يقبل منهم، لا يلبث، وإن ساقته إليه الأحوال حظاً، أن يضع أمره. فإن الفضل المقسوم لم يقيض للجّهال ولا للحسب، ولكنه وكل بالعاقل المستمع من ذوي العقلاء.

وأنت أيها الملك كذلك وقد استشنتني في أمور أريد أن أجيبك في بعضها سراً وفي بعضها علانية. فأما ما لا أكره أن أعلنه فكما أنني لا أرى القتال كذلك لا أرى الخضوع بالخراج والرضا بدل القهر. فإن العاقل الكريم يختار الموت صابراً محافظاً على الحياة عرياناً ذليلاً. وأرى ألا يؤخر النظر في أمرنا ولا يكون من شأنك التنبط والتهاون، فإن التنبط والتهاون رأس المعجزة. فأما ما أريد إسراره فليكن سراً. فإنه قد كان يقال "إنما يصيب الملوك الظفر بالحزم، والحزم بأصالة الرأي، والرأي بتحسين الأسرار أو الرسل المستمعين للكلام أو من قبل الناظرين في أثر الرأي أو مواقع العمل أو من التشبيه والتطنن. ومن حصن سره فله من تحصينه إياه أمران: إما ظفر بما يريد وإما أن يسلم من ضره وعيبه إن أخطأ".

ولا بد لصاحب السر من مستشار مأمون يفضي إليه بسرّه ويعاونه على الرأي. فإن المستشار وإن كان أفضل من المستشار رأياً فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النار بالودك ضوءاً. وعلى المستشار موافقة المستشار على صواب ما يرى والرفق في تبصيره خطأ إن أتى به وتقليب الرأي فيما يشكل حتى يتفق شأنهما. فإذا لم يكن المستشار كذلك فهو على المستشار مع عدوه، كالرجل الذي يرقى الشيطان ليرسله على الإنسان، فإذا لم يحكم الرقية أضحى هو أسيراً للشيطان. وإذا كان الملك محصناً للأسرار متحيزاً للوزراء مهيباً في أنفاس العامة بعيداً من أن يعلم ما في نفسه لا يضيع عنده حسن بلا مثلى. وإن كان ذا حزم مقتدراً لم يقتر فيما ينفق ولم يسرف، كان خليفاً أن لا يسلب صالح ما أوتي. وللأشهر منازل. فمن الشر ما يدخل في الرهط، ومنه ما يدخل فيه الرجال، ومنه ما يستعان فيه بالقوم. ولا أرى لهذا السرّ في قدر منزلته ألا يشترك فيه أربع أذان ولسانان.

فنهض الملك وخلا به واستشاره فكان فيما سأل عنه أن قال: هل تعلم ما كان بدء عداوة ما بيننا وبين اليوم، قال: نعم، كلمة تكلم بها غراب.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

### أصل العداوة بين الغراب والبوم

قال الغراب: زعموا أن جماعة من الطير لم يكن لها ملك وأنها اجتمعت على بوميّ لتملكه. فبينما في مجمعها إذ رفع لها غراب فقال بعضهم: انتظرن هذا الغراب فنستشيره في أمرنا. فأتاهن الغراب فاستشرنه، فقال الغراب: لو أن الطير بادت وفقد الطاووس والكركي والبوط والحمام لما اضطرتن إلى تملكك البوم، أقبح الطير منظراً، وأسوأها مخبراً، وأقلها عقولاً، وأشدّها غضباً، وأبعدها رحمة، مع ما بها من الزمانة والعشاء بالنهار. ومن شرّ أمورها سفهها وسوء خلقها إلا أن تملكها وأنتن المديرات للأمور دونها برأيكن وعقولكن. فإذا كان الملك جاهلاً صالحين نفذ أمره وتم رأيه واستقام علمه ودامت مملكته كما فعلت الأرنب التي زعمت أن القمر ملكها وعملت برأيه كأنها مرسله منه.

قالت الطير: وكيف كان ذلك؟

### مثل ملك الفيلة ورسول الأرنب

قال الغراب: زعموا أن أرضاً من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون فأجدبت وقلّ ماؤها وغارت عيونها فأصابته الفيلة عطش شديد فشكوا ذلك إلى ملكهم. فأرسل ملك الفيلة رسله وروّده في التماس الماء في كل ناحية. فرجع إليه بعض رسله فأخبروه أنهم وجدوا بمكان كذا وكذا عيناً تدعى القمرية كثيرة الماء. فتوجّه ملك الفيلة بفيلته إلى تلك العين ليشربوا منها وكانت الأرض أرض أرنب، فوطئت الفيلة الأرنب في أجارها ومجاثمها، فاجتمعت الأرنب إلى ملكهن فقلن: قد علمت ما أصابنا من الفيلة فاحتل لنا قبل رجوعهم، فإنهم إذا رجعوا لوردهم أهلكونا.

قال الملك: ليحضرن كل ذي رأي منكن رأيه. فتقدم خزرٌ منها يدعى فيروز كان الملك قد عرفه بالأدب والرأي، فقال: إن رأى الملك أن يبعثني إلى الفيلة ويبيعني معي أميناً يرى ويسمع ما أقول وأصنع ليخبر به الملك فليفع.

قال ملك الأرنب: أنت أميني ونحن نرضى بك وبرأيك ونصدّق قولك فانطلق إلى الفيلة وبلغ عني ما أحببت واعمل برأيك، واعلم أن الرسول به وبرأيه يعتبر عقل المرسل وكثير من شأنه. وعليك باللين والمؤاتاة فإن الرسول هو الذي يلين القلب إذا رفق ويخشن الصدر إذا خرق.

فانطلق الخرز في ليلة فيها القمر طالع حتى انتهى إلى الفيلة، وكره أن يدنو منهن فيطأنه وإن هنّ لم يردن ذلك. فأشرف على تلّ فنادى: يا ملك الفيلة إنه أرسلني إليك القمر والرسول مبلغ غير ملوم وإن أغلظ.

قال ملك الفيلة: وما الرسالة؟

قال فيروز: يقول القمر إنه من عرف فضل قوته على الضعفاء فاغترّ لذلك بالأقوياء كانت قوته خبالاً له. وقد عرفت فضل قوتك على الدواب فغرتك ذلك مني فعمدت إلى عيني التي تسمى باسمي فشربت ماءها وقدرتها وكدرتها بفيلتك. وإنني أتقدم إليك وأنذكرك أن تعود فأغشي بصرك واتلف نفسك. وإن كنت في شك من رسالتي فهلمّ إلى العين من ساعتك فإني موافيك فيها.

فعجب ملك الفيلة في قول فيروز، فانطلق إلى العين معه فنظر إليها فرأى ضوء القمر فقال له فيروز: هذا بحرطومك من الماء فاغسل وجهك واسجد للقمر. فأدخل الفيل خرطوميه في الماء فتحرك، فخيّل إليه أن القمر ارتعد فقال: ما شأن القمر ارتعد؟ أترأه غضب عليّ لإدخال خرطومي في الماء؟ فقال فيروز: نعم فاسجد له ثانية. فسجد الفيل للقمر مرة أخرى وتاب إليه مما صنع به، وشرط له ألا يعود إلى تلك العين هو ولا شيء من فيلته.

قال الغراب: ومع ما ذكرت من أمر اليوم أن من شأنها الخبّ والمكر والخديعة. وشرّ الملوك المخادع ومن ابتلي بسلطان المخادعين وحكمهم أصابه ما أصاب الصفرد والأرنب اللذين حكما السنور الصوام؟

### مثل الصفرد والأرنب والسنور الصوام

قال الغراب: كان لي جار من الصفارد في سفح جبل، وجحره قريب من الشجرة التي فيها وكري، فكان يكثر التقاونا ومواصلتنا على جوارنا. ثم فقدته فلم أدر أين غاب، وطالت غيبته حتى ظننت أنه قد هلك. فجاءت أرنب إلى مكان الصفرد ولبثت في ذلك المكان زماناً. ثم إن الصفرد رجع إلى مكانه، فلما وجد الأرنب فيه قال: هذا مكان فانطلقني عنه.

قالت الأرنب: المسكن في يدي، وأنت المدعي، فإن كان لك حق فاستعد عليّ.

قال الصفرد: المكان مكاني، ولي على ذلك البيّنة.

قالت الأرنب: نحتج إلى القاضي.

قال الصفرد: إن قريباً منا على شاطئ البحر سنورا متعبداً يصلي النهار كله لا يؤذي دابة ولا يريق دماً، ويصوم الدهر لا يفطر، عيشه من العشب وورق الأشجار، فاذهبي الليلة إليه أحاكمك.

قالت الأرنب: نعم. فانطلقا جميعاً وتبعتهما لأنظر إلى الصوام العابد الزاهد وإلى قضائه بينهما، فلما صارا إلى السنوا قصاً عليه قصتهما.

فقال السنور: أدركني الكبر وضعف البصر، وثقلت أذناي فما أكاد أن أسمع فادنوا مني فأسمعاني قريباً. فأعادا القصة فقال: "قد فهمت ما قصصتما وأنا بادنكما بالنصيحة قبل القضية، فأمركما ألا تطلبنا إلا الحق. فإن طالب الحق هو الذي يفلح وإن قضي عليه، وطالب الباطل مخصوم. وليس لصاحب الدنيا من دنياه شيء من مال ولا صديق إلا عمل صالح قدّمه. فذو العقل حقيق ويمقت ما سوى ذلك. ومنزلة المال عند العاقل منزلة المدر. ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره لهم من الشر منزلة نفسه". فلم يزل يقص عليهما ويستأنسان فيدنوان منه حتى وثب عليهما فضمّهما إليه فقتلهما جميعاً.

قال الغراب: فالיום يجتمع مع سائر ما وصفت لكم المكر والخديعة فلا يكوننّ تملكك اليوم من رأيكن. فلما سمع الطير خطبة الغراب أضربن عن رأيهن ولم يملكن اليوم.



وكان هناك بومة حاضرة سمعت كلام الغراب فقالت له: لقد وترتني أعظم الثرة، فما أدري هل كان سلف مني إليك سوءٌ استحققت به هذا منك؟ وإلا فاعلم أن الفؤوس يقطع بها الشجر فتتبت وتعود، والسيف يقطع به اللحم والعظم فيندمل ويلتئم، واللسان لا يندمل جرحه، والنصل من النشابية يغيب في الجوف ثم ينزع، وأشباه الأنصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تنزع ولم تستخرج. ولك حريق مطفي، فلنر الماء، وللسم الدواء، وللعشق القرب، وللحزن الصبر، ونار الحق لا تخبو. وإنكم معاشر الغربان قد غرستم بيننا أبداً شجرة الحقد والبغضاء.

فقضت اليوم مقالتها هذه وولت مغضبة وانصرفت متوترة، وندم الغراب على ما فرط منه، وقال في نفسه: "لقد خرقت فيما كان من قولي الذي جلبت به العداوة على نفسي وعلى قومي، ولم أكن أحقَّ الطير بهذه المقالة ولا أعابها بأمر ملكها. ولعلَّ كثيراً قد راوى الذي قد رأيت وعلّموا الذي قد علمت فمنعهم من الكلام فيه اتقاء ما لم أتق والنظر فيما لم أنظر فيه من العاقبة. ثم لا سيما إذا كان الكلام مواجهة، فإن الكلام الذي يستقبل فيها قائله السامع بما يكره مما يورث الحقد والضغينة ولا ينبغي له أن يسمى كلاماً ولكن يسمى سماً. فإن العاقل وإن كان واثقاً بقوله وفضله لا يحمل ذلك على أن يجني على نفسه عداوة وبغضاً اتكالا على ما عنده من الرأي والقوة. كما أن العاقل لا يشرب السم اتكالا على ما عنده من الترياق، وصاحب حسن العمل وإن قصر به القول في بديهته تبيين فضله عند الخبرة وعاقبة الأمر. وصاحب القو وإن هو أعجب ببديهته وحسن صفته فلا يحمد مغبة أمره. وأنا صاحب القول الذي لا عاقبة له محمودة. أوليس من سفهي اجترائي على التكلم في الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحداً ولا أتروى فيه مراراً، وأنا أعلم أن من لم يستشر الفصحاء الألباء بتكرار النظر والروية لم يسر بمواضع رأيه. فما كان أغنائي عما كسبت في يومي هذا وما وقعت فيه".

فعاتب الغراب نفسه بهذا ثم انطلق.

فهذا ما سألتني عنه من العلة التي بدأت بها العداوة بين اليوم والغربان.

قال الملك: قد فهمت هذا، فحدثنا بما نحن أحوج إليه وأشر علينا برأيك والذي ترى أن نعمل به فيما بيننا وبين اليوم.

قال: أما القتال فقد فرغت من رأيي فيه وأعلمتك كراهتي له. ولكن عندي من الرأي والحيلة غير القتال، وأنا أرجو أن أقدر من الحيل على بعض ما في فرج. فإنه رب قوم قد احتالوا بأرائهم للأمر الجسيم حتى ظفروا منه بحاجتهم التي لم يكونوا يقدرون عليها بالكثرة، كالنفر الذين مكروا بالناسك حتى ذهبوا بعريضه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

### مثل الناسك والعريض والنصوص

قال: زعموا أن ناسكاً اشترى عريضاً ضخماً سميناً ليجلعه قرباناً، فانطلق به يقوده فيصر به نفر مكرة فائتمروا ليخدعوه، فعرض له أحدهم فقال: أيها الناسك ما هذا الكلب الذي معك؟ ثم عرض له آخر فقال: أيها الناسك أظنك تريد الصيد بهذا الكلب. ثم عرض له ثالث فقال: إن هذا الرجل الذي عليه لباس الناسك ليس بناسك. فإن الناسك لا يقود كلباً. فقال الناسك: لعل الذي باعني سحر عيني. فخلّى العريض وتركه فأخذه نفر واقتسموه بينهم.

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رجوت أن نصيب من حاجتنا بالمكر. فأنا أرى أن يغضب الملك عليّ فيأمر بي على رؤوس جنده فاضرب وأنقر حتى أتخضّب بالدماء، ثم ينتف ريشي وذنبي ثم أطرح في أصل الشجرة التي نحن عليها، ويرتحل الملك وجنوده إلى مكان كذا وكذا، حتى أمكر مكري وأحتال على البومة بحيلة يكون فيها هلاكهن. ثم أتى الأمر على علم وأطلعك على أحوالهن فننال غرضنا منهن إن شاء الله.

ففعل ذلك وارتحل مع غربانه إلى المكان الذي وُصف له. ثم إن اليوم جاءت من ليلتها فلم تجد الغربان ولم تقطن للغراب في أصل الشجرة. فأشفق أن ينصرفن من قبل أن يروه فيكون تعذيبه نفسه باطلاً، فجعل يئن ويهمس حتى سمعته بعض اليوم. فلما رأيته أخبرن به ملكهن فعمد نحوه في بومات ليسأله عن الغربان. فلما دنا منه أمر بومة أن تسأله من هو وأين الغربان؟

قال الغراب: أنا فلان ابن فلان، وأما ما سألتني عنه في أمر الغربان فلا أحسبكن ترينني في حال من لا يعلم الأسرار.

قال ملك اليوم: هذا وزير ملك الغربان، وصاحب رأيه، فاسأله بأي ذنب صنع به ما صنع؟

قال الغربان: سقّوها رأيي وصنعوا فيّ هذا.

قال الملك: وما هذا السفه؟

قال الغراب: إنه لما كان من إيقاعك بنا ما كان، استشارنا ملكنا فقال: أيها الغربان ما ترون؟ وكنت من الأمر بمكان فقلت: "أرى أنه لا طاقة لكم لقتال اليوم فإنهم أشد بطشاً منكم وأجراً قلوباً، ولكن الرأي لكم أمران: نلتبس الصلح ونعرض الفدية. فإن قبلن ذلك منكم وإلا هربتم في البلاد. وأخبرت الغربان أن قتالهم إياكن خير لكن وشرّ لهم، وأن الصلح أفضل ما هم مصيبون منكم وأمرتهم بالخضوع. وضربت لهم مثلاً في ذلك فقلت: إن العدو الشديد لا يرد بأسه وغضبه مثل الخضوع له. ألا ترون الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بليته وانتثائه حيث مالت. فغضبوا من قلبي وزعموا أنهم يريدون القتال واتهموني وقالوا: إنك قد ملأت اليوم علينا. وردّوا رأيي ونصحتي وعدّوني هذا العذاب".

فلما سمع ملك اليوم ما قال الغراب قال لأحد وزرائه: ما ترى في هذا الغراب. قال: "ليس لك في أمره نظرٌ إلا المعالجة بالقتل. فإن هذا من أعز أصحاب ملك الغربان وأقرب إليه محلاً وأفضل عنده رأياً وأشد منه خداعاً، وفي قتله لنا فتح عظيم وراحة لنا من رأيه ومكيدته، وفقدته على الغربان شديد. وكان يقال: من استمكن من الأمر الجسم فأضاعه لم يقدر عليه ثانية، ومن التمس فرصة العمل فأمكنته فأغفل عمله فاتته الأمر ولم تعد إليه الفرصة. ومن وجد عدوه ضعيفاً معوزاً فلم يسترح منه أصابته الندامة حين يبغي العدو ويستعد فلا يقوى عليه".

قال الملك لآخر من وزرائه: ما ترى في هذا الغراب. قال: "أرى ألا تقتله. فإن العدو الدليل الذي لا شوكة له أهل أن يرحم ويستبقى وبصفح عنه. والمستجير الخائف أهل أن يؤمّن ويجار مع أن الرجل ربما عطفه على عدوه الأمر اليسير، كالسارق الذي عطف على التاجر امرأته بأمر لم يتعمده".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

### مثل التاجر وامرأته واللص

قال الوزير: زعموا أنه كان تاجر كثير المال وهو شيخ مسن له امرأة شابة وكان كلفاً بها يعتني بأمرها وأمر ولدها. وكانت هي قالية له لكبر سنه فتعرض عن خدمته. وكان التاجر يعلم ما في نفسها فلا يزيده ذلك إلا حبا لها. ثم إن سارقاً أتى بيت التاجر ليلة، فلما دخل البيت وجد التاجر نائماً وامرأته مستيقظة، فذعرت من السارق ووثبت إلى زوجها واستجارت به والتزمته. فاستيقظ التاجر بالتزامها فقال: من أين لي هذه النعمة؟ ثم بصر السارق وعلم أن فرق امرأته من السارق دعاها إلى للباذ به، فناداه فقال: أيها السارق أنت في حلّ مما أردت أخذه من مالي ومتاعي ولك الفضل بما عطف عليّ قلب زوجتي.

ثم إن الملك سأل الثالث من وزرائه عن الغراب، فقال: "أرى أن تستبقه وتحسن إليه فإنه خليك أن يناصحك. فإن ذا العقل يرى ظفراً حسناً معاداة بعض معدوه بعضاً، ويرى اشتغال بعض العدو ببعض واختلافهم نجاة لنفسه منهم كنجاة الناسك من اللص والشيطان لما اختلفا عليه".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الوزير: زعموا أن ناسكاً أصاب من رجل بقرة حلوباً، فانطلق بها يقودها إلى منزله فتبعه لصّ يريد سرقتها، وصحبته شيطان في صورة إنسان. فقال اللص للشيطان: من أنت؟ قال: أنا شيطان أريد أن أختطف نفس هذا الناسك إذا نام الناس فأخنقه وأذهب بنفسه. وسأل الشيطان اللص: وأنت من أنت؟ قال: أنا لص. فأني أريد أن أتبعه إلى منزله لعلّي أسرق هذه البقرة. فانطلقا مصطحبين حتى انتهيا مع الناسك إلى منزله ممسيين. فدخل الناسك وربط البقرة في زاوية المنزل ثم تعشى ونام. فأشفق اللص إن بدا الشيطان بأخذ نفس الناسك قبل أن يأخذ البقرة أن يصيح الناسك فيجتمع الناس لصوته فلا يقدر على سرقة البقرة، فقال له: انتظرنني حتى أخرج

البقرة ثم عليك بالرجل. فأشفق الشيطان إن بدأ اللص أن يستيظ الناسك فيصيح ويجمع الناس إليه فلا يقدر على أخذه، فقال: بل انتظرني حتى آخذ الناسك وشأنك وبالبقرة. فأبى كل واحد على صاحبه، فلم يزالا باختلافهما حتى نادى اللص الناسك أن استيقظ أيها الناسك فهذا شيطان يريد أخذك. وناداه الشيطان أن استيقظ أيها الناسك فهذا اللص يريد أخذ بقرتك. فانتبه الناسك وجيرانه بصوتهما فجا منها ولم يقدر على ما أرادا وهرب الخبيثان خائبين.

فلما فرغ الثالث من كلامه قال الأول الذي كان قد أشار بقتل الغراب: "أراكن قد غرّكن هذا الغراب وخذعكن بكلامه وتضرّعه، فأنتن تردن تضییع الرأي والتغريب بجسم الأمر، فمهلاً مهلاً عن هذا الرأي، وانظرن ذوي الألباب الذي يعرفون أمورهم وأمور غيرهم، فلا يلقكن عن رأيكن فتصبحن كالمعجزة الذين يغترون بما يسمعون أشد تصديقاً منه بما يعلمون، وكالنجار الذي كذب ما رأى وعلم وصدق ما سمع فاعترّ وانخدع".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

### مثل النجار المخدوع وحميه

قال الوزير: زعموا أن نجاراً كان له امرأة يحبها، وكان قد بلغه عنها أنه إذا غاب يأتيها أبوها فتفتح له بمفتاح مغشوش خزانة زوجها فيأخذ من صندوقه ما شاء من المال. فأحب أن يتيقن ذلك فقال لامرأته: إني أريد الذهاب إلى قرية منا على فراسخ لبغض أعمال الإمارة، وأنا ماكث هناك أياماً فأعدي لي زاداً. ففرحت المرأة بذلك وهيأت له زاداً. فلما أمسى قال لها: استوثقي من باب دارك واحتفظي ببنيك حتى أرجع إليك بعد أيام. وخرج وهي تنظر حتى جاوز الباب. ثم عطف وعاد إلى البيت من باب آخر ودخل الخزانة فاخنت في السرير زوجته. وأرسلت المرأة إلى أبيها أن انتنا فقد انطلق النجار في حاجة سيغيب فيها أياماً. فأتاها أبوها فأطعمته وسقته وفتحت له صندوق زوجها فأخذ ما بدا له، وبقي في حديثهما إلى منتصف الليل. فغلب النعاس على النجار فنام وخرجت رجلاه من تحت السرير، فرأتها امرأته فأيقنت بالشر فسارت أباها أن ارفع صوتك فسلني: أنا أحب إليك أم زوجك؟ ففعل أبوها كما قالت وردت عليك: "يا أبت ما يضرّك إلى هذه المسألة؟ ألسنت تعلم أنا معشر النساء يوم ندخل بيت زوجنا نفضله على كل من سواه حتى الأخ والوالد؟ فلحق الله امرأة لا يكون زوجها عندها كعدل نفسها، فلا سمعتك تذكره مرة أخرى". فسمع النجار لهذه المقالة من امرأته ورق لها وأخذته العبرة والرحمة لها ووثق منها بالمودّة، فلم يبرح مكانه كراهة أن يؤذيها، ولم يزل هناك حتى أصبح وعلم أن حماه قد خرج فخرج من تحت السرير، فوجد امرأته نائمة فقعده عند رأسها يذب عنها حتى إذا انتهت قال لها: سرني جوابك لأبيك، ولولا كراهة ما يسووك لكان ببني وبنيك صخب وأمر شديد.

وإنما ضربت لك هذا المثل إرادة ألا تكون كذلك النجار والمكذب بصره المصدق بما سمع من امرأته. فلا تصدقوا الغراب بمقالته واذكروا أن كثيراً من العدو لا يستطيع ضرّ عدوه بالمباعدة حتى يلتمسه بالمقاربة والمماسحة. وإنني لم أخف الغربان قط خوفهم منذ رأيت هذا الغراب وسمعت مقالته فيه.

فلم يلتفت ملك اليوم وسائر وزرائه إلى كلامه وأمر ملك اليوم بالغراب أن يُحمل إلى مكانهن ويوصى به خيراً ويكرم.

فقال الوزير الذي كان يشير بقتله: "إذا لم يقتل هذا الغراب فلنكن منزلته على ذلك منزلة العدو المخوف شره، المحترس منه. فإن الغراب ذو إرب ومكايد ولا أراه لجأ إلى هاهنا إلا لما يصلح له ويفسدنا". فلم يرفع الملك بقوله رأساً ولم يمنعه من إكرام الغراب والإحسان إليه، وجعل الغراب يكلمه إذا دخل عليه بألف ما يجد ويكلم اليوم إذا خلا بهنّ كلاماً يزددن في كل يوم به ثقة، وإليه استرسالاً وبه أنساً وله تصديقاً. ثم إنه قال يوماً وعنده جماعة من اليوم فيهن الوزير الذي كان يشير بقتله: "ليبلغنّ عني بعضكم الملك بأن الغرابان وترتني وترّة عظيمة بما فضحتني وعذبتني، وأنه لا يستريح قلبي أبداً حتى أدرك منهم بغيتي، وإنني قد نظرت في الأمر فلم أجدني أستطيع ذلك وأنا غراب. وقد بلغني عن بعض أهل العلم أنهم قالوا: من طابت نفسه عن نفسه فأحرقها بالنار إنما يقرب إلى الله قرباناً عظيماً ولا يدعو عند ذلك بدعوة إلى استجيبت له. فإن رأى املك أن يأمرني فأحرق لأدعو ربي أن يحولني يومياً لأنتقم من عدوي وأشفي غليلي إذا تحولت في خلق اليوم".

قال الوزير الذي كان يشير بقتله: "ما أشبهك با غراب في حسن ما تبدي وسوء ما تخفي إلا بالخمير الطيبة الريح، الحسنة اللون المنقع فيها السم. أرايت لو أحرقتك بالنار كان جوهرك وطباعك يحرقان معاً؟ أليس تدور

حيث ما درت فتصير إلى أصلك وطباعك كالفأرة التي وجدت من الأزواج الشمس والسحاب والرياح والجبل، وتركت ذلك كله وتزوجت جرذاً".

قيل له: وكيف كان ذلك؟

### مثل الناسك والفأرة المحولة جارية

قال البوميّ: زعموا أن ناسكاً عابداً كان مستجاب الدعوة. فبينما هو قاعد على شاطئ النهر إذ مرت به حذقة في رجلها درصة. فوقعت من رجلها عند الناسك فأدركته لها رحمة، فأخذه ولفها في ردفه وأراد أن يذهب بها إلى منزله، ثم خاف أن يشقّ على أهله تربيته فدعا ربه أن يحولها جارية فأعطيت حسناً وجمالاً، فانطلق بها الناسك إلى بيته فقال لامرأته: هذه يتيمة فاصنعي بها صنيعك بولدك. ففعلت ذلك حتى إذا بلغت اثنتي عشرة سنة قال لها: يا بنية فقد أدركت ولا بد لك من زوج فاختراري من أحببت من إنسيّ أو جني أقرنك به. قال: أريد زوجاً قوياً شديداً. فقال لعلك تريدين الشمس. فقال للشمس: هذه جارية جميلة هي عندي بمنزلة الولد زوجتكما لأنها طلبت زوجاً قوياً منيعاً.

قالت الشمس: أنا أدلك على من هو أقوى ني: السحاب الذي يغطي نوري ويغلب عليه. فانصرف الناسك إلى السحاب فقال له مثل تلك المقالة، فقال له السحاب: أنا أدلك على من هو أقوى مني وأشد: الريح التي تقبل بي وتدبر. فانصرف الناسك إلى الريح فقال لها مثل مقالته: فقالت الريح: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجبل الذي لا أستطيع له تحريكاً. فانصرف الناسك إلى الجبل فقال له مثل مقالته تلك، فقال الجبل: أنا أدلك على من هو أقوى مني: الجرذ الذي يتقني فلا أستطيع الامتناع عنه. قال الناسك للجرذ هل أنت متزوج هذه الجارية؟ فقال له: كيف أتزوجها وأنا صغير ومسكين ضيق والجرذ يقترب بالفأرة. فطلبت الجارية إلى الناسك أن يدعو ربه ليحولها فأرة، فأجابها إلى ذلك ودعا ربه فتحولت فأرة ورجعت إلى أصلها الأول فتزوجها الجرذ. فهذا مثلك أيها المخادع.

فلم يلتفت ملك البوم ولا غيره إلى هذه المقالة، ورفقت البوم بالغراب فلم يردن إلا إكرامه، حتى استأنس بهن ونبت ريشه وسمن وصلح، وعلم ما أراد أن يعلم، واطلع على ما أراد أن يطلع عليه الغرابان، فطار سراً وعاد إلى أصحابه فأخبرهم بما رأى وسمع، فقال لملك الغرابان: أبشرك بفراغي مما أردت الفراغ منه وإنما بقي ما قبلكم فإن أنت جددتم وبالغتم في أمركم فهو الفراغ من ملك البوم وجنده.

فقال ملك الغرابان: نحن عند أمرك فمرنا بما بدا لك.

قال الغراب: إن البوم بمكان كذا وكذا، وهن يجتمعن بالنهار في مكان كذا وكذا من الجبل، وقد علمت مكاناً فيه الحطب اليابس كثيراً فليحمل كل غراب منكم ما استطاع من ذلك الحطب إلى باب الثقب الذي فيه البوم بالنهار. وقرب ذلك الجبل قطيع غنم، فإني أمضي أخذ منه ناراً فأتي بها باب الثقب فأقذفها في الحطب المجموع. ثم تعاونوا فلا تفتروا واضربوا بأجنحتكم ضرباً ترويحاً ونفخاً للنار حتى تضرم في الحطب، فما خرج من البوم احترق بالنار وما بقي مات بالدخان.

ففعّلوا ذلك فأهلكوا البوم ثم رجعوا إلى أوطانهم آمنين سالمين. ثم إن ملك الغرابان قال لذل الغراب: كيف صبرت على صحبة البوم ولا صبر للأخيار على صحبة الأشرار؟

قال الغراب: إن ذلك كذلك، ولكن العاقل إذا نابه الأمر العظيم المقطع الذي يخاف منه الجائحة الجائفة على نفسه وقومه لم يخرج من شدة الصبر عليه رجاء عاقبته، ولم يجد لذلك مساً ولم تكره العيشة مع من هو دونه حتى يبلغ حاجته وهو حامد لغيب أمره، مغتبط لما كان من أمر رآه واصطباره.

قال الملك: أخبرني عن عقول البوم.

قال الغراب: لم أجد فيهن عاقلاً إلا الوزير الذي كان يحرص على قتلي ويحرضهن على ذلك مراراً. فكنت أضعف شيء رأياً، إذ لم ينظرن في أمري ولم يذكرن أنني كنت ذا منزلة في الغرابان أعد من ذوي الرأي. فلم يتخوفن مني المكر والحيلة. فأخبرهن الحازم الناصح المطلع على ما في نفسي برأيه، وأشار عليهن بالنصح لهنّ فرددن رأيه فلا هن عقّلن ولا من ذي العقل قبلن، ولا حذرني ولا حصن أسرارهن دوني. وقد قالت

العلماء: ينبغي للملك أن يحصن دون المتهم أسرارهم وأمورهم فلا يدنو من مواضع أسرارهم وأمورهم وكتبه ولا من الماء والحوض الذي يعد لغسله ولا من فراشه ودثره ولا من كسوته ولا من مراكبه ولا من سلاحه ولا من طعامه وشرابه ولا من دوائه ولا من ذهبه وطيبه ورياحينه، ولا يؤمن على نفسه إلا الثقة الأمين السالم الباطن والظاهر ويكون بعد ذلك كله على حذر منه، لأن عدوه لا يتوصل إليه إلا من جهة ثقته. وربما كان الثقة صديقاً لعدوه فيصل العدو إلى مراده منه.

قال ملك الغربان: لم يهلك ملك البوم عندي إلا بغيه وضعف رأيه وموافقته لوزراء السوء.

قال الغراب: صدقت. فإنه كان يقال: قلّ ما ظفر أحد بغني ولم يطغ. وقلما حرص الرجل على النساء فلم يقتض. وقلّ من أكثر من الطعام ولم يسقم. وقلّ من ابتلى بوزراء السوء فلم يقع في المهالك. وكان يقال: لا يطمع ذو الكبر في الثناء الحسن، ولا الخبّ في كثرة الصديق، ولا السيء الأدب في الشرف، ولا الشحيح في البرّ، ولا الحريص في قلة الذنوب، ولا الملك المختال المتهاون الضعيف الوزراء في ثبات ملكه.

قال ملك الغربان: لقد احتملت مشقة شديدة بتصنعك للبوم وتضرّعك لهن.

قال الغراب: لقد كان ذلك كذلك ولكن صبرت على ذلك لما رجوت من حسن منفعتي، لأنه يقال: لا يكبر على الرجل حمل عدوّه على عاتقه إذا وثق بحسن عاقبته. وقد قيل: إنه من احتمل مشقة يرجو لها منفعة صبر على ذلك، كما صبر الأسود على حمل الضفدع على ظهره.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

### مثل الأسود وملك الضفادع

قال الغراب: زعموا أن أسوداً كبيراً وهرم فلم يستطع صيداً ولم يقدر على طعام فدبّ يلتمس المعيشة لنفسه حتى انتهى إلى غدير ماء كثير الضفادع قد كان يأتيه ويصيد من ضفادعه، فوقع قريباً من الغدير شبيباً بالحزين الكئيب. فقال له ضفدع: ما شأنك أراك كئيباً حزينا؟ قال: ما لي لا أكون حزينا إنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيد من الضفادع، فابتليت ببلاء حرمت عليّ الضفادع حتى لو لقيت بعضها على بعض لم أجترئ على أكله. فانطلق الضفدع فبشر ملكه بما سمع من الأسود، فدنا الملك من الأسود فقال له: كيف كان أمرك هذا؟ فقال الأسود: لا أستطيع أن أخذ من الضفادع شيئاً إلى ما يتصدق به عليّ الملك. قال: ولم؟ قال: إنني سعيت في أثر ضفدع منذ ليال لأخذها فطردتها إلى بيت مظلم لرجل من الناسك فدخلته ودخلت في إثرها. وفي البيت مدّ ابنُ الناسك إصبعه فظننتها الضفدع فأسعته فمات فخرجت هارياً وتبعني الناسك ودعا عليّ وقال: كما قتلت ابني البريء ظمناً أدعو عليك أن تذللّ وتخزي وتصير مركباً لملك الضفادع وتحرم عليك الضفادع، فلا تستطيع أكلها إلى ما تصدق به عليك ملكها. فأقبلت إليك لتركبني مقراً بذلك راضياً. فرغب ملك الضفادع في ركوب الأسود، وظن أن ذلك له شرف ورفعة. فركب الأسود أياماً ثم قال له الأسود: قد علمت أنني ملعون محروم لا أقدر على التصيّد. إلا ما تصدقت به عليّ فأجعل لي رزقاً أعيش به. قال الملك: لعمرى لا بد لك وأنت لي مركب من رزق تعيش به. فأمر له كل يوم بصفدعتين يؤخذان فيدفعان إليه، فعاش بذلك. ولم يضره خضوعه للعدو الذليل، بل انتفع بذلك وصار له معيشة ورزقاً.

وكذلك كان صبري على ما صبرت عليه التماس هذا النفع العظيم الذي جعل لنا فيه بوار العدو والراحة منه.

قال الملك: وجدت ضراعة اللين والمكر أشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة والعناد، فإن النار الخفيفة تقوى بحرّها وحدتها على أن تحرق ما فوق الأرض من الشجر الكبار. والماء بليته ونفوذه يقتلعها من أصلها تحت الأرض، وكان يقال: في أربعة لا يستقلّ منها القليل: النار والمرض والعدو والدّين.

قال الغراب: ما كان من ذلك فبسعادة جدّ الملك ورأيه فإنه قد كان يقال: إذا طلب اثنان حظاً ظفر به أفضلهما مروءة. فإن استويا في المروءة فأفضاهما رأياً، فإذا استويا في ذلك فأفضلهما أعواناً، فإن استويا في ذلك فأسدهما جداً. وقد كان يقال: من غالب الملك الحازم الأريب الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء كان هو الداعي الحتف لنفسه. ثم لا سيما إذا كان مثلك أيها الملك العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضا والمعالجة والأناة، الناظر في يومه وعواقب أعماله.

قال الملك: بر برأيك وعقلك كان هذا. فإن رأي الرجل الواحد أبلغ في إهلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعدد والعدة. وإن من أعجب أمرك عندي طول لبتك عند البوم، وأنت تسمع الغلط من كلامهم دون أن تسقط عندهم بكلمة.

قال الغراب: لم أزل متمسكاً بأدبك أيها الملك، فأصحب القريب والبعيد بالرفق واللين والمتابعة والموافقة، وأخضع لهم. وقد قيل: إذا كنت بين أعداء تخافهم ولا تقدر على ضررهم فخذهم باللطف والتؤدة والخضوع، وإياك والغلظة فإنك لا تصيب بذلك ظفراً. وإن سمعت منهم غليظ الكلام فغض عنه النظر. وقد قيل إن الرجل الكامل المشاور أهل النبل في الرأي والعقل إن رأى في بدء أمره وسمع من بشاعة اللفظ ومخالفة الهوى ما يكره وصبر على ذلك فإن ذلك يعقب منفعة وراحة وسروراً. وإن مشاورة من يتبع هوى المستشير ولم ينظر في عاقبة أمره وإن نال من العاجل فرحاً وروحاً فإن عاقبة أمره تصير إلى ضرر وخسران.

قال الملك: وجدتك صاحب العمل ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل ليست لها عاقبة حميدة. فقد منّ الله علينا بك مئة عظيمة لم تكن نجد قبلها لذة الطعام ولا النوم.

قال الغراب: إنه يقال: لا يجد السقيم لذة النوم ولا الطعام حتى يبرأ. ولا الرجل الشره الذي قد أطمعه السلطان في مال أو عمل حتى ينجزه له. ولا الرجل الذي قد ألح عليه عدوه، فهو يخافه صباحاً ومساءً حتى يستريح منه. وقد كان يقال: من أفلعت عنه الحمى أراح قلبه. ومن وضع الحمل الثقيل أرح منته. ومن أمن عدوه تلج صدره. فأسأل الله الذي أهلك عدوك أن يمتنع بسلطانك وأن يجعل لك بعد ذلك صلاح رعيّتك ويشركهم في قرّة العين بملكك. فإن الملك إذا لم يكن في مملكته قرّة عيون رعيّته فمثلته مثل زمنة العنز التي يمسّها الجدي فلا يصادف فيها خيراً.

قال الملك: كيف كانت سيرة ملك البوم في جنده؟

قال: سيرة بطر وأشر وختل وعجز وضعف رأي. وكل أصحابه ووزرائه كان شبيهاً به إلا الذي كان يشير بقتلي. فإنه كان حكيماً أريباً فيلسوفاً حازماً قلماً يرى مثله في علوّ الهمة وكمال العقل وجودة الرأي.

قال: وأي خلة رأيت كانت أدلّ لك على عقله؟

قال الغراب: خلّتان، الواحدة رأيه في قتلي والأخرى أنه لم يكن يكتم صاحبه نصيحة وإن استقلها، ولم يكن كلامه مع هاتين كلام خرق ولا مكابرة، ولكن كلام رف ولين حتى ربما أخبره بعييه وهو لا يغضبه، وإنما يضرب له الأمثال ويحدثه عن عيب غيره فيعضر به عيب نفسه، ولا يجد للغضب عليه سبيلاً.

وكان مما سمعته يقول للملك أن قال: لا ينبغي للملك أن يغفل عن أمره فإنه أمر جسيم لا يظفر به إلا القليل، ولا تقابله إلا بالحزم. وهو إذا فات لم يدرك. فينبغي للملك أن يكون متفقداً لأمواره ذا حزم فيها. فإن لم يحسن ولايته ورعايته قلّت راحته وهوده، كالقرد الذي يرى لأدنى حركة قلقاً. والملك عزيز عزوف، فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه. فإنه قد قيل: إنه في قلة بقائه مثل قلة بقاء الظل على ورق النبلوفر، وفي قلة ثباته كاللييب مع اللئيم، وفي مراقبته كالنتين. وهو في سرعة الإقبال والإدبار كالريح، وفي الثقل كصحبة البغيض، وفيما يخاف من مفاجأة عطبة كالحية، وفي سرعة الذهاب كحباب الماء من وقع المطر. وفي قلة ما يستمتع به وينال منه كحاكم يغنى في رفقته، فلما هبّ لم يجد عليه حلمه. فأهلك الله أعداء الملك وأدال منهم ولا زال في عليا وصنع وتوفيق.

فهذا مثل أهل العداوة الذين ينبغي العاقل أن لا يغترّ بهم وإن هم أظفروا تودداً وضراعة.

### باب القرد والغليم

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت مثل الرجل المغترّ بالعدو والأريب المبدي التضرع والملق يريد بهما المكر والخديعة وما أصابه، فاضرب لي إن رأيت مثل الرجل الذي يطلب الحاجة حتى إذا ظفر بها أضاعها.

قال الفيلسوف: إن إصابة الحاجة أهون من الاحتفاظ بها. ومن ظفر بأمر لم يحسن الاحتفاظ به أضاع ما أصاب، كالغليم الذي طلب قلب القرد فلما استمكن منه أضاعه.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن جماعة من القردة كان لها ملك يقال له قاردين، فطال عمر حتى أنحل الهرم. فوثب عليه قرد شاب من شبان رهطه فقال: قد هرم هذا وليس يقوى على الملك ولا يصلح له. ووافق على ذلك جنده فنفاوا الهرم عن ملكهم وملكوا الشاب. فانطلق الهرم حتى لحق بالساحل فانتهى إلى شجرة من تين نابثة على حافة البحر، فجعل يأكل من تينها، فسقطت من يده تينة في الماء وفي الماء غيلم، وهو السلحفاة الذكر، عند مسقط التينة فأخذها وأكلها. ولما سمع القرد للتين وقعاً في الماء أعجبه ذلك فأولع بإلقاء التين في الماء. وجعل الغيلم يأخذه فيأكله ولا يشك أن القرد إنما يطرح ذلك التين من أجله. فخرج الغيلم إلى القرد فتصافحا وتصافيا وتصادقا وألف كل واحد منهما صاحبه. فلبثا زماناً لا ينصرف الغيلم إلى أهله فحزنت زوجته لغيبته، وشكت ذلك إلى جارة لها، قالت: قد خفت أن يكون عرض له عارض شرّ.

قالت لها صديقتها: لا تحزني فإنه قد بلغني أن زوجك بالساحل مع قرد أليفة. فهما يأكلان ويشربان جميعاً، قد ألهاهما الأمر، فلذلك طالبت غيبته عنك فانسيه ولا يهن عليك إذ هنت عليه، وإن استطعت أن تحتالي للقرد فتهلكيه فافعلي، فإن القرد إذ هلك أقام عندك زوجك.

فأسحنت زوجة الغيلم لونها وضعت نفسها حتى أصابته نهكة شديدة وهزال. ثم إن الغيلم اشتاق إلى أهله فقال بعد حين: لآلمن بأهلي فقد طال غيبي. فأتى منزله فوجد زوجته سيئة الحال. فقال: يا حبّ كيف أنت ومال أراك منهوكة؟ فلم تجبه. فأعاد عليها المسألة فأجابت عنها جارتها فقالت: ما أشد حال زوجتك! أمّا مرضها فشديد، وأما دواؤها فعزيز الوجود. فهل لشدة الداء وعدم الدواء إلا الموت. فقال الغيلم: أخبريني بالدواء لعلّي ألتمسه حيث كان. قالت الجارة: هذا المرض نحن معشر الغيلم أعلم به وليس له دواء إلا أن يؤخذ له قلب قرد فيدأوا به.

قال الغيلم في نفسه: هذا امر عسير، من أين أقدر على قلب قرد إلا قلب صديقي. أفأعذر به وإثم الغدر شديد. ولكن أليس هلاك الزوجة أشد من ذلك؟ فكيف أهلك زوجتي وهذا أمر لا عذر لي فيه. ثم قال: إذا لم يستطع الرجل عظيماً إلا باحتمال صغير كان حقيقاً أن لا يلتفت إلى الصغير، وحتى الزوجة عظيم لأنها عون على أمور الدنيا والآخرة، وأنا حقيق أن أوثرها ولا أضيع حقها.

ثم غدا نحو القرد في نفسه ما يريد به وهو هاجس يقول: إن إهلاكى أخاً وفيّاً وصولاً بلا سبب لمن الأمور التي يُخاف عواقبها. ولما عاد إلى الساحل ورآه القرد حيّاً وقال له: ما حبسك يا أخي هذه المدة؟

قال الغيلم: إن مما بطأني عنك مع شوقي إليك الحياء منك والاحتشام لقلّة مكافأتي إياك لحسن بلانك عندي ومعروفك إليّ. فإني وإن كنت قد عرفت أنك لا تلتمس مني جزاء لمعروفك فإني مع ذلك قد أرى حقاً عليّ التماس مكافأتك. فأما أنت فإن خلقك خلق الكرام الذين ينيلون الخير من لم ينلهم إياه فيما مضى ولا يرجونه فيما بقي، الذين لا يمتنون بمعروف أدوه ولا يستكثرون جزاء جزوا به، الذين يسرعون إلى معونة المحتاج.

فقال القرد: لا تقولن لي هذا ولا تحتشمن مني. فإنّ أنت الذي جمعت فيما بيني وبينك الأمرين جميعاً وابتدأت بما يجب لك به المكافأة. ألم أسقط إليك من قومي طريداً شريداً وحيداً فكنت لي سكناً وإلفاً أذهب الله بك عني الهمّ والحزن؟

قال الغيلم: إن أموراً ثلاثة يزداد بها لطف ما بين الإخوان واسترسال بعضهم إلى بعض، وهي أفضل ما يلتتمسه المرء من أخلائه، وهي أن يغشوا منزله وينالوا من طعامه وشرابه ويعرفوا أهله وولده وجيرانه. ولم يجز بيني وبينك من ذلك شيء، وقد أحببت أن تتمّ بها إحسانك إليّ وتشرف منزلي.

قال القرد: إنما ينبغي للصديق أن يلتمس من صديقه ذات نفسه ومودته. فأما الزيارة والنظر إلى الأهل والحشم والمواكلة فليس تحتها كبير أمر.

قال الغيلم: قد صدقت. لعمري ما يلتمس الصديق من صديقه إلا المودة. فأما من كان يلتمس منافع الدنيا فهو حقيق أن ينقطع ما بينه وبين إخوانه. وقد كان يقال: لا تكثرن الرجل على إخوانه حمل المونات حتى يؤذيهم ويبرمهم. فإنّ عجل البقرة إذا كثر مصه ضرعها وإفراطه أوشكت أن تصرفه وتنفيه. ولم أذكر ما ذكرت إلا

لكوني أعرف منك الكرم والسعة في الخلق. وبهذا قد أحببت أن تزورني في منزلي. فإني في جزيرة كثيرة الشجر طيبة الفواكه، فأسعفني بطلبتي واركب ظهري لتنتقل إلى منزلي.

فرغت القرد الذهاب معه لما ذكره من الفواكه، وتابع الغيلم على ما سأل وركب ظهره وسبح به الغيلم، حتى إذا لجّ به عرض في نفسه قبح ما يريد به وفجوره وغدره، ووقف مفكراً يقول في نفسه: إن الأمر الذي هممت به كفر وغدر، وما الإناث أهل أن يرتكب لهن الغدر واللوم، فإنه لا يوثق بهن ولا يسترسل إليهن.

وقد قيل: إن الذهب يعرف بالنار، وأمانة الرجل تعرف بالأخذ والإعطاء، وقوة الدواب الحمل، والنساء يعرفن بكيدهن وكثرة حيلهن.

قال القرد: ما لك لا تسير؟

قال الغيلم: أفكر في زوجتي وقد بلغني أنها مريضة. وذلك يمنعني من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك.

قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة التكلف.

قال الغيلم: أجل، ومضى بالقرد ساعة، ثم توقف به ثانية.

فلما رأى القرد احتباس الغيلم، وأنه لا يسبح ارتاب وقال في نفسه: إن لوقوف الغيلم وانتظاره سبباً، فما يؤمّني أن يكون قلبه قد تقلب وتغير لي فازداد به سوءاً. فقد علمت أنه لا شيء أحد من القلب ولا أسرع تغييراً وتقلباً منه. لا يغفل العاقل عن التماس ما في نفس أهله ولده وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة وعند القيام والعود. وعلى كل حال فإن ذلك كله شاهد على ما في القلوب. ثم قال للغيلم: ما يحبسك وما لي أراك كأنك مهتم؟

قال الغيلم: تهمني أنك تأتي منزلي فلا توافق كل أمري كما تشتهي لأن زوجتي شديدة الوجد.

قال القرد: لا تهتمّ فإن الهم لا يغني شيئاً، والتمس لزوجتك الأدوية والأطباء. فإنه كان يقال: لبيبذو المال ماله في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد أجر الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد المنزلة الدنيا، وفي الأهل والأزواج لا سيما إذا كنّ صالحات.

قال الغيلم: صدقت، وقد زعم الأطباء أنه لا دواء لها إلا قلب قرد.

قال القرد في نفسه: واسواتاه لقد أورطني الحرص على كبر السن شرّ مورط! لقد صدق الذي قال: القانع الراضي يبيت آمناً مطمئناً مستريحاً مريحاً، وذو الحرص والشره يعيش ما عاش في تعب ونصب وخوف. وإني لقد احتجت إلى عقلي في التماس المخرج مما وقعت فيه، ثم قال للغيلم: ما منعك يا خليلي إذ علمت هذا أن تكون أخبرتني به عند نزولي حتى كنت حملت قلبي معي؟

قال: وأين قلبك؟

قال: خلفته في الشجرة مكاني.

قال: وما حملك على ذلك؟

قال: سنة فينا معاشر القرد إذا خرجنا لزيارة أصدقاء خلقنا قلوبنا لطرح الظنة عنا. فإن شئت فارجع بي إلى الشجرة لآتيك به.

ففرح الغيلم بطيب نفس القرد له عن قلبه، وانقلب به راجعاً محثاً، حتى إذا بلغ الساحل وثب القرد إلى الأرض فسعى إلى الشجرة فريقيها. ولبث الغيلم ساعة فلما بطأ عليه ناداه: أعجل يا أخي احمل قلبك وانزل فقد حبستني. قال القرد: أراك تظن أنني كالحمار الذي زعم ابن أوى أنه لم يكن له قلب ولا أذن؟ قال الغيلم: وكيف كان ذلك؟



## ابن آوى والأسد

قال القرد: زعموا أن أسدا كان في اجمة، وكان معه ابن آوى يأكل من فضول صيده. فأصاب الأسد جرب شديد حتى ضعف وجهه، فلم يستطع الصيد.

فقال ابن آوى للأسد: ما شأنك يا سيد السباع قد تغيرت حالتك. قال: لهذا الجرب الذي تراه ليس له دواء إلا أن أطلب أذني حمار وقلبه. قال ابن آوى: قد عرفت مكان حمار يجيء به قصار إلى مرج قريب منا يحمل عليه ثيابه التي يغسلها، فإذا وضع عنه الثياب خلاه في المرج. فأنا أرجو أن آتيك به ثم أنت أعلم بقلبه وأذنيه. قال الأسد: فلا تؤخرن ذلك.

فذهب ابن آوى حتى أتى الحمار، فقال له: ما هذا الهزال الذي أراه بك والدبر الذي يظهر؟ قال الحمار: أنا لهذا القصار الخبيث، فهو يسيء علفي ويدأب عملي. قال ابن آوى: وكيف ترضى بهذا؟ قال: فما أصنع؟ وكيف أفلت من أيدي الناس؟ قال ابن آوى: أنا أدلك على مكان معتزل خصب المرعى لم يطأه الناس قط. وثم أسد وهو مشتاق إليك وبقربه عانة من الحمر ترعى أمينة مطمئنة. فطرب الحمار وقال: ألا تنطلق بنا، فإني لو لم أرغب إلا في إخوانك لكان ذلك حاملي على الذهاب معك.

فتوجها جميعاً قبل الأسد وتقدم ابن آوى فأخبره. فوثب الأسد على الحمار فلم يستطع صرعه لضعفه وانفلت الحمار. فقال ابن آوى للأسد: ما هذا الذي صنعت؟ إن كنت خلّيت الحمار عمداً فلم عنيّتي في طلبه؟ وإن كنت لا تقدر عليه فقد هلكنا، إن كان سيدنا لا يقوى على حمار. فعرف الأسد أنه إن قال: "تركته عمداً" سفيهه، وإن قال: "لم أقدر عليه" ضعفه، فقال: إن أنت استطعت أن ترد الحمار إليّ بما سألت عنه. فقال ابن آوى: لقد جرب الحمار مني ما جرب وإنني لذلك لعائد إليه محال له بما استطعت، وعليك إن رجع أن تصبر عليه ساعة حتى يستأنس بك، وهذا أمر لا يفوتك والغرض لا يصاب كل وقت. فعاد ابن آوى إلى الحمار فلما رآه قال له: ما الذي أردت بي؟ قال: أردت بك الخير، ولكن الأسد أراد أن يتلقاك مرحباً بك ولو ثبت لأنسك ومضى بك إلى أصحابه. فلما سمع الحمار ذلك ولم يكن رأى أسداً قط صدق ما قاله ابن آوى، فمضى ووثب عليه الأسد فافترسه.

فلما فرغ الأسد من قتل الحمار قال لابن آوى: إنه وُصف لي هذا الدواء بأن أغتسل ثم أكل الأذنين والقلب، وأجعل ما سوى ذلك قرباناً. فاحتفظ بالحمار حتى أغتسل ثم أرجع. فلما ولى الأسد عمد ابن آوى إلى أذني الحمار وقلبه فأكلهما رجاء أن ينفر الأسد عنه فلا يأكل بقية الحمار فينفرد هو به. فلما رجع الأسد قال: أين قلب الحمار وأذنان؟ قال ابن آوى: وما شعرت أن الحمار لم يكن له قلب ولا أذنان وأنهما لو كانا له لم يرجع إليك ثانية بعد إفلاته منك؟ فصدقه الأسد.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنني لست كالحمار الذي زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان، وأنك احتلت بي وخدعتني فجزيك مثل خديعتك واستدركت ما كنت ضيّعت من نفسي.

قال الغيلم: أنت الصادق البار وقد علمت أن ذا العقل يقلّ الكلام ويبالغ في العمل ويعترف بالزلة ويتبين الأمور قبل الإقدام عليها، ويستقيل عثرة عمله بفعله، كالرجل الذي يعثر على الأرض وعلى الأرض يعتمد وينهض.

فهذا مثل من طلب أمراً، حتى إذا استمكن منه أضاعه.

## باب الناسك وابن عرس

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي إن رأيت مثل العجول في أمره العامل بغير تثبيت ولا روية.

قال بيديا الفيلسوف: من لم يكن في أمره متنبهاً لم يبرح نادماً. ومن امثال ذلك مثل الناسك وابن عرس. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض جرجان ناسك، وكانت له امرأة ليثت عنده زماناً لا تحمل، ثم حملت فاستبشر الناسك بذلك وقال لها: أبشري فإني أرجو أن تلدي غلاماً ويكون لنا فيه متعة وقرة عين، وأنا متقدم في التماس الطويرة ومتخيرٌ من الأسماء اسماً حسناً.

قالت المرأة: أيها الرجل من علمك أن تتكلم فيما لا تدري؟ ومن يعلم أيكون المولود ذكراً أم لا؟ اسكت عن هذا واراض بما الله قاسم لك، فإن الرجل العاقل لا يتكلم فيما لا يدري. فمن تكلم بما لا يدري وقضى على الأمر في نفسه بالتقدير أصابه ما أصاب الناسك المهريق على رأسه السمن والعسل.

قال الناسك: وكيف كان ذلك؟

### الناسك وجرة السمن

قالت المرأة: زعموا أن ناسكاً كان يجري عليه من بين رجل من التجار رزق من السمن والعسل والسويق. وكان يُبقي من ذلك السمن والعسل فيجعلهما في كوز له قد علّقه حتى امتلأ الكوز من ذلك. ووافق غلاء في السمن والعسل فقال: "أنا بائع ما في هذه الجرة بدينار أقل ما أنا بائعه فأشتري بالدينار عشرة أعنز فيحملن ويلدن لخمسة أشهر". فحزر على هذا الحساب لخمس سنين فوجد ذلك أكثر من أربعمئة عنز في حسابه، ثم قال: "فاشتري مئة من البقر بكل أربعة أعنز ثوراً وبقرة فأصيب بذراً فأزرع على الثيران وأنتفع ببطون الإناث وألبانها. فلا يأتي علي خمس سنين، إلا وقد أصبت منها ومن الزرع ما لا كثيراً، فأبنتي بيتاً فاخراً وأشتري عبداً ورياشاً ومتاعاً. فإذا فرغت من ذلك تزوجت من امرأة ذات حسب ونسب. ثم تلد لي ابناً سوياً مباركاً مصلحاً فأسميه بما فيه وأؤدبه أدباً حسناً، وأشد عليه في الأدب. فإن رأيته عقوقاً مهتبلأً ضربت رأسه بهذا العصاة هكذا". ورفع العصا يشير بها فأصابته الكوز فانكسر وانصب السمن والعسل على رأسه، وذهب تدبيره وكل أمانيه باطلاً.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتنتهي عن التكلم فيما لا تدري، وما لا يوافق القدر، فائعظ بما اتعظ الناسك.

ثم إن المرأة ولدت غلاماً سوياً فسرّ به أبوه، حتى إذا كان بعد أيام قالت المرأة لزوجها: اقعد عند الصبي حتى أغتسل وأرجع إليك. فانطلقت المرأة ولم يقعد الرجل إلا قليلاً حتى جاء رسول السلطان فذهب به ولم ابنه أحداً، إلا أنه قد كان له ابن عرس داجن عنده يقوم عليه قيام الرجل على ولده. فتركه الرجل عنده وذهب إلى السلطان. وكان في بيته جحر أسود فخرج الأسود يريد الغلام فوثب عليه ابن عرس فقطعه. وأقبل الناسك عند انصرافه حتى أتى بيته، فدخله فتلّقه ابن عرس كالميشّر له بما صنع. فلما نظر إليه الناسك متلطحاً بالدم سلب عقله ولم يلبث ولم يتبين، وضرب ابن عرس ضربة على رأسه بعصاه فوقع منها ميتاً. ودخل الناسك بيته فرأى الغلام والأسود مقطّعاً فعرف الأمر وأقبل على رأسه نتفاً وعلى صدره ضرباً وجعل يقول: ليت هذا الغلام لم يولد ولم أتل هذا الغدر والكفر. فدخلت المرأة وهو يبكي فقالت له: ما يبكيك؟ وما شأن هذا الأسود وابن عرس مقتولين؟ فأخبرها خبرها وقال: هذه ثمرة العجلة.

فهذا مثل من عمل عملاً بغير تثبت ولا روية في أمره.

### باب إيلاذ وشادرم وإيراخت

قال الملك دبشليم لبيدبا الفيلسوف: قد فهمت ما ذكرت من أمر العجول غير المتأيد ولا المتثبت فأخبرني ما الذي إذا عمل به الملك كرم على رعيّته وثبت ملكه، ألحم أم المروءة أم الحميّة أم الجود؟

فقال الفيلسوف: إنّ أفضل ما يحفظ به الملك ملكه الحلم والعقل لأنهما رأس الأمور وملاكها مع مشاورة الملك. فإن الحلم أفضل ما يستعين به على أموره. ثم من صلاح المرء في معيشتة المرأة الصالحة الفاضلة الرأي المؤاتية. فإن الرجل وإن كان شجاعاً رئيساً ثم لم يكن له من يشاوره حليماً عاقلاً وشاور غير لبيب، فإنه يبهطه الأمر اليسير حتى ترى فيه القبح والضعف لجاهلته وخطأ رأي أصحابه. فإن أصاب ظفراً أو لقي رشداً لقدر ساقه إليه صارت عاقبة أمره إلى ندامة. وإذا كان على خلاف ذلك من الفضل وأزره في التدبير وزير عاقل ثم أعانته القضاء أصاب الفلاح على من خاصمه والغلبة على من ناوأه والسرور لمن أحزنه، كما زعموا أنه جرى بين شادرم ملك الهند وإيراخت امرأته وإيلاذ صاحب سره ورأيه.

فقال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن إبلاذ كان ناسكاً مجتهداً حسن الخلق ليناً حليماً كاملاً. فبينما شادرم الملك ذات ليلة نائم في غرفة له إذ رأى ثمانية أحلام يستيقظ عند كل حلم منها. فلما أصبح دعا البراهمة، وهم النساك، فقص عليهم ما رأى وأمرهم أن يعيروها، فقالوا: قد رأيت أيها الملك أمراً منكراً معجباً لم نسمع بمثله فيما مضى. وإن أحببت أن تتطلق فنفكر فيه ستة أيام ونأتيك في اليوم السابع فنخبرك به، ولعلنا نستطيع أن ندفع ما نتخوف منه.

قال الملك: فاعملوا برأيكم فيما تعلمون أنه يوافقني.

قالوا: نعم وخرجوا من عنده واجتمعوا وقالوا: لم يطل العهد منذ قتل منا اثني عشر ألفاً، وقد استمكننا منه إذ أفضى إلينا بسرّه وعرفنا فرقه من رؤياه، ولعلنا ننتقم منه إن نحن أغلظنا له القول فيحمله الخوف على أن يتابعنا ما نريد، فنأمره أن يدفع إلينا من يكرم عليه من أهله ووزرائه ونقول له: إنا قد نظرنا في كتبنا فلم نجد شيئاً يصرف ما رأيت إلا قتل من ينتمي لك. إن قال: ومن تريدون؟ قلنا: إيراخت امرأتك وابنها جوير وابن أختك إبلاذ صاحب أمرك، فإنه ذو حيلة وعلم، وكال كاتبك ولسانك. ونريد سيفك والفيل الأبيض الذي تقاتل عليه، وكنان أبزون الفقيه. فتجعل دماءهم في رجل نقعدك فيه، فإذا أردنا أن نخرجك منه اجتمعنا معشر البرهمنين من الأفاق الأربعة فرقيناك ومسحنا عليك وغسلناك بالماء والدهن الطيب، ثم صيرناك إلى مجلسك فيذهب الله عنك ما تحذر مما رأيت. فإن أنت صبرت على هذا وطبت به نفساً خلصت من البلاء ونجوت من الأمر العظيم الذي قد رهقك وأشرف عليك واستخلفت مكانهم مثلهم. وإن لم تفعل فإننا نتخوف أن تغضب فتهلك وينزع ملكك ويستأصل عقبك.

فلما أبرم البرهمنون ذلك من رأيهم اتفقوا عليه أتوا الملك فقالوا: إنا قد نظرنا في كتبنا وتبحرناها وفكرنا في رؤياك وأعملنا العقول فيها، فلسنا نقدر على أن نعلمك ما رأينا حتى تخلينا. ففعل ذلك فقصوا عليه الأمر على ما هيأوا له.

فقال الملك: الموت خير مما أسمع. كيف أبداً فأقتل هذه النفوس التي هي عندي عدل نفسي وأحتمل الإصر والوزر. ولا بد من الموت على كل حال، ولست الدهر على ملكي هذا، وإنه سواء عليّ الهلاك وفراق الأحبة.

فقال البرهمنون: إنت أنت لم تغضب أخبرناك أن رأيك مخطئ وأنت لم تصب إن أهنت نفسك وأكرمت عليها غيرها. أولست تعلم أن كل شيء معها يسير وأنه لا يفيدنا شيء، وإن عظم خطره أو صغر. فلعمري لئن فديتها بمن سميناها لك إنه لأمثل وأخير، فتبقى في ملكك وسلطانك ويصلح لك أمرك، فانظر لها ودع ما سواها فإنه لا شيء يعدلها.

فلما رأى الملك أن البرهمنين قد أغلظوا في القول واجترأوا عليه فيه قام فدخل قصره ووقع وجهه، وجعل يتقلب مهموماً محزوناً ويفكر في رأيه لا يدري ما يصنع: أيخطر بنفسه وملكه أو ينحاز إلى ما سألوا من قتل أحبائه. فمكث بذلك أياماً وفشا الحديث في أرضه وقيل: لقد نزل بالملك أمر هو فيه في كرب.

فلما رأى إبلاذ الذي قد وقع فيه الملك من ذلك فكر ونظر وكان فطناً عالماً مجرباً داهياً فقال: ما ينبغي أن أستقبل الملك بشيء دون أن يدعوني ولكني أنطلق إلى إيراخت امرأة الملك فأسألها عن ذلك. فأتاها فقال: إني أعلم أن الملك لم يركب أمراً صغيراً ولا كبيراً مذ كنت معه إلى بمشورتني. فإني كنت صاحب سره ولم يكن يكتمني شيئاً طراً عليه، وكان إذا حاربه امر مفضع عزى نفسه فيه واصطبر على ما نزل به وذكر لي ذلك فأسأله عنه بأرق ما أقدر عليه. وإني أراه مستخلياً بالبراهمة منذ سبعة أيام وقد احتجب فيها عن الناس. وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على دخلة أمره ولست آمن عليه منهم. فاذهي إليّ وسلية عن حاله وما بلغه وما الذي ذكروا له، ثم أعلميني، فإني لا أستطيع أن أدخل عليه. وأحسبهم قد زينوا له أمراً قبيحاً وحملوه على عضيته وأغضبوه بشيء شبهوا له فيه. فإن من أخلاق الملك إذا اغتاط أن لا يلتفت إلى أحد ولا يسأل عن شيء ولا ينظر فيه، وسواء عليه جسيم الأمور وحقيرها. ولست أشك أنهم لم ينصحوه لما في قلوبهم من الحقد عليه والبغض له، وأنهم إن قدروا عليه وعلى هلكته التمسوا إنزالها فيه وإدخالها عليه.

قالت إيراخت: إنه كان بيني وبين الملك كلام ولست أريد أن آتيه ما دام مذنباً لم يرع لي خاطراً.

قال إيلاذ: لا تحملن الحقد في مثل يومك هذا. فلن يقدر أحد على أن يدخل عليه غيرك، وقد كنت سمعته يقول غير مرة: "إنني إذا حزنت واهتممت فأنتني إيراخت أذهبت عني ذلك". فانطلقى إليه وكلميه بما تظنين أنه يطيب نفساً به وتجلي عنه ما به.

فلما سمعت ذلك إيراخت نهضت إلى الملك ودخلت عليه، وجلست عند رأسه وقالت: ما أمرك أيها الملك السعيد الرشيد المحمود؟ وما الذي قال لك البرهميون؟ فأني أراك مهموماً حزيناً. إن كان الذي ينبغي أن تحتاله أمراً فيه جلاء همك وسرورك ونفعك فيه استئصال أنفسنا فافعل ذلك، وإن يكن بك غضب علينا نرضك ونأت ما يسرك.

فقال الملك: لا تسأليني أيتها المرأة عن شيء فتزديديني خيلاً إلى ما بي. فإنه لا ينبغي أن تعلمي ذلك الأمر العظيم خطره، الشديد هوله، ولا تجديك معرفته نفعاً.

فقالت إيراخت: أو قد صار أمري عندك إلى أن تجيبيني بمثل ما قد سمعت؟ أو ما تعلم بأن أفضل الرأي للملك إذا وقع بالأمر الذي يدهمه أن يشاور أهل نصيحته ومودته ومن يهمله وما أحزنه؟ فإن المذنب لا يقنط من الرحمة ولكنه يتوب مما يخاف. فلا يدخلنك من الهم والحزن ما أرى بك. فإنهما لا يردان شيئاً بل يشتمان العدو ويسوءان الصديق. وأهل العلم والتجارب ينظرون في ذلك ويصبرون أنفسهم على ما فاتهم من عرض الأطماع ونزل بهم من حوادث الأزمان.

فقال الملك: أيتها المرأة لا تسأليني عن شيء فإن في الذي تفحصين عنه دماري وهلاكك وهلاك ولدك وكثير من أهل ودي. فإن البرهميين زعموا أنه لا بد من قتلك وقتله ولا خير في العيش بعدكم ولا لذة لي عند فراقكم، وذلك أقطع الأمور وأجلها خطباً في نفسي.

فلما سمعت ذلك إيراخت جزعت ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعها، فقالت: لا يحزنك الله أيها الملك ولا يسوك. أنفسها لك الفداء والوفاء. فإن ذلك يسير في بقائك وصلاحك. وقد جعل الله لك من الجواري ما فيه الخلف والعوض. ولكني أطلب إليك بعد موتي ألا تتق بالبرهميين ولا تستشيرهم ولا تقتل أحداً حتى تشاور فيه أهل نصيحتك والثقة لك وتعرف ما تقدم عليه. فإن القتل عظيم الخطب شديد الوزر، ولست تقدر على رد ما أهلكت. وقد قيل: "إن وجدت جوهراً لا تظن فيه خيراً وأردت أن تلقيه فلا تفعل ذلك حتى تريه من يبصره"، ولا تقر عين عدوك من البرهميين وغيرهم. واعلم أنهم لم ينصحوا لك أبداً وإنما قتلت منهذ منذ قريب اتني عشر ألفاً، أفطن أنهم نسوا ذلك؟ ولعمري ما كنت جديراً أن تحدثهم برؤياك ولا تطلعهم على سرّك، فإنهم يريدون بما عبّروا من رؤياك هلاكك وبوار أحبابك واستئصال وزرائك أهل الحلم والعلم والحكمة ومراكبك التي تقاتل عليها. ولكن انطلق إلى كنان أبزون فاذكر له أمرك وسله عما بدا لك، فإنه لبيب أمين وليس عند أحد شيء إلا عنده أفضل منه، وإن كان من البراهمة فإنه ناسك فقيه. فإن أشار عليك بمثل رأيهم فعلت، وإن خالف رأيهم قولهم نظرت ولم تعجل في أمرك.

فلما سمع الملك ذلك منها أعجبه فأمر بإسراج فرسه ثم ركب وانطلق إلى كنان أبزون حديثاً. فلما انتهى إليه نزل عن فرسه ثم سجد له وحياه وطأ رأسه. فقال كنان أبزون: ما جاء بك أيها الملك؟ ومالي أراك متغير اللون ممثلاً حزناً ولا أرى عليك تاجك ولا إكليل الملك؟

فقال له الملك: كنت ذات ليلة نائماً على ظهر إيواني فسمعت من الأرض ثمانية أصوات أستيقيظ مع كل صوت منها ثم أرقد. فرأيت ثمانية أحلام فاقتصصتها على البرهميين. فأنا أخاف أن يصيبني أمر عظيم، إما أن أقتل في حرب وإما أن أغضب في ملكي فأغلب عليه.

ثم قصّ الملك عليه الرؤيا فقال له البرهمي: لا يحزنك هذا الأمر ولا يوجلّك، فإنك لا تموت الآن ولن تسلب ملكك ولن يصيبك شيء من الآثام والشرور التي تحذر. فأما الأحلام الثمانية التي رأيت فأني منبئك بتأويلها. تدل السمكتان الحمراء على اللتان قائمتا على ذنبيهما أنه يأتيك من قبل هميون رسول يهديك من قبله هدية ثمنها أربعة آلاف رطل من ذهب. وأما البطتان اللتان رأيت أنهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك فإنه يأتيك من عند ملك بلخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس في الأرض مثلهما. وأما الحية التي رأيتها دبّت على رجلك اليسرى فإنه يأتيك من قبل ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله. وأما الدم الذي رأيت أنه يخضب جسمك فإنه يأتيك من قبل ملك كاسرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أرجوان يضيء في الظلمة. وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء فإنه يأتيك من قبل ملك راز من يقوم بين يديك بثياب من لباس الملوك. وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض فإنه يأتيك من خيار الملوك من يقوم بين يديك بإكليل

من ذهب مكلال بالدر والياقوت. وأما الطير الأبيض الذي ضرب رأسك بمنقاره فلست بمفسره لك اليوم وليس بضارك فلا توجلّ منه، ولكن فيه بعض السخط والإعراض عمن تحب. فأما البرد والرسل فإنهم يأتونك بعد سبعة أيام جميعاً فيقومون بين يديك.

فلما سمع الملك ذلك سجد بين يدي كنان أبزون وانصرف وقال: إني لناظر فيما قال. فلما كان اليوم السابع لبس الملك ثيابه وأخذ زينته وقعد في مجلسه وأذن للعظماء والأشراف، فجاءته تلك الهدايا التي أخبره عنها كنان أبزون فوضعت بين يديه. فلما رأى الملك أولئك البرد والرسل وتلك الهدايا اشتد فرحه لذلك وقال في نفسه: "لم أوفق حين قصصت رؤيائي على البرهميين فأمروني بما أمروني به. ولولا أن الله حماني ورحمني وتداركني برأيي إيراخت كنت هلكت وزالت دنياي. فلذلك ينبغي لكل أحد أن يسمع من الأخلاء والأحباء وذوي القربات رأيهم ويقبل مشورتهم. فإن إيراخت أشارت علي برأيي فقبلته واعتبطت به فثبت لي ملكي بأي الأخلاء والنصحاء واستبان لي أيضاً علم كنان أبزون وصدق قوله". ثم دعا الملك جوبر وإيلاذ وكال الكاتب فقال لهم إنه لا ينبغي لنا أن ندخل هذه الهدايا خزائننا ولكني سأقسمها بينك أنت الذي وطنتم أنفسكم على الموت في سببي وبين إيراخت التي أشارت علي بال رأي الذي انتفعت به في بقاء ملكي والذي ترون من الفرح والسرور.

فقال إيلاذ: إنه لا ينبغي لنا معاشر العبيد أن نعجب لما كان منا في ذلك. فإن العبد ينبغي له أن يسلم نفسه في الموت مكان سيده. فأما هذه العطية فلا ينبغي لنا معشر العبيد أن ندنو منها. فأما جوبر ابنك فهو لنا أهل فليأخذ ما أعطيته.

فقال الملك: إنه قد شاع لنا في هذا ثناء وخير كبير فلا تحتشمن يا إيلاذ وخذ نصيبك وقرّ به عيناً.

فقال إيلاذ: ليكن من ذلك ما أحب الملك أن يبدأ بأخذ ما يريد فليفعل. فأخذ الملك الفيل الأبيض وأعطى جوبر أحد الفرسين وأعطى إيلاذ السيف الخالص الحديدية وأعطى كال الكاتب الفرس الآخر وبعث إلى كنان أبزون باللباس الذي تلبسه الملوك. وأما الإكليل وسائر اللباس وما كان يصلح للنساء فقال لإيلاذ: خذ الإكليل والثياب احملها معي واتبعني إلى النساء. فدعا الملك زوجته إيراخت وكورقناه فجلستا بين يديه، وقال الملك: يا إيلاذ ضع الإكليل والكسوة بين يدي إيراخت فلتأخذ أيها شاءت. فلما نزلت إيراخت إلى الإكليل وعجبه نظرت إلى إيلاذ بمؤخر عينها ليريها أيهما أفضل فأراها إيلاذ الثياب وأشار إليها بأخذها، فحانت من الملك التفاتة فرأى إيلاذ. فلما رأت إيراخت أن الملك قد أبصر إيماءه إليها بعينه تركت الذي أراها إيلاذ وأخذت الإكليل. فعاش إيلاذ بد ذلك أربعين سنة كلما دخل على الملك كسر عينيه لئلا يظن الملك أنه أراها شيئاً. ولولا عقل إيراخت وعقل إيلاذ لم ينج واحد منهما من الموت.

وكان الملك يقضي ليلة عند إيراخت وليلة عند كورقناه، فأتى الملك إيراخت في ليلة وقد صنعت له أرزاً فدخلت على الملك وفي يدها صحيفة من ذهب والإكليل على رأسها فقامت على رأس الملك بالصحفة وهو يطعم منها. فلما رأت كورقناه الإكليل على رأس إيراخت غارت على إيراخت فلبست تلك الثياب فظهر حسنهما مثل الشمس ومرت بين يدي الملك فاشتاق إلى كورقناه وقال لإيراخت: لقد كنت جاهلة حين أخذت الإكليل وتركت الكسوة التي ليس في خزائننا مثلها.

فلما سمعت إيراخت ذلك من قوله ومدحه كورقناه وتسفيه رأيها ألبست الغيظ والغضب فضربت الصحيفة التي كانت في يدها رأس الملك فسال الأرض على رأسه وعلى جسمه. وكان ذلك تصديق الحلم الذي كان كنان أبزون شرح للملك بطرف منه ولم يكن بيته له. فدعا الملك إيلاذ فقال: يا إيلاذ ألا ترى إلى ملك العالم كيف حقرتة هذه المرأة وعملت به ما علمت، فانطلق بها واضرب عنقها ولا ترحمها.

فخرج إيلاذ بإيراخت من عند الملك وقال في نفسه: ما أنا بقاتلها حتى يسكن غضب الملك، فإنها امرأة عاقلة سعيده من الملكات ليس لها من بين النساء عدل في الحلم والعقل وليس الملك بصابر عنها. وقد خلص بها إلى اليوم أناس كثير من الموت وعملت أعمالاً صالحة ورجاؤنا فيها اليوم عظيم، ولست آمن أن يقول: "ما استطعت أن تؤخر قتلها؟". فلست قاتلها حتى أنظر ما رأي الملك فيها، فإن ندم على قتلها وحزن جنّته بها حية، وكنت قد عملت ثلاثة أعمال عظام: نجيت إيراخت من القتل، وسلّيت حزن الملك، واقتخرت بذلك على الناس. وإن لم يذكرها أمضيت أمره فيها.

فانطلق بها إيلاذ سراً إلى منزله فوكل بها رجلين من أمناء الملك الذي يلون نساءه وأمر أهله بحفظها وإكرامها حتى ينظر كيف يكون آخر أمرها. ثم خضّب إيلاذ سيفه بالدم ودخل على الملك كئيباً حزيناً، فقال للملك: قد أمضيت أمرك في إيراخت.

فلم يلبث الملك أن سكن غضبه فذكر جمال إيراخت ورأيها وعظم عنائها وجسيم منفعتها فاشتد حزنه وجعل يقوّي نفسه ويتجلد وهو على ذلك يستحيي أن يسأل إيلاذ: أأمضى أمره حقاً فيها أم لا. وجعل يرجو لها البقاء لعلمه بعقل إيلاذ أن لا يكون قتلها. ونظره إيلاذ بفضل علمه فقال: لا أحزن الله الملك ولا يهتمّن فإنه ليس في الغم والحزن منفعة، ولكنهما ينحلان الجسم ويفسدانه مع ما يدخل على أهل الملك أيضاً من الحزن إذا حزن، وفرح أعداؤه وشمّتوا به، وإنه إذا سمع بهم لم يعدم من صاحبه عقلاً ولا علماً. فاصبر أيها الملك ولا تحزن على ما لست بناظر إليه أبداً وإن أحبّ الملك حديثه حديث شبيه بأمره هذا.

قال الملك: حدثني به.

### مثل الحمامتين

قل إيلاذ: زعموا أن حمامتين ذكرأ وأنثى ملأ عشهما من البر والشعير فقال الذكر للأنثى: إننا إذا وجدنا في الصحارى ما نعيش به فلسنا بأكليين مما في عشنا شيئاً. فإذا جاء الشتاء ولم نصب في الصحارى شيئاً أقبلنا على ما جمعناه فأكلناه. فرضيت الأنثى بذلك وقالت: نعم ما رأيت وسنفعل ما ذكرت. وكان البر والشعير ندياً حين وضعاه فامتلا عشهما فانطلق الذكر إلى مكان تغيب فيه فأبطأ. فلما كان الصيف يبس ذلك الحب وذبل فنقص مما كان. ثم رجع الذكر فرأى ذلك الحب ناقصاً فقال للأنثى: قد كنا أجمعنا على أن لا نأكل من عشنا شيئاً فلم أكلت منه. فحلفت الأنثى أن "ما أكلت منه حبة"، فلم يصدقها وجعل ينقدها حتى قتلها. فلما جاء الشتاء والأمطار ندي الحب فامتلا العش كما كان. فلما رأى الذكر أن العش قد امتلأ اضطجع إلى جانبها نادماً وقال: كيف ينبغي لي العيش إذا طلبتك فلم أقدر عليك. فمن كان عاقلاً علم أنه لا ينبغي أن يعجل بالعذاب والعقوبة لا سيما بعذاب من يخاف أن يندم على عذابه كما ندم الحمام الذكر.

وقد سمعت أن رجلاً كان على ظهره كارة من عدس فدخل بين الشجر فوضع حملة ثم رقد. فنزل قرد من شجرة كانت فوق رأسه فأخذ ملء كفه من ذلك العدس ثم صعد إلى الشجرة فسقطت من يده حبة فطلبها فلم يجدها وانتثر العدس من يده. وأنت أيها الملك تحت أمرك عدد لا يحصى من الإماء وتطلب ما لا تجد.

فلما سمع الملك ذلك خشي أن تكون إيراخت قد هلكت فقال إيلاذ: في سقطة واحدة كانت مني فعلت ما أمرتك به من ساعتك وتعلقت بكلمة واحدة ولم تنتبث في الأمر؟

قال إيلاذ: إن الذي قوله واحد لا يختلف فيه هو واحد فقط.

قال الملك: ومن ذلك؟

قال إيلاذ: ذلك الله الذي لا يبدل كلامه ولا يخلف قوله.

قال الملك: لقد اشتد حزني بقتل إيراخت أم جوبر.

قال إيلاذ: إثنان فرحهما في الدنيا ونعيمهما قليل حين يعاينان الشر: الكافر الذي يقول لا حساب ولا عقاب والذي لم يعمل براً قط.

قال الملك: لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن على شيء أبداً.

قال إيلاذ: إثنان لا ينبغي لهما أن يحزنا: المجتهد بالبر كل يوم والذي لم يأثم قط.

قال الملك: أفما أنا بناظر إلى إيراخت بعد هذا؟

قال إيلاذ: إثنان لا ينظران أبداً: الأعمى والذي لا عقل له. فكما أن الأعمى لا يبصر سماء ولا نجومًا ولا أرضاً ولا يبصر البعيد من القريب، ولا أمامه ولا خلفه، كذلك الذي لا عقل له لا يبصر ولا يعرف العالم من الجاهل ولا الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء.

قال الملك: لو رأيت إيراخت لاشتد فرحي.

قال إيلاذ: إثنان هما فرحان: البصير والعالم. فكما أن البصير يبصر نور العالم وما فيه، كذلك العالم يبصر البر والإثم ويعرف أمر الآخرة ويستبين له، ومتى تبعه نجاه وهداه إلى صراط مستقيم.

فقال الملك: ما شعبت من رؤية إيراخت قط.

قال له إيلاذ: إثنان لا يشبعان أبداً: الذي لا همّ له إلا جمع المال والذي يأكل ما وجد ويسأل ما لا يجد.

فقال الملك: إنه لينبغي لنا أن نتباعد منك يا إيلاذ فإن من مثلك حذر ونهي.

فقال إيلاذ: إثنان ينبغي أن نتباعد منهما: الذي يقول لا بر ولا إثم، والذي لا يستطيع صرف بصره عما ليس له ولا أذنه عن استماع السوء، ولا ميله إلى نساء غيره ولا قلبه عما تهمّ به نفسه من الإثم والحرص. وأخرى من ذلك الندامة الهرب من عذاب جهنم.

قال الملك: صرت من أمر إيراخت صفراً.

قال إيلاذ: أربعة أشياء هم أصفار: النهر الذي ليس فيه ماء، والأرض التي ليس فيها ملك، والمرأة التي ليس لها بعل، والجاهل الذي لا يعرف الخير من الشر.

قال الملك: إنك لتلقي الجواب يا إيلاذ.

فقال إيلاذ: ثلاثة يلقون الجواب: الملك الذي يقسم ويعطي من خزانته، والمرأة المهية لبعض من تهوى من ذوي الأحساب، والرجل العالم الموفق المعلم دين الله.

قال الملك: إنك لتحزنني بتعزيتك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يحزنوا: الذي فرسه سمين حسن المنظر سيء المخبر، وصاحب المرقعة التي كثر ماؤها وقلّ لحمها فصارت لا طعم لها، والذي لا يقدر على إكرام زوجته ذات الحسب فا تزال تسمعه ما يؤذيه.

قال الملك: أهلكت إيراخت ضيعة؟

قال إيلاذ: ثلاثة بضيعون في غير الحق: الرجل الذي يلبس الثياب البيض ولا يزال عند الكبير جالساً فيسودّها بالدخان، والقصار الذي يلبس الخفين الجديدين ولا يزال قدماء في الماء، والرجل التاجر الغني الذي لا يزال غائباً بأرض بعيدة فلا يستمتع بغناه.

قال الملك: إنك لأهل أن تعذب أشد العذاب يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يعذبوا: المجرم الذي يعاقب من لا ذنب له، والمتقدم إلى مائدة لم يدع إليها، والذي يسأل أصدقاءه ما ليس عندهم ولم يدع مسألتهم.

قال الملك: إنه لينبغي لك أن تسقه يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يسقّوها: النجار الذي ينزل البيت الصغير بأهله ثم لا يزال ينجر الخشب فيملأ بيته من الحطب ويصير هو وامراته في ضيق، والطبيب الذي يعمل بالوسى ولا يحسن الالتقاء فيقطع لحوم الناس،

والغريب المقيم بين ظهر عدوه ولا يريد الرجوع إلى أهله ووطنه. وإن مات في غربته أيضاً ورثوه فيصير ماله للغرباء وينسى ذكره.

قال الملك: كان ينبغي أن تسكن حتى يذهب غضبي يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يسكنوا: الذي يرقى الجبل الطويل، والذي يصيد السمك، والذي يهّم بالعمل الجسيم.

قال الملك: لينتي قد رأيت إيراخت.

قال إيلاذ: ثلاثة يتمنون ما لا يجدون: الفاجر الذي لا ورع له ويريد إذا مات منزلة الأبرار ويرجو مثل ثوابهم، والبخل الذي ينزل نفسه منزلة الكري، والظالمون الذي يسفكون الدماء بغير حقها ويرجون أن تكون أرواحهم مع أرواح السعداء أهل الرأفة والرحمة.

قال الملك: أنا الذي أوجعت نفسي بإيراخت.

قال إيلاذ: ثلاثة هم الذين أوجعوا أنفسهم: الذي يأتي القتال ولا يتقي فيقتل، والكثير المال الذي لا ولد له ولا أخ وتجارته في الربا والغلاء على الناس فربما حسده بعضهم فأهلكه، والشيخ الكبير يخطب المرأة الشابة فلا تزال تتمنى موته.

قال الملك: إنني لحقير في عينك يا إيلاذ حين تجترئ أن تقول مثل هذه المقالة بين يدي.

قال إيلاذ: ثلاثة يحقرون أربابهم: الذي يجترئ ويهذي بالكلام ويقول ما يعلم وما لا يعلم، والمملوك الغني الذي سيده فقير فلا يعطي سيده من ماله شيئاً ولا يعينه به، والعبد الذي يغلط لسيده في القول ويخاصمه ثم يستطيل عليه في الخصومة.

قال الملك: إنك لتسخر بي يا إيلاذ، وددت أن إيراخت لم تكن ماتت.

قال إيلاذ: ثلاثة ينبغي لهم أن يسخر منهم: الذي يقول: "قد شهدت زحواً كثيرة فأكثررت القتل والسبي" فلا يرى في جسده أثر من القتال، والذي يخبر أنه عالم بالدين ناسك مجتهد وهو يعيش التنعّم والرفاهية تراه أسمن من الأثمة الفجار، فذلك ينبغي أن يخسر منه ويتهّم فيما أخبر عن نفسه. فإنّ من أذاب نفسه في طاعة الله يكون مهزول الجسم قليل الطعم، والمرأة التي تسخر من ذات الزوج ولعلها أن تكون بذية.

قال الملك: إنك لمتجبر يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة يتجبرون: الجاهل الذي يعلم السفية ويقبل منه ويماريه فيصير أمره إلى ندامة، والذي يهيج السفية ويتحرّش به متمعداً أذاه فيؤذي بذلك نفسه، والذي يفضي سره إلى من لا يختبره ويدخله في الأمر العظيم ويثق به ثقته بنفسه.

قال الملك: أنا الذي جلبت المشقة على نفسي.

قال إيلاذ: إثنان هما اللذان يجلبان المشقة على أنفسهما: الذي ينكص على عقبيه ويمشي القهقري فربما عثر فيتردى في بئر أو يقع في مهواة، والذي يقول "أن من كمة الحرب" فيغرّ غيره، فإذا حضر الناس للقتال تلقت يميناص وشمالاً فيحتال للفرار.

قال الملك: لقد تصرّم ما بيني وبينك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة لا يلبث ودهم أن يتصرّم: الخليل الذي لا يلاقي خليله ولا يكتبه ولا يرأسه، والخل الذي يكرمه أحباؤه ولا ينزل ذلك منزلته ولا يقلبه بقبوله ولكنه يستهزئ بهم ويسخر منهم، والقاصد خلانه في النعيم والفرح وقرة العين يسألهم الأمر الذي يقدرن عليه ثم لا يثيبهم على ذلك شيئاً.



قال الملك: قد عملت بقتل إيراخت عملاً يستدل به على خفة حلمك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة يعملون بجراتهم ما تستبين به خفة أحلامهم: المستودع ماله من لا يعرف أمانته، والأبله القليل العقل الجبان الذي يخبر الناس أنه شجاع مقاتل بصير بجمع المال واتخاذ الأخلاء وبناء البنيان وهو كاذب في كل ما ذكر، والذي يزعم أنه تارك أمور الجسد مقبل على أمور الروح وهو لا يلقى إلا متابعاً لهواه تاركاً لأمر الله وتنفيذ وصيته.

قال الملك: إن ك لغير عاقل يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثلاثة لا ينبغي لهم أن يعدوا من ذوي العقل: الإسكاف الذي يجلس على المكان المرتفع فإذا تدحرج شفاؤه أو شيء من أدواته شغله عن كثير من عمله، والخياط الذي يطيل خيطه فإذا تعقد شغله عن كثير من عمله، والذي يقص أشعار الناس ويلتفت يميناً وشمالاً فيفسد شعورهم فيستوجب بما أذنب العقوبة.

قال الملك: كأنك تريد يا إيلاذ أن تعلم الناس كلهم حتى يمهروا مثلك فتريد أن تعلمني حتى أكون ماهراً.

قال إيلاذ: ثلاثة زعموا أهم قد مهرروا وينبغي أن يتعلموا: الذي يضرب بالصنج والعود والطبل ولا يوافق المزمار وسائر الألحان، والمصور الذي يحسن خط التصاوير ولا يحسن خلط الأصباغ، والذي يزعم أنه ليس محتاجاً إلى علم شيء من الأعمال وأنه بالأعمال والصناعات كلها عالم ولا يبصر غور الكلام وكيف هو وفي أي ساعة له أن يكلم من هو فوقه ومن هو دونه.

قال الملك: لم تعمل بحق إذا قتلت إيراخت.

قال إيلاذ: أربعة يعملون بغير حق: الذي لا يصدق لسانه ولا يحفظ قوله، والسريع في الأكل والبطيء في العمل وخدمة من فوقه، والذي لا يستطيع أن يسكن غضبه قبل خزي الذنب، والملك الذي يهمل بالأمر العظيم ثم يتركه.

قال الملك: لو علمت بسنتي لم تقتل إيراخت.

قال إيلاذ: أربعة يعملون بسنة: الذي يصنع الطعام لحينه ويهيئه فيقدمه لسيده لأوانه، والذي يرضى بامرأة واحدة ويصرف نظره عن ساء غيره ممن لا يحل له، والملك الذي يعمل الأمر العظيم بمشاورة العلماء، والرجل الذي يقهر غضبه.

قال الملك: لقد عدمت الخير يا إيلاذ.

قال إيلاذ: أربعة هم الذي عدمو الخير: المملوء جسمه ظلماً وإثماً، والخسيع المعجب بنفسه، والذي قد تعود السرقة، والسريع الغضب البطيء الرضا.

قال الملك: ما ينبغي لنا أن نثق بك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: أربعة لا يوثق بهم: الحية الماردة، وكل سبع مخوف من الحيوان، والأثمة الفجار، والجسد الذي قضى عليه بالموت.

قال الملك: إن ذوي الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا.

قال إيلاذ: أربعة لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا: الملك العظيم السلطان، والناسك المتعبد، والرجل الساحر الخسيع، واللئيم الخلق الشره الطبيعية.

قال الملك: ما ينبغي لنا مخالطتك يا إيلاذ بعد قتلك إيراخت.

قال إيلاذ: أربعة لا يخالط بعضهم بعضاً: الليل والنهار، والبر والفاجر، والنور والظلمة، والخير والشر.

قال الملك: ما ينبغي لأحد أن يثق بك يا إيلاذ أبداً.

قال إيلاذ: أربعة لا يوثق بهم: اللص والكذوب والمذاق والحقود المتسلط.

قال الملك: لم يصبني حزن كحزني على إيراخت.

قال إيلاذ: خمس من النساء ينبغي أن يحزن عليهن: الكريمة الحسب ذات الشرف العظيم، والعاقلة اللينة العالمة، والحليمة الطاهرة الجيب، والحصان الميمونة الطائر، والمواتية لبعلمها الراضية المتحننة عليه.

قال الملك: من ردّ عليّ إيراخت حية فله عندي من المال ما أحب.

قال إيلاذ: خسمة المال أحب إليهم من أنفسهم: الذي يقاتل بالأجرة لا نية له في القتال إلا إصابة أجرته، واللس الذي ينقب البيوت ويقطع الطريق فتقطع يده أو يقتل، والتاجر الذي يركب البحر يطلب جمع المال، وصاحب السجن الذي منه أن يكثر أهل سجنه ليصيب منهم، والمرتشي في الحكم.

قال الملك: قد أثبت في نفسي عليك حقداً بقتلك إيراخت يا إيلاذ.

قال إيلاذ: أربعة الحقد بينهم ثابت: الذئب والخروف، السنور والفأرة، البازي والدراج، واليوم والغراب.

قال الملك: ليس تأخذني سنة ولا نوم من حزني على إيراخت.

قال الملك: لقد كرهت قتل إيراخت.

قال إيلاذ: سبعة أشياء مكروهة: الشيوخوخة التي تسلب الشباب البهاء، والوجع الذي ينحل الجسم وينزف الدم، والغضب الذي يفسد علم العلماء وحكم الحكماء، والهّم الذي ينقص العقل ويسلّ الجسم، والبرد الذي يضرّ، والجوع والعطش اللذان يجهدان كلّ شيء ويخزيانه، والموت الذي يفسد جميع البشر.

قال الملك: غبنتني وغبنت نفسك يا إيلاذ.

قال إيلاذ: ثمانية يغبنون أنفسهم وغيرهم: ذو العلم القليل يتكلف أن يعلم الناس كثيراً، والرجل العظيم ذو العقل وليس يدري فطنة، والذي يطلب ما لا يدرك ولا ينبغي له إدراكه، والبذيء الفجور الأشتر العادي طوره المستعني برأيه عن مشاورة الأخلاء من أهل العقل والنصح له، وموارب الملوك والعظماء ولا حلم له ولا علم، ومطلب العلم الذي يخاصم فيه من هو أعلم به منه ولا يقبل منه ما علمه، ومجامل الملوك غير مانح لهم الصفاء ولا باذل لهم ودّ صدره، وملك قهرمانة وخازنه كذاب مهذار سيء الطبيعة لا يقبل الأدب من مودب.

ثم سكت إيلاذ وعلم أن الملك قد اشتدّ حزنه على إيراخت واشتاق إلى رؤيتها، فقال له الملك: ما بالك سكت يا إيلاذ.

قال: أيها الملك إنني قد تطاولت عليك فيما امتحتك به ما آل إليه أمرك في إيراخت. وأنا الآن حقيق بأن آتي الملك بهذه التي أحبها هذا الحب وحرص على رؤيتها أشدّ الحرص وحلم على عقوبتي مع طول تبصرتي إياه في أشياء كثيرة وتطرفي له في القول. فإنه ليس في الأرض ملك مثلك ولا شبيه بك، ولا كان فيما مضى ولا يكون ذلك إلى آخر الأبد إذ لم يسليك الغضب حلمك. وأنا مع رقة شأني وصغر خطري أقول ما أقول ولكن لم تنزل عليك السكينة والوقار مع سواك في العلم والحلم ولين الكنف لحب السلامة والخير مع جميع الناس. فإنك لكرم أصلك وسعة حلمك ملكك نفسك وصرت على ما سمعت مني مع صغر أمري ورقة شأني. فأشكر لك أيها الملك إذ لم تأمر بقتلي وها أنذا قائم بين يديك قد فعلت الذي فعلت لنصحي وحيي لك. فإن كانت دخلت هذه في معصية فإن لك الحجة والسلطان على عقوبتي وقتلي.

فلما سمع الملك أن إيراخت أم جوبر هي حية اشتدّ فرحه وقال لإيلاذ: إنه كان يمنعي من الغضب عليك ما علمت من نصيحتك وصدق حديثك. وكنت أرجو لمعرفتي بحلمك ألا تكون قتلك إيراخت. فإنها تفعل ذلك لعداوة ولا لطلب مضرة لكنها فعلت لغيرة. وكان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك وأحتلمه ولا أغضب لأن يعرف أن

الذنب كان لي، وإن كنت مستيقناً أنك تعلم أنني لم أمرك بما أمرتك فيها من القتل إلا وأنا نادم على ما أمرتك، لكنك أردت أن تجرب الملك أو تتركه في شك وخفت أن أعاقبك إن قلت "لم أقتلها". ومعاذ الله أن يكون ذلك رأي وأن أكون فاعلاً ذلك بك. ولكن لك حق شاكر فانطلق فأتني بإيراخت واردها علي.

فخرج إيلاذ من عند الملك وأمر إيراخت أن تتزين وتلبس ثيابها ففعلت ذلك. ثم انطلق بها إلى الملك فدخلت عليه وقبّلت رأسه. فلما رآها اشتد فرحه وقال: افعلي ما أحببت فلا أصرف هواك عن شيء.

قال إيراخت: أدام الله ملككم إلى الأبد فكيف لولا رافتكم وسعة أحلامكم تندمون على ما كان منكم في أمري هذه الندامة. فإنكم لو لم تذكروني آخر الأبد لكنت لذلك أهلاً للذي كان مني حتى أمر الملك بقتلي. وبرافتكم شرككم إيلاذ في كفه عن قتلي. ولولا ثقة إيلاذ بسعة أحلامكم مع رافته وعدله ووفائه لأنفذ ذلك الأمر وأهلكني.

قال الملك لإيلاذ: إنك قد اصطنعت عندي ما وجب به شكرك ولما لم يره ملك من عبيده لم يصطنع إليّ أمر أعظم عندي من أنك لم تقتل إيراخت، بل أحبيبتها بعد ما قتلتها أنا فوهبتها إليّ اليوم ورددتها عليّ فلم أكن قط أَرْضى عنك مني اليوم.

قال إيلاذ: أنا عبدك وحاجتي اليوم ألا تعجل بعدها في الأمر العظيم الذي يندم عليه وتكون عاقبته الهم والحزن كما رأيت، ولا سيما في أمر هذه التي لا يوجد لها في الأرض شبيه.

قال الملك: لحقنا قلت يا إيلاذ وقد قبّلت قولك في كل ما أمرت به فكيف في مثل هذا الأمر العظيم الذي قد مرّ بي. فإني لست عاملاً بعده صغيراً ولا كبيراً إلا بعد المؤامرة والنظر والتؤدة. ثم إن الملك أعطى تلك الثياب إيراخت ودخل معها إلى مكان نسائه فرحاً مسروراً. ثم اتّمر بعد ذلك هو وإيلاذ في قتل أولئك البراهمة الذين أرادوا هلاك حشم الملك وأهله فقتلوا ونهبوا ونفوا من الأرض. وقرّت أعين عظماء أهل مملكته وحمد الله وأثنى عليه وشكر لكنان أبزون فضل علمه وسعة حلمه لأن بعلمه كان خلاص الملك وزوجته وولده والوزراء الصالحين الذين هم أحب الخلق إليه.

فهذا باب الحلم والعقل والأدب.

### باب السنور والجرذ

قال الملك: قد فهمت مثل من يعجل بالأمر ولا يعمل بالتثبت، فاضرب إن رأيت مثل رجل كثر أعداؤه فأحدقوا به من كل جانب وأشفى على الهلكة فالتمس النجاة بموالة بعض العدو ومصالحته فسلم مما تخوف ووفى لمن صالحه منهم. فأخبرني عن موضع الصلح وكيف يُلتَمَس ذلك.

قال الفيلسوف: إن العداوة والولاء والمودة والبغض ليس كلها تثبت وتدوم. وكثير من المودة تتحول بغضاً، وكثير من البغض يتحول مودة. ولهذا حوادث وعلل وتجارب. وذو الرأي يجد لكل ما حدث من ذلك رأياً جديداً، فمن قبل العدو بالبأس وأما من قبل الصديق فيالاستئناس. فلا يمتنع ذا العقل عداوة كانت في نفسه لعدوه من مقاربتة والتماس ما عنده إذا طمع فيه لدفع مخوف أو جرّ مرغوب. ولا يقصّر في الرأي في إحداث المواصلّة والمودعة. ومن أبصر ذلك الرأي وأخذ فيه بالحزم ظفر بحاجته. ومن أمثال ذلك السنور والجرذ اللذان اصطاحا لما وقعا في ورطة شديدة فكان في ذلك صلاحهما جميعاً ونجاتهما.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيديا الفيلسوف: زعموا أنه كان بمكان كذا وكذا شجرة من الدوح في أصلها جحر لسنور يقال له روميّ وجحرٌ لجرذ يقال له فريدون. وكان الصيادون ربما التمسوا صيد الوحوش والطير قرب تلك الشجرة. وإن صياداً نصب حبال له فوق فيها الرومي وخرج الجرذ ليلتقي ما يأكل وهو مع ذلك حذر يتلفت وينظر. فلما رأى السنور مقتنصاً في الحبال فرح. ثم التفت خلفه فأبصر ابن عرس قد تبعه وكمن له. ونظر فوقه فإذا بومة على شجرة ترصده. فخاف إن انصرف عاجلاً راجعاً أن يثب عليه ابن عرس، وإن ذهب يميناً أو شمالاً أن تختطفه البومة، وإن تقدم فالسنور أمامه. فقال: هذا بلاء قد كنفني وأشرار تظاهروا عليّ ولا مفزع إلا إلى عقلي وحيلتي فلا يكون من شأني الدهش ولا يذهبن قلبي شعاعاً، فإن العاقل لا يتفرّق رأيه ولا يعزب عنه عقله على حال وإنما عقول ذوي الأبواب كالبحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ البلاء من ذي الرأي مجهود عقله فيهلكه ولا

ينبغي له أن يبلغ رجاؤه مبلغاً يبطره ويسكره ويغشي أمره. ثم قال: لا حيلة أقرب من التماس صلح السنور، فإن السنور قد نزل به بلاء، ولعلي أقدر على خلاصه، ولعله إن سمع مني ما أكلمه من الكلام الصحيح الصادق الذي لا خداع فيه وفهمه عني وطمع في معونتي يكون لي وله في ذلك خلاص.

ثم دنا من السنور فقال: كيف حالك؟

قال السنور: كما تحب أن تراني في الضنك والضيق.

قال الجرذ في نفسه: والله لا أكتمته شيئاً مما في فكري. ثم قال له: لعمري إن كنت سابقاً أسراً بما يسوؤك وأعد كل ضيق عليك سعة لي، ولكني اليوم قد شاركتك في البلاء. فلا أرجو لنفسك خلاصاً إلا بالأمر الذي أرجو لك به الخلاص، فذلك الذي عطفني عليك، وستعرف مقالتي أنه ليس فيها كذب ولا مخادعة. قد ترى مكان ابن عرس كامناً لي، ومكان البومة تريد اختطافي وكلاهما لي ولك عدوٌ وهما يخافانك ويتقيانك. فإن أنت جعلت لي إن أنا دنوت منك أن تؤمنني فأنجو بذلك منهما، فأنا قاطع حبالك ومخلصك مما أنت فيه. فاطمئن إلى ما ذكرت لك وثق به مني فإنه ليس أحد أبعد إلى الخير من اثنين منزلتهما واحدة وصفتهما مختلفة، أحدهما ممن لا يثق به أحد والآخر ممن لا يثق بأحد. ولك الوفاء عندي بما جعلت لك من نفسي فاقبل مني واسترسل إلي ولا تؤخر، فإن العاقل لا يؤخر عمله. ولتطب نفسك ببقائي كما طابت نفسي ببقائك فإن كل واحد منا ينجو بصاحبه كالسفينة والركاب في البحر. فالسفينة تخرج الركاب من البحر وبهم تخرج السفينة إلى البر.

فلما سمع السنور مقالت الجرذ عرف أنه صادق وسره ذلك وقال للجرذ: أرى قولك شبيهاً بالحق والصدق وأنا راغب في هذا الصلح الذي أرجو به لنفسك ولك الخلاص. ثم سأشكر لك ما بقيت وأجازيك به أحسن الجزاء.

قال الجرذ: فإذا دنوت منك فلير ابن عرس والبومة ما يعرفان به صلحنا فينصرفان أنسين وأقبل على قرض حبالك.

فلما دنا الجرذ من السنور واستبطأه هذا في قرض رباطه قال: ما لك لا تجد في قطع رباطي؟ فإن كنت حين ظفرت بحاجتك عدلت عما كنت عليه وتوانيت في حاجتي فليس هذا للكرم بخليق أن يتوانى في حاجة صاحبه إذا استمكن من حاجة نفسه. وقد كان لك في عاجل مودتي من النفع والاستنقاذ من الهلكة ما قد رأيت، وأنت حقيق أن تكافئني ولا تذكر عداوة كانت بيني وبينك. والكرم حقيق أن تنسيه الخلعة الواحدة من الإحسان خلال الكثيرة من الإساءة. وأعجل العقوبة عقوبة الغدر واليمين الكاذبة. ومن إذا تضرع إليه وسئل العفو لم يعف ولم يغفر فقد غدر.

قال الجرذ: الصديق صديقان: طائع ومضطّر وكلاهما يلتمس المنافع ويحترس من المضار. فأما الطائع منهما فاسترسل إليه واعمل له على كل حال. وأما المضطر فإن له حالات يسترسل إليه فيها وحالات يتقى فيها فلا يزال يرتهن منه بعض حاجته ببعض ما قد يتقى ويخاف. وليس عامة التواصل والتحاب بين الخلق إلا لالتماس عاجل النفع أو موجه. وأنا واف لك بما وعدتك ومحترس في ذلك من أن يصيبني مثل ما أجباني إلى صلحك. فإن لكل عمل حيناً وما لم يكن في حينه فلا عاقبة له، وأنا قاطع حبالك لحينها غير أنني تارك عقدة أرتهنها منك فلا أقطعها إلا في الساعة التي أعلم أنك عني فيها مشغول.

ففعل كما قال وقرض حبال السنور. وبينما هو كذلك إذ رأى بالصيد قد أقبل من بعيد، فقال الجرذ: الآن جاء موضع الجد في قطع حبالك. فجهد الجرذ نفسه في القرض، فما كاد ينتهي من العمل حتى وثب السنور إلى الشجرة فصعداها، وانجر الجرذ في غفلة. فلما وصل الصيد وجد حباله مقطوعة فانصرف خائباً.

ثم خرج الجرذ من بعد ذلك من جحره فرأى السنور من بعيد فكره أن يدنو منه فناده السنور: أيها الصديق ذا البلاء الحسن ما يمنعك من الدنو مني لأجزيك بأحسن ما أبليتني؟ هلم إلي ولا تقطع إخواني فإنه من اتخذ صديقاً وأضاع صداقته حرم ثمرة الإخاء وأُس من نفعه الإخوان. وإن لك عندي اليد التي لا تنسى. فأنت جدير أن تلتبس مكافأة مني ومن أصدقائي فلا تخافن مني شيئاً. وأعلم أن ما قبلي لك مبذول.

ثم حلف واجتهد على أن يثبت عنده صدقه بما قال فأجابه الجرذ: إنه ربّ عداوة باطنة ظاهرها صداقة وهي أشد ضرراً من العداوة الظاهرة. ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذي يركب ناب الفيل ويقتله. وإنما سمي الصديق صديقاً لما يُرجى من نفعه والعدو عدواً لما يخاف من ضرره. فإن العاقل إذا رجا العدو أظهر له

الصداقة، وإذا خاف ضرر الصديق أظهر له العداوة. أو لا ترى تباع البهائم إنما تتبع أمهاتها رجاءً لألبانها، فإذا انقطع ذلك انصرفت عنها. وكما أن السحاب يتهياً ساعة وينقطع أخرى ويقطر ساعة ويمسك أخرى، كذلك العاقل يتلون مع متلونات الأمور على اختلاف الحالات بين الإخوان والأصحاب، فينبسط مرة وينقبض أخرى، ويتجلد مرة ويستنكر أخرى. وربما قطع الصديق عن صديق ما كان يصله به فلا يخاف شره لأن أصل أمره لم يكن عداوة. فأما من كان أصر أمره عداوة ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك فإنه إذا ذهب الأمر الذي أحدث ذلك صار إلى أصل أمره كالماء الذي يسخن بالنار، فإذا رفع عنها عاد بارداً. ولا عدوً أضر لي من عداوة مثلك بعد أن كان بيننا من الود والصفاء ما قد كان، وبعد ائتلافنا واسترسال بعضنا إلى بعض. وقد اضطررتي وإياك حاجة أجدت كل واحد منا إلى صاحبه ما أجدتنا من المصالحة. فقد ذهب الأمر الذي احتجت إليّ فيه واحتجت إليك فيه فأخاف مع ذهابه عود العداوة. ولا خير للضعيف في قرب العدو القوي ولا للذليل في قرب العدو العزيز، ولا أعلم لك حاجة إليّ إلا أن تريد أكلي ولا أرى لك الثقة بي. فإني قد علمت أن العدو الضعيف أقرب إليّ أن يسلم من العدو القوي إذا احتس منه ولم يغتر به من القوي إذا اغتر بالعدو الضعيف واسترسل إليه. والعاقل يصانع عدوه إذا اضطر إليه ويظهر له وده ويريد من نفسه الاسترسال إليه، إذا لم يجد من ذلك بداً، ويعجل الانصراف عنه إذا وجد إلى ذلك سبيلاً. وأعلم أن صريع الاسترسال لا يكاد تستقيل صرعته والعاقل يفي لمن صالح بما جعل له ولا يثق لنفسه بمثل ذلك من أحد ولا يؤثر على البعد من عدوه ما استطاع. فالبعد لك من الصياد والبعد لي منك أحزم الرأي. وأنا أودك من بعيد وعليك أن تجزيني بمثل ذلك إن رأيت ولا سبيل إلى اجتماعنا.

فهذا باب مبصر فرصته في مصالحة عدوه والأخذ بالاحتراس منه.

### باب الملك والطير فئزة

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت مثل الرجل يحيط به أعداؤه فيستظهر من بعضهم ويصالحه حتى يتخلص بذلك مما يخاف ويسلم. فاضرب لي إن رأيت مثل أهل التراث الذين ينبغي لبعضهم أن يتقي بعضاً.

قال الفيلسوف: زعموا أن ملكاً من الملوك يقال له برهمون كان له طائر يقال له فئزة وكان ناطقاً كئيساً وكان معه فرخ له. فأمر الملك بفئزة وفرخه أن يجعلا بمكان عند امرأته سيده نسلته وأوصاها بهما. واتفق أن امرأته ولدت غلاماً فألف الفرخ الغلام فجعلا يلعبان جميعاً ويطعمان جميعاً. وكان فئزة يذهب كل يوم إلى الجبل فيجيء بثمرين من الفاكهة فيطعم أحدهما فرخه والآخر ابن الملك. فأثر ذلك في نموتهما وقوتهما حتى استبان ذلك للملك فزادت عنده كرامة فئزة، حتى إذا كان ذات يوم وفئزة غائب في اجتناء الثمر وثب فرخه من حجر الغلام طائراً فارتاع الغلام من ذلك وغضب فأخذ الفرخ وضرب به الأرض فقتله. فلما جاء فئزة ورأى فرخه مقتولاً حزن وصاح وقال: "ترحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء. وويل لمن ابتلي بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ولا رحيم ولا يحبون أحداً. ولا يكرم عليهم إلا من قضوا منه حاجتهم فلا ود ولا إزاء. ولا البلاء الحسن مجازي عندهم ولا الذنب مغفور. وليس أمرهم إلا الفخر والرياء والسمعة. وكأن عظيم من الذنوب يركبونه هو عندهم صغير وعليهم هين. وإنني لأنتقم اليوم من الكفور الذي لا رحمة له، الغادر بإلفه وتربه وصاحبه وملاعبه ومؤاكله". ثم وثب في وجه الغلام ففأ عينه بمخلبه، ثم طار إلى مكان مشرف حزينا.

فبلغ ذلك الملك فجزع أشد الجزع ثم طمع أن يحتال لفئزة فيظفر به. فركب إليه ووقف عليه وناداه باسمه وقال: أنت آمن فأقبل. فأبى ذلك فئزة وقال: أيها الملك، إن الغادر مأخوذ بغدره وإن أخطأه عاجل العقوبة في الدنيا لم يخطئه أجلها، حتى إن عقوبة ذلك لتدرك الأعقاب وأعقاب الأقباب وإن ابنك غدر فعجلت له العقوبة.

قال الملك: لقد فعلنا ذلك بك لعمرى فانتمت منا فليس لك قبلنا ولا لنا قبلك وتر فارجع إلينا آمناً.

قال فئزة: لست أرجع إليك، فإن ذوي الرأي قد نهوا عن قرب الموتور وقالوا: "لا تجد للموتور الحقود أماناً أوثق من الذعر والبعد والاحتراس منه". وكان يقال: "إن العاقل إنما يعد أبويه من الأصدقاء ويعد الأخوة رفقاء والأزواج ألقاً والبنين ذكراً والبنات خصمات والأقارب غرماء، وبعد نفسه فرداً وحيداً". فأنا الفريد الوحيد تزودت عنكم من الحزن عبثاً ثقيل لا يحمله معي أحد. فأنا ذاهب فعليك السلام.

قال الملك: إنك لو لم تكن اجتزأت بما صنعنا بك أو لو كان صنيعك بنا غير ابتداء منا بالغدر كان الأمر كما ذكرت. فأما إذا كنا نحن بدنا فما ذنبك وما الذي يمنعك من الثقة بنا؟ فارجع فإنك آمن.

قال فنزة: إن للأحقاد في القلوب مواقع موجعة منكبة. والألسن تصدق عن القلوب، والقلوب أعدل على القلب شهادة من اللسان. وقد علمت أن قلبي لا يشهد للسانك ولا قلبك للساني.

قال الملك: ألسنت تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس؟ فمن كان له عقل كان على إماتة الحقد فيه أحرص منه على تربيته.

قال فنزة: إن ذلك لكما ذكرت وليس ذو الرأي عن ذلك بحقيق أن يظن، بالمحقود الموتور، إنه ناس ما وتر به ومنصرف عنه، وذو الرأي يتخوف الحبائل والخداع ويعلم أن كثيراً من الأعداء لا يناصب بالشدة والمكابرة حتى يصاد بالرفق والملاينة كما يصاد الفيل الوحشي بالفيل الداري.

قال الملك: إن الكريم لا يترك إلفه ولا يقطع إخوانه ولا يضيع الحفاظ وإن هو خاف على نفسه. إن هذا الخلق ليكون في أوضاع الدواب منزلة. قد عرفنا أن ناساً يذبحون الكلاب فيأكلونها، وربما نظروا إلى كلب قد ألفهم فيمنعه ألفة إياهم أن يفتكوا به.

قال فنزة: إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت وأخوفها وأشدّها ما كان في أنفس الملوك. وإن الملوك يدينون بالانتقام ويرون الطلب بالوتر مكرمة وفخراً، ولا ينبغي للعاقل أن يغترّ بسكون الحقد. فإنما مثل الحقد في القلب ما لم يجد متحرّكاً مثل الجمر المكنون ما لم يجد حطباً. ولا يزال الحقد يتطلع إلى العلل كما تبغي النار الحطب. فإذا وجد علله استعار النار فلا يطفئه ماء ولا كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرّع ولا شيء دون الأنفس، مع أنه ربّ واطر يطمع في مراجعة الموتور لما يرجو أن يقدر عليه من النفع له والدفع عنه، ولكني أضعف من أن أقدر على أن أزيل ما في نفسك. ولو كانت نفسك لي على ما تقول كان ذلك عليّ متغيّياً لأنني لا أزال في خوف وسوء ظنّ ما اصطحبنا. فليس الرأي إلا الفراق وأنا أقرأ السلام عليك.

قال الملك: لقد علمت أنه ليس يستطيع أحد لأحد ضراً ولا نفعاً. فإنه لا شيء من الأشياء صغير ولا كبير يصيب أحداً إلا بقدر مقدور. وكما أن خلق ما يخلق ويولد وبقاء ما يبقى ليس إلى الخلائق منه شيء، كذلك فناء ما يفنى وهلاك ما يهلك. فليس لك فيما صنعت بابني ولا لابني في إهلاك فرحك ذنب إنما كان ذلك قدراً مقدوراً وكنا له عللاً. فلا تؤاخذنا بما أتاك به القدر.

قال فنزة: إن في القدر ما ذكرت ولكن ذلك لا يمنع الحازم في توقي المخوف والاحتراس من المحترس منه، ولكنه يجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالقوة والحزم. وأنا أعلم أنك تحدّثني بغير ما في نفسك. والأمر فيما بيني وبينك أن ابنك قتل فرخي ففقات عين ابنك. فأنت الآن تريد لي القتل وتحاولني عن نفسي والنفس تأبى الموت. وكان يقال: الفاقة بلاء والحزن بلاء وفراق الأحبة بلاء والسقم بلاء والعدم بلاء، ورأس البلاء بلاء الموت، وليس أحد أعلم بما في نفس الموجع الحرّان ممن قد ذاق مثل ما به. وأنا بما في نفسك من أمري عالم للمثال الذي عندي من ذلك، فلا خير لي في صحبتك. فإنك لن تذكر صنيعي بابنك ولن أذكر صنيع ابنك بفرخي إلا أحدث ذلك لقلوبنا وغراً.

قال الملك: إنه لا خير لمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه فيتناساه ويميته حتى لا يذكر منه شيئاً ولا يكون له في نفسه موقع.

قال فنزة: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة إن هو حرص على خفة المشي فلا بد أن ينكأها. والرجل الرمّد إن استقبل الريح فقد تعرّض لإنكاء عينه. وكذلك الموتور إذا دنا من عدوه فقد عرض قرحته لإنكائها. ولا يستطيع صاحب الدنيا توقي المتألف وتقدير الأمور والاحتكال على القوة والحيلة وقلة الاعتراض بما لا يأمن منه. فإنه من اتكل على قوته حمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى في حتف نفسه. ومن لا يقدر على طعمه وشرابه فحمل على نفسه ما لا يحمل ولا يطيق فربما قتل نفسه. ومن لا يقدر لقمة فيعظمها أول ما يسبغ يغصّ بها فيموت. ومن اغترّ بكلام غيره وضيع الحذر فهو أعدى العدو لنفسه. وليس على الرجل النظر في القدر الذي لا يدرى ما يأتيه منه وما يصرف عنه ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة في أمره ومحاسبة نفسه في ذلك. والعاقل لا يخيف أحداً ما استطاع ولا يقيم على الخوف وهو يجد مذهباً. وأنا كثير المذاهب أرجو ألا أتوجه وجهاً إلا وجدت فيه ما يغنيني. فإن خلالاً خمساً من تزودها بلغنه كل وجه وقرين له البعيد وأنسن له الغربة وكسبته المعيشة والإخوان: كفّ الأذى وحسن الأدب ومجانبة الريبة وكرم الخلق والذيل في العمل. فإذا خاف العاقل على نفسه طابت نفسه عن الأهل والولد والوطن والمال. فإنه يرجو من ذلك كله خلفاً ولا يرجو من النفس خلفاً. وشرّ المال ما لا ينفق منه، وشرّ الأزواج التي لا تواتي البعل، وشرّ الولد العاصي، وشرّ الإخوان

الخاذل، وشر الملوك الذي يخافه البريء، وشر البلاد بلاد ليس فيها أمن، وأنت لا أمن لي معك ولا طمأنينة لنفسي في جوارك. ثم ودّع الملك وطار.

فهذا مثل الترات وما يوجب على أهلها حذر بعضهم من بعض.

### باب الأسد والشعهر الصوام

قال الملك للفيلسوف: قد فهم مثل أهل الترات وحذر بعضهم بعضاً فاضرب لي إن رأيت مثل الملوك فيما بينهم وبين قرانبيهم، وفي مراجعة من تراجع منهم بعد عقوبة أو جفوة تكون عن ذنب يذنبه أو ظلم يظلمه.

قال الفيلسوف: إن الملك إذا لم يراجع من أصابته جفوة أو عقوبة عن جرم اجتزمه أو ظلم ظلمه أضرب ذلك بالأمر والأعمال. وكان الملك حقيقاً بالنظر في حال من ابتلي بشيء من ذلك ويبلو ما عنده من العناء والذي يرجو منه النفع. فإن كان ممن يستعان به ويوثق برأيه وأمانته كان الملك حقيقاً بالحرص على مراجعته. فإن الملك لا يستطاع إلا بالوزراء والأعوان. ولا ينتفع بالوزراء والأعوان إلا بالمودة والنصيحة. ولا تصلح النصيحة والمودة إلا مع إصابة الرأي والعفاف الكثير. ومن يحتاج إليهم من العمال والأعمال كثير. ومن يجمع منهم الذي ذكرت من النصيحة وإصابة الرأي قليل. وإنما التمسك بالوجه الذي به يستقيم العمل أن يكون الملك عالماً من يريد الاستعانة به وما عند كل رجل منهم من العناء والرأي، وما فيه من العيوب. فإذا استقر ذلك عنده من علمه أو علم من يؤتمن به وعمل ما يستقيم به وجه لكل عمل من قد عرف أن عنده من الأمانة والنجدة والرأي ما يستقل بذلك، وإن الذي فيه من العيب لا يضرب بذلك العمل. ويتحقق من أن يوجه عيوبه وعاقبة ما يكره منه. ثم على الملك بعد ذلك ألا يترك تعاقد عماله والتفقد لهم ولأمرهم حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء. ثم عليهم بعد ذلك ألا يتركوا محسناً بغير جزاء ولا يقرأوا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والإساءة، فإنهم إن صنعوا ذلك تهاون المحسن وجترأ المسيء ففسد الأمر وضاع العمل. ومثل ذلك مثل الأسد والشعهر وهو ابن آوى.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان بأرض كذا وكذا ابن آوى وكان مثأله متعففاً في بنات آوى وثعالب وذئاب. ولم يكن يصنع ما يصنع ولا يغير كما يغير ولا يريق دماً ولا يأكل لحماً. فخاصمته تلك السباع وقلن: لا نرضى بسيرتك ولا رأيك الذي أنت عليه من تألهك مع أن تألهك لا يغني شيئاً. وأنت لا تستطيع أن تكون أحدنا فتسعى معنا وتفعل فعلنا. فما الذي يمسك بكفك عن الدماء واللحم؟

قال ابن آوى: إن صحبتي إياكم لا تؤثمني إذا لم أؤثم نفسي لأن الآثام ليست من قبل الأماكن والأصحاب، ولكنها من قبل القلوب والأعمال. ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحاً وصاحب المكان السوء يكون عمله فيه سيئاً، إذا كان من قتل الناسك في محرابه لم يآثم ومن استحياه في معركة القتال أثم. أتروني إن صحبتكم بنفسي لم يصحبكم مني قلب ولا عمل لأنني أعرف ثمرة الأعمال.

فما عاش ابن آوى على حالته تلك وشهر النسك والنبالة في الرأي حتى بلغ ذلك الأسد، وكان ملك السباع بتلك الناحية. فرغب فيه للذي بلغه عنه من العفاف والصدق والأمانة. فأرسل إليه فكلّمه وفحصه ثم دعاه بعد أيام إلى صحبتته، وقال: إن ملكي عظيم وأعمالي كثيرة وأنا إلى الأعوان محتاج، وقد بلغني عنك عقل وعفاف. ثم قدمت عليّ فازددت فيك رغبة، وأنا موليك من عملي جسيماً ورافع منزلتك إلى منزلة الأشراف وجاعل لك مني خاصة.

قال ابن آوى: إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان لما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم من غير أن يكرهوا على ذلك أحداً، لأن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل. وأنا لعمل السلطان كاره وليس لي به تجربة ولا بالسلطان رفق. وأنت ملك السباع عندك من أجناس السباع عدد كثير، وفيهم أهل نبل وقوة وبهم على العمل حرص ولهم به رفق، فإن استعملتهم أغنوا عنك واغتبطوا لأنفسهم بما أصابوا من ذلك.

قال الأسد: دع عنك هذه المقالة، فإني غير معفيك من العمل.

قال ابن أوى: إنما يستطيع صحبة السلطان رجلان: أحدهما فاجر مصانع ينال حاجته ويسلم بمصانعته، والآخر رجل مهين مغفل لا يحسده أحد. فأما من أراد صحبة السلطان بالصحة والنصيحة والعفاف، ثم لا يخلط ذلك بمصانعة، فقلّ ما يسلم بصحته لأنه يجمع له عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد. فأما الصديق فينافسه في منزلته ويبغي عليه فيها ويعاديه لها. وأما عدو السلطان فيضطغن عليه بنصيحته لسلطانه وإغناؤه عنه. فإذا اجتمع عليه هذا الصنفان تعرّض للهلاك.

قال الملك: لا يكونن بغي أصحابي عليك وحسدهم إياك وعداوة أعدائي لك مما يعرض في قلبك، فإني كافيك وبالغ بك في الكرامة والإحسان بهمتك.

قال ابن أوى: إن كان الملك يريد بي الإحسان والكرامة فليتركني أعيش في هذه البرية آمناً راضياً بعيشتي من الماء والحشيش. وقد علمت أن صاحب السلطان يصل إليه في ساعة واحدة من الأذى والخوف ما لا يصل إلى غيره طول عمره. وإن قليل العيش في أمر وطمأنينة خير من كثيره في خوف ونصب.

قال الأسد: قد سمعت مقاتلك فلا تخافن شيناص مما أراك تتخوفه. فلا بد من الاستعانة بك.

قال ابن أوى: أما إذا أبى الملك أن يعفني فليجعل لي عهداً إن بغى علي أحد من أصحابه ممن هو فوقى خوفاً على منزلته، أو ممن هو دوني فنار عني منزلتي وذاكر الملك بلسانه أو لسان غيره مما يريد به تحميل الملك عليّ ألا يعجل عليّ ويتنبّث فيما يرفع إليه من ذلك، ويفحص عنه ثم يقضي الملك فيما بدا له. فإني إذا وثقت بذلك من الملك أعنته بنفسي وعملت له فيما ولاني بنصيحة واجتهاد وحرصت على أن لا أجعل على نفسي سبيلاً.

قال الأسد: إن ذلك لك علي. فولاه خزائنه واختصّه دون أصحابه في المشاوة والرأي في المنزلة وازداد به على الأيام عجباً وزاده كرامة وعملاً. فثقل ذلك على من يطيف بالأسد من قرائبه وأصحابه وعماله وعادوه وحسدوه وائتمروا به ليهلكوه. فلما أجمعوا على ذلك لكيدهم دسّوا ذات يوم للحم كان الأسد استطرفه واستطابه فأمر برفعه في موضع طعامه ليعاد عليه فسرّقه ثم أرسلوا به إلى بيت ابن أوى فخبأوه مخبأً لا يطلع عليه أحد. فلما كان من الغد ودعا الأسد بغدائه التمس ذلك اللحم فلم يجده وابن أوى غائب والقوم الذي أرادوا المكر به والمكيدة حضور. فألح الأسد في طلب اللحم حتى غضب. فنظر بعضهم إلى بعض، فقال أحدهم قول المخبر الناصح: إنه لا بد لنا من أن نخبر الملك بعلمنا فيما يضره وينفعه وإن شقّ ذلك عليه. إنه بلغني أن ابن أوى كان ذهب بذلك اللحم إلى منزله.

قال آخر: أراه شبيهاً أن يكون فعل هذا، ولكن انظروا وافحصوا فإن معرفة الخلائق شديدة.

قال آخر: لعمري ما تكاد السرائر يطلع عليها أحد ولعلكم إن فحصتم وجدتم ذلك وثبت عندنا كل شيء كان يذكر لنا من عيوبه وخيائنه، ونحن أحقاء أن نخذله ونقضي بكل ما كان يقال عنه.

قال آخر: ما ينبغي لأحد أن يغترّ بما يعلم في نفسه من المختالة. فإن المختالة لا يسلم صاحبها ولا تخفى له.

قال آخر: وكيف يسلم من خاتل السلطان أو كيف يخفي ذلك، ومخاتلة الأصحاب لا تكاد تخفى؟

قال آخر: لقد أخبرني مخبرٌ عن ابن أوى بأمر عظيم مما وقع في نفسي حتى سمعت كلامكم.

قال آخر: لكني لم يخف عليّ أمره وخبّه أول ما رأيته وقد قلت مراراً واستشهدت فلاناً أن هذا المخادع المتخشع لا يسلم من الحيلة والخيانة.

قال آخر: لنن وجد هذا حقاً ما هي الخيانة فقط بل مع الخيانة كفر النعمة والجرأة على الذنوب.

قال آخر: أنت أهل العدل والفضل ولا أستطيع أن أكذبكم، ولكن سيّتين صدق هذا وكذبه لو أرسل الملك إلى بيت ابن أوى ففتشه.

قال آخر: إن وجب تفتيش منزله فالعجل العجل. فإن عيونه وجواسيسه مبعوثه بكل مكان.



قال آخر: إني قد علمت بأن ابن آوى لو فتش منزله واطلع على خيانتته سيحتال بحيائته ومكره حتى يشبهه على الملك فيعذره ويكف عنه.

فلم يزالوا بهذا الكلام وأشباهه حتى أوقعوا ذلك في نفس الأسد بالأتهم لابن آوى فدعاه فقال له: ما صنعت باللحم الذي أمرتك بالاحتفاظ به؟

فقال: دفعته إلى صاحب الطعام فلان ليقرّبه إلى الملك.

فدعا الملك صاحب الطعام وكان ممن شايع القوم، فسأله الملك عن اللحم فقال: ما دفع إليّ شيئاً.

فأرسل الملك أمناءه ليفتشوا منزل ابن آوى فوجدوا فيه اللحم فأتوه به. فدنا من الأسد ذئب لم يتكلم في شيء من تلك الأمور، وكان يظهر أنه من أهل العدل والذين لم يتكلموا إلا فيما استبان لهم أنه حق فقال للأسد: إذا اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفون عنه، فإنه إن عفا عنه لم يعد أحد يطلع الملك على خيانة خائن أو ذئب مذنب.

فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج من عنده ويحتفظ به حتى يرى رأيه فيه.

قال عند ذلك بعض جلساء الأسد: إني لأعجب من رأي الأسد ومعرفته بالأمور وكيف خفي عليه أمر هذا فلم يعرف خبثه ومخادعته.

قال آخر: بل أعجب من هذا أنني لا أراه إلا بتتصل عنه بعد الذي ظهر عليه منه.

ثم إن الأسد أرسل بعضهم إلى ابن آوى يسأله عن عذره فرجع إليه من ابن آوى برسالة كاذبة غضب منها الأسد فأمر بابن آوى أن يقتل.

فبلغ ذلك أم الأسد فعرفت أن الأسد قد عجل في أمره فأرسلت إلى الذين أمروا بقتله أن يؤخروه ودخلت على ابنها فقالت: لأي ذنب أمرت بابن آوى أن يقتل؟

فأخبرها الأسد بالأمر.

قالت: "عجّلت يا بني وإنما يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة وبالأخذ بالأناة. وليس أحد أحوج إلى التؤدة والتثبيت من الملوك. فإن المرأة بزوجها والولد بالوالدين والمتعلم بالمعلم والجند بالقائد والناسك بالدين والعامّة بالملوك والملوك بالتقوى والتقوى بالعقل والعقل بالتثبيت. ورأس الحزم للملك معرف أصحابه وإنزاله إليهم منزلتهم واتهام بعضهم ببعض. فإنه إن وجد بعضهم إلى هلاك صاحبه سبيلاً وإلى تهجين بلاء المبليين وإحسان المحسنين والتغطية على إساءة المسيئين لم يدعوا ذلك ويؤثر ذلك سريعاً في ضياع الأمر وانتشاره وجلب عظيم الضرر والعيب.

"وقد كنت بلوت ابن آوى واختبرت أدبه ومروءته قبل استعانتك به وتقويضك إليه، فلم تزل عنه راضياً ولا تزداد على مر الأيام إلا استصلاحاً وإليه استرسالاً وفيه رغبة. فأمرت بقتله في طابق من لحم فقدته. عسى أصحابه أن يكونوا قد ألزموه عندك ذنباً باطلاً لحسدكم وتعاونهم عليه.

"فاعلم أن الملوك إذا وكلوا إلى غيرهم ما ينبغي مباشرته من أمورهم والزموا أنفسهم مباشرة ما ينبغي لهم تفويضه إلى الكفاة ضاعت أمورهم ودعوا الفساد إلى أنفسهم. إن الملوك يحتاجون إلى النظر في وجوه شتى من الأمور، فإذا أثروا بعض تلك الوجوه على بعض لم يأمنوا خطأ البصر وزلل الرأي، كصاحب الخمر الذي إذا أراد أن يشتريها احتاج إلى اختيار لونها وريحها. فإن هو أهمل الاختيار أو بعض ذلك لم يأمن الغبن والخسران. وكاليراعة يراها الجاهل في ظلمة فيقضي عليها بالمعينة قبل أن يلمسها أنها نار، فإذا لمسها تبين له خطأ قضائه. وكنت حقيفاً أن تنظر في أمر ابن آوى نظر تثبيت فتعلم أنه لم يكن يأكل اللحم الذي كنت ربما أمرت له بالكثير منه بل يجله في طعامك وطعام جندك، وأنه ليس خليفاً لسرقة قليل من اللحم أمرته بالاحتفاظ به. فافحص عن أمره فإنه لم تزل عادة الأرذال والأندال حسد أهل المودة والفضل والأذى لهم والاشتغال بهم.

ولابن آوى مروءة وفضل فعسى أعداؤه من أصحابك أن يكونوا انتمروا لوضع ذلك اللحم إذا أصابت البضعة من اللحم نافسها كثير من الطير. والكلب إذا أصاب العظم وأخذه في فيه اجتمعت عليه عدة من الكلاب. فإذا لم تنتظر إلى أعداء ابن آوى من أصحابك فانظر لنفسك ولا تنقادن لهم فيما تدعو به الضرر إلى نفسك. فإن أعظم الأشياء على الناس عامة والولاء خاصة أمران: أن يحرموا صالح الأعوان والوزراء والأخوان، وأن يكون وزراؤهم وأخوانهم غير ذوي مروءة ولا غناء. ولم يزل غناء ابن آوى عنك عظيماً يؤثر منفعتك على هواه ويشترى راحتك بمصلحته ورضاك بسخط الأصحاب ولا يكتفك سراً ولا يطوي عنك أمراً ولا يرى شيئاً إلا احتمله منك أو بذله وإن عظم عظماً كبيراً. فمن كان من الأصحاب هذه صفته فإنما منزلته منزلة الآباء والأبناء والإخوان".

فبينما أم الأسد في كلامها إذ دخل على الملك بعض ثقاته فأطلع الأسد على براءة ابن آوى. فلما علمت أم الأسد أن الأسد قد وقف على براءة ابن آوى قالت: "أما وقد اطلعت على جراءة أصحابك وتعاونهم عليه فلا ترضين بذلك منهم ولا تدعن تشيت ذات بينهم حتى تقطع منك الشفة عليهم. فلا يتخذوك مركباً فتعودهم الاحتمال على ضرك بوشهم. ولا تغترن بسلطانك فيدعوك ذلك إلى استصغارهم والتهاون بأمرهم. فإن الحشيش الضعيف إذا جمع فقتل صار منه الحبل القوي الذي يوثق به الفيل الشديد.

"وأعد لابن آوى منزلته وخاصته ولا يؤيسنك من مناصته ما فرط إليه منك من الإساءة. فإنه ليس كل من أساء ينبغي له أن يتخوف غش من أسىء إليه وعداوته ويأس من نصيحته ومودته. ولكن ينبغي أن ينزل الناس في ذلك منازلهم على اختلاف ما بينهم. فإن منهم من إذا ظفر بقطيعته كان الرأي أن تقطع صلته ويمتنع عن معاودته، ومنه من لا ينبغي تركه وقطيعته على حال من الأحوال. ومن عرف بالشرارة ولؤم العهد وقلة الوفاء والشكر والبعد من الورع وقلة الاحتمال للأصحاب والإخوان وإن لم يكن عليه منهم مؤونة، فهذا حقيق أن تغتنم قطيعته ويمنع من وصله. ومن لم يكن فيه شيء من هذه الخلال وبذل الإخوان معروفه واحتمل مكروهاً إن كان منهم ومؤونتهم وإن ثقلت، وعرف فضله على غيره في الورع والمساعدة على الدهر في جميع الأمور والحالات، فهذا حقيق أن يغتنم وصله ويمتنع من قطيعته".

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه وأخبره أنه معيده إلى منزلته وولايته. فقال ابن آوى: "إن شرّ الأخلاء من التمس منفعة نفسه بضر أخيه ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه أو كان يريد أن يرصيه بغير الحق واتباع هواه. وكثيراً ما يقع ذلك بين الأخلاء وقد كان من الملك إليّ ما علم فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به أني به غير واثق. فإن من كان قد أصيب بعظيم من البلاء غير مستوجب له أو كان قد أزيل عن مرتبته وولايته أو كان قد سلب ماله ظلماً أو كان مقرّباً فاقصي من غير علة أو كان قد استحق من نظرائه ثواباً فأثيوا دونه وفضلوا عليه، أو كان معروفاً بإفراط الحرص والشره أو كان يرى في منفعة السلطان ضرراً أو في ضرره له نفعاً، كل هؤلاء يحق على السلطان ألا يسترسل إليه ويثق بهم، لأن كل هؤلاء حقيق أن يكونوا عليه مع عدوه. وقد صرت اليوم في بادئ الرأي عرضاً لأعداء الملك وليس ما أنا عليه للملك من المودة والنصيحة بمناع الملك اتهامي وسوء الظن بي. وليس ما ظهر له من مودتي ونصحتي يؤمنني من عودة أعدائي بحمل الملك عليّ بالباطل والكذب إشفاقاً من مكافأتي لهم وحرصاً عليّ ألا يتقرر عند الملك كذبهم فيما حملوا به عليّ. فإن فعلوا ذلك لم يحتاجوا في قبول الملك ذلك منهم إلى عون أقوى من هذه التهمة التي قد وقعت في نفس الملك من تخوفه لصحبتني وسوء ظنه بي وسرعته إلى تصديق أعدائي فيما نسبوه إليّ. فإذا كان حال الملك بالثقة بي وحالي في الثقة به على ما وصف فلينظر أي وجه يريدي عليه من صحبته. فإن الملوك لا ينبغي لهم أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب".

قال الأسد: إنني قد بلوت طبائعك وأخلاقك، فمنزلتك في نفسي منزلة الكرماء الأخيار. والكرام تنسبه الخلّة الواحدة من الإحسان ألف خلّة من الإساءة، واللئيم تنسبه خلّة واحدة من الإساءة ألف خلّة من الإحسان. فأنا واثق بك أنه سينسبك ما سلف من إحساننا إليك الذي فرط منا في أمرك وقد عدنا إلى الثقة بك فعد إلى الثقة بنا وبما قبلنا فإنه لك في ذل غبطة وسرور.

فعاد ابن آوى إلى ولاية ما كان يليه من أمر الأسد فلم تزل الأيام تزيده ارتقاءً واعتباطاً حتى هلك.

فهذا باب وزراء السلطان وأعوانه وقرائبه.

## باب السائح والصائغ والقرد والبير والحية

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت ما ذكرت من أمر الملوك فيما بينهم وبين قرابتهم وفي مراجعتهم من تراجع منهم فأخبرني عن الملك إلى من ينبغي له أن يصنع المعروف ومن يحق له أن يثق به ويرجو عونه.

قال الفيلسوف: إن الملك وغيره جدر أن يؤديوا الخير إلى أهله وأن يؤملوا من كان عنده شكر وحمد ولا ينظروا إلى قرابتهم وأهل خاصتهم ولا إلى أشرف الناس وأغنيائهم وذوي القوة منهم، ولا يمتنعوا أن يصطنعوا إلى أهل الضعف والجهد والضعفة. وإن الرأي في ذلك أن يجربوا ويختبروا أصاغر الناس وعظماءهم في شكرهم أو قلة شكرهم وفي حفظهم الود أو غدرهم. ثم يكون عملهم في ذلك على قدر الذي يرون أو يبدو لهم. فإن الطبيب الرفيق لا يداوي المرضى بالمعينة لهم فقط ولكنه ينظر إلى فضول البدن ويجس العرق ثم يكون العلاج على نحو المعرفة وقدرها. ويحق على المرء اللبث إن وجد قوماً ذوي مهابة لهم وفاء وشكر من البهائم ما كان مألوفاً أنيساً أن يحسن فيما بينه وبينهم، ولعله يحتاج إليهم يوماً من الدهر فيكافؤوه. فإن العاقل ربما حذر الناس ولم يأمن على نفسه أحدا منهم، وربما أخذ ابن عرس فأدخله كئله والطير فوضعه على يده. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر كبيراً ولا صغيراً من الناس ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يتولاهم ويكون ما يصنع إليهم على قدر الذي يرى منهم. وقد مضى في ذلك مثل ضربه بعض الحكماء.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: ذكروا أن ناساً انطلقوا إلى مغارة فحفروا فيها ركبة للسباع فوقع فيها رجل صائغ وبير وحي وقرد، فلم تتعرض البهائم لذلك الرجل بشيء. فمر رجل سائح بالبئر فاطلع فيها فلما رآهم فكر في نفسه وقال: ما أراني مقدماً عملاً لأخرتي أفضل من أن أخلص الإنسان من بين هؤلاء الأعداء. فأخذ رسناً فأدلاه إليه فتعلق به القرد لخفته فأصعده. ثم أعاده الثانية فتشبث به البير فأخرجه. ثم كره الثالثة فالتوت به الحية فاستتقذها. فشكرن له صنيعه وقلن: لا تخرج هذا الرجل فتخلصه من الركبة فإنه ليس حي أقبل شكرًا من الإنسان. ثم قال له القرد: إن وطني بجانب مدينة يقال لها برجوان. وقال البير أيضاً: أنا في أجمة إلى جانيها. وقالت الحية: وأنا أيضاً في سورها فإن أتيتها يوماً من الدهر أو مررت بنا فاحتجت إلينا فنؤه بنا حتى نأتيك ونجازيك بما أوليتنا وأحسننا إلينا.

ثم إن السائح أدلى الحبل إلى الرجل الصواغ ولم يلتفت إلى ما ذكر له القرد والبير والحية من قلة شكره، فاستخرجه فأثنى عليه وسجد له وقال: إنك أوليتني معروفاً جسيماً أنا حقيق بفعله، فإن قضى لك أن تأتي مدينة برجوان فسل عني بها لعلني أجازيك ببعض ما كان من الجميل علي.

ومضى كل واحد منهم لوجهه. فمكث السائح حيناً، ثم عرضت له حاجة نحو المدينة فصار إليها فلقه القرد فسجد له ثم قبل يده ورجله واعتذر إليه وقال: إني لا أملك شيئاً ولكن اطمئن ساعة حتى آتيك ببعض ما نصيب منه. ثم انطلق فلم يلبث أن جاء بفاكهة طيبة فوضعاها قدامه وحياه.

ثم توجه السائح نحو المدينة فلقى البير فسجد له وحياه وقال: لقد أوليتني معروفاً جسيماً كبيراً فلا تبرح حتى أرجع. فلم يستبطنه حتى ذهب إلى ابنة الملك فقتلها وأخذ حليها ثم أتاه فدفعه له من غير أن يعلم من أين هو.

فقال السائح في نفسه: هذه البهائم قد أولتني هذا وصنعتني بي فكيف لو انتهيت إلى الصواغ فإنه إن كان معسراً لا شيء عند سبييع لي هذا الحلي بثمنه فيعطيني بعضه ويأخذ بعضه.

ثم إن السائح دخل المدينة فأتى منزل الصائغ فرحب به وأدخله بيته، فلما أبصر بالحلي معه عرفه فقال: اطمئن حتى آتيك بطعام تأكله فإني لست أرضى لك بما في البيت.

فانطلق الصواغ حتى أتى باب الملك فأرسل إلى الملك برسالة "أن الرجل الذي قتل ابنتك وأخذ حليها قد أخذته وهو عندي محبوس".

فأرسل الملك إلى السائح فأخذه. فلما رأى الحلي معه أمر به أن يعذب ويطاف به في المدينة ثم يصلب. فلما وقع ذلك به وطيف بالمدينة جعل يبكي ويقول بأعلى صوته: لو أني أطلعت القرد والحية والبير فيما أمروني به لم يصيبني هذا البلاء.

فسمعت الحية هذه المقالة وخرجت للحال من جحرها. فلما أبصرته اشتد عليها أمره وفكرت في الاحتيايل لخلاصه فانطلقت إلى ابن الملك فلدغته في رجله. فبلغ ذلك الملك فدعا أهل العلم ليرقوه فرقوه فم يغنوا عنه شيئاً. ثم إنهم نظروا في النجوم واحتالوا له حتى تكلم الغلام فقال: لا أبرأ حتى يأتيني هذا السائح فيرقيني ويمسحين بيده. وقد أمر الملك بقتله ظلماً وعدواناً.

وقد كانت الحية ذهبت إلى أخت لها من الجن فأخبرتها بحالها وبما صنع إليها ذلك السائح من المعروف. فرقت له الجنة وانطلقت إلى ابن الملك فتحيلت حتى وصلت إليه فقالت له: أعلم أنك لا تبرأ حتى يرقيك هذا السائح المظلوم.

وانطلقت الحية إلى السائح فأخبرته بذلك وقالت: ألم أنهك عن الإنسان فلم تطعني. وأعطته شجرة تنفع من سمها وقالت له: إذا صرت إلى الملك فارق الغلام واسقه من ماء هذه الشجرة فإنه يبرأ، ثم أصدق الملك الحديث فإنك تنجو إن شاء الله.

وإن الملك لما دعا الرقاة ولم ينتفع بشيء قال له ابنه: "إن شفائي عند هذا الناسك الذي قد أخذته وأمرت بعذابه". فأمر الملك أن يكف عن عقوبته وأن يؤتى به. فلما أوتي به أمره أن يرقى ابنه فقال: لست أحسن الرقي ولكني أدعو له بدعوة أرجو أن يكون فيها شفاؤه. فقال: إنما دعوتك لتخبرني بحاجتك. فقص السائح على الملك أمره والذي كان من صنيعه إلى الصواغ والبير والحية والقرد والذي قلن له في أمره، والذي حملة على أن يأتي مينته ثم قال: "اللهم إن كنت تعلم أنني صادق فيما ذكرت فعجل لابن الملك الخلاص مما هو فيه والشفاء والعافية". ثم سقاه من ماء الشجرة فبرئ الغلام مما كان به وكشف الله عنه. فأكرم الملك السائح ووصله وأحسن إليه وأمر بالصائغ أن يصلب فصلب.

ثم قال الفيلسوف للملك: ففي صنيع الصواغ بالسائح وكفره له بعد استنقاذه إياه وشكر البهائم له وتخليص بعضها إياه عبرة للمعتبرين وفكرة لمن فكروا في وضع المعروف والإحسان عند أهل الوفاء والكرم، قربوا أو بعدوا، لما في ذلك صواب الرأي وجلب الخير وصرف المكروه. فهذه عاقبة المعروف.

باب ابن الملك وابن الشريف وابن التاجر وابن الأكار

قال الملك: قد فهمت ما ذكرت مما يحق على الملك في التوخي لمعرفه ليضعه عند أهل الشكر قربوا أو بعدوا، فأخبرني ما بال الجاهل والسفيه يصيبان الرفعة والشرف والخير العظيم، والرجل الحكيم العليم يلحقه البلاء والجهد والغرم الثقيل.

قال الفيلسوف: كما أن الرجل لا يبصر إلا بعينه ولا يسمع إلا بأذنيه فكذلك العلم إنما تمامه بالحلم والعقل والتنشيت. غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك، كما نرى أحياناً البصير يعثر والضرير يسلم. ومثل ذلك مثل ابن الملك الذي ربي على باب مدينة يقال لها مطون جالساً، وثم كتب عليه بعد أن تم أمره "إن العقل والجمال والاجتهاد والقوة وما سوى ذلك فإنما ملاكه القضاء والقدر".

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا، أحدهم ابن الملك والثاني ابن الشريف والثالث ابن تاجر والرابع ابن أكار، وكانوا جميعاً محتاجين وقد أصابهم ضررٌ وجهد لا يملكون شيئاً إلا ما عليهم من ثيابهم. فبينما هم يمشون إذ قال ابن الملك: إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور. قال ابن التاجر: بل العقل أفضل من كل شيء. قال ابن الشريف: الجمال خيرٌ مما ذكرتم. قال ابن الأكار: الاجتهاد أفضل من ذلك كله.

ثم مضوا نحو مدينة يقال لها مطون. فلما انتهوا إليها أقاموا في ناحية منها وقالوا لابن الأكار: انطلق فاكسب لنا باجتهادك طعاماً ليومنا هذا. فانطلق فسأل: أي عمله إذا عمله الرجل من غدوه إلى الليل به ما يشبع أربعة نفع؟ فقيل له: ليس شيء بأعز من الحطب. وكان على رأس فراسخ منها فتوجه إليه فحمل حملاً من الحطب الجزل فباعه بنصف درهم ثم اشترى به ما يصلح أصحابه، وكتب على باب المدينة: "إجتهد يوم واحد يبلغ ثمنه نصف درهم"، وأتاهم بما اشترى فأصابوا منه وأكلوا.

فلما أصبحوا قالوا لابن الشريف: انطلق بجمالك فاكسب بعض ما يوقتنا. فانطلق وتفكر في نفسه وقال: لست أحسن من الأعمال شيئاً، وأستحي أن أرجع إلى أصحابي بغير طعام، فهم أن يفارقهم فأسند ظهره إلى شجرة في المدينة من الهم. فمر عليه مصور فاعجبه جماله فأرسل إليه خادمه فأتى به وأدخله داره ثم أمر بنظف وظل معه يومه ذلك وأخذ رسمه ليعرض صورته على أهل المدينة. فلما كان عند المساء أجازه بخمس مائة دينار، فتوجه إلى أصحابه وكتب على باب المدينة: "جمال يوم واحد ثمنه خمسة مائة دينار".

فلما أصبحوا قالوا لابن التاجر: انطلق أنت فاكسب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هذا شيئاً. فذهب فلم يبرح إلا قليلاً حتى أبصر سفينة عظيمة في البحر قد أرسيت إلى الشط غير بعيدة من المدينة فخرج إليها أناس ليبْتَاعوا ما فيها فساوموا أصحابها فوجدوا ثمنها غالياً، ثم قال بعضهم لبعض: فلننصرف اليوم دون أن نبتاع منها شيئاً حتى تكسد البضاعة على أصحاب السفينة فيرخصوا علينا. ففعلوا ذلك فخالف إليها ابن التاجر فاشترى منهم ما كان فيها بمائة ألف دينار. فلما بلغ التجار ما فعل أتوه فأربحوه مائة ألف دينار. فانتقدوها وأحال بائعه عليهم ورجع إلى أصحابه. فلما مرَّ بباب المدينة كتب عليه: "عقل يوم واحد ثمنه مائة ألف درهم". فتمتعوا بما أصابوا وأخصبوا.

فلما أصبحوا في اليوم الرابع قالوا لابن الملك: انطلق فاكسب لنا شيئاً بالقضاء والقدر. فذهب حتى أتى باب المدينة فجلس على دكان من دكاكين باب المدينة فقضى أن ملكها هلك ولم يترك ولداً ولا أختاً ولا ذوي قرابة. فمروا عليه جنازة الملك فيصروا به لا يتحرك ولا يتحاشى ولا يحزن لموت الملك. فسأله البواب: من أنت؟ وما يقعدك على باب المدينة ولا يحزنك موت الملك؟ فلم يجبه فشتمه وطرده، فلما مضوا رجع إلى مكانه.

ثم انصرفوا من دفن الملك فيصر به البواب وقال له بغضب: ألم أنهك عن هذا المجلس؟ وتقدم إليه فأخذه وحبسه. فلما اجتمعوا في الغد ليملكوا عليهم رجالاً يختارونه قام الذي كان ألقى الفتى بالحبس فحدثهم بقصته فقال: إنت رأيت أمس غلاماً جالساً على الباب ولم أره يحزن لحزننا وتلوح عليه لوائح العزة والشرف، كلمته فلم يجبني فألقيته بالحبس وإنني أتخوف أن يكون عيناً علينا فابعثوا إليه. فأتوا به فسأله من هو وما أمره وما الذي أقدمه أرضهم. قال: "أنا صهر ملك قروند. توفي والدي فغلبنني أخي على الملك وأنا أكبر منه فهربت منه حذراً على نفسي حتى انتهيت إليك". فلما سمعوا ذلك منه لم يتحققوا صدق كلامه حتى عرفه بعض من كان منهم يغشى بلاد أبيه. فأتوا عليه ومكوه عليهم وقتلوه أمرهم وكانت سنتهم الطواف لمن ولوه عليهم فحملوه على فيل وأجالوا به. فلما مرَّ بباب المدينة بصر بما كتب عليه أصحابه فأمر أن يكتب: "الاجتهاد والعقل والعمل وما أصاب الانسان من خير أو شر يجري بقضاء الله وحكمه. إعتبر ذلك بما ساق إلي من الخير والسعادة بفضل".

ثم إن الملك أتى مجلسه فقعد على سريره وأرسل إلى أصحابه فأتوه فمولهم وأغناهم. ثم جمع عماله وأهل الفضل وذوي الرأي من أهل مملكته فقال: أما أصحابي فقد استيقنوا أن الذي رزقهم الله من الخير إنما كان بما أتوه بفضل عقلمهم وجمالهم ونشاطهم. وأما أنا فإن الذي منحني الله وهباً لي لم يكن من الجمال ولا العقل ولا الاجتهاد وإنما كان يحكمه تعالى وقضائه. وما كنت أرجو إذ طردني أخي وجفاني أن أصيب هذه المنزلة ولا أكون بها لأنني قد رأيت من أهل هذه الأرض من هو أفضل مني جمالاً وحسناً وعلمت أن فيها من هو أكمل مني رأياً وأشد مني اجتهاداً. فساقني الله وقضاؤه إلى أن اغتربت فملكتم أمراً قد علمه الله وقدره وقد كنت راضياً أن أعيش بحال خشونة وشظف معيشة.

فقام شيخ كان في أرضهم فقال: أيها الملك إنك قد تكلمت بحلم وعقل ورأي حسن ظناً بك ورجاؤنا فيك وعرفنا ما ذكرت وصدقناك بما وصفت وعلمنا أنك قد كنت لما ساق الله إليك من ذلك أهلاً بفضل قسمته عندك وتتابع نعمته عليك. فإن أسعد الناس في الدنيا والآخرة أولاهما بالسرور فيها من رزقه الله ما رزقك وجعل عنده مثل الذي جعل عندك. وقد أرانا الله الذي نحب إذ ملكك علينا وقلدك أمرنا فنحمد الله على ما أكرمنا به من ذلك وامتن علينا فيه.

ثم قام شيخ آخر فحمد الله وأثنى عليه ومجده وذكر آلاءه وقال: أيها الملك إنني قد كنت وأنا غلام قبل أن أسيح في الأرض أخدم رجلاً من الناس. فلما بدا لي أن أرفض الدنيا فارقته. وقد كان أعطاني من أجرتي دينارين فأردت أن أتصدق بأحدهما وأستفق الآخر، فقلت: أليس أعظم لأخوتي أن أشتري نفساً بدينار فأعقها لوجه الله. فأتيت السوق فوجدت مع صياد حمامتين فساومته فطلب بهما دينارين فجهدت على أن يعطيني بدينار فأبى ذلك فقلت: لعلهما أن يكون زوجين أو أخوين فأخاف إن أعثقت أحدهما أن يموت الآخر. فابتعتهم منه بالثمن الذي سمى. وأشفت أن يطيرا مما لقبنا من الجهد والهزال. فذهبت بهما إلى مكان كثير الرعي فسرحتهما فطارا فوقعا على شجرة. ثم شكرا في وسمعت أحدهما يقول للآخر: لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذي كنا فيه وإنا

لخليفة أن نجازيه بفعله. ثم قالوا لي: لأنك قد أتيت إلينا بما نحن أهل أن نشرك به ونعرفه لك فاعلم أن في أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنائير فخذها.

فأتيت الشجرة وأنا في شك مما قالوا لي، فلم أحفر إلا قليلاً حتى انتهيت إليها فاستخرجتها ودعوت الله لهما بالعافية وقلت لهما: إذا كان عملكما هذا العلم بما تحت الأرض وأنتما تطيران بين السماء والأرض فكيف وقعتما في هذه الورطة التي أنجيتكما منها؟ قالوا: أما تعلم أيها العاقل أن القدر إذا نزل أغشى البصر. والقدر يغلب كل شيء ولا يستطيع أحد أن يجاوزه.

ثم قال الفيلسوف للملك: ليعرف أهل النظر أن الأمور والعلم بها أن الأشياء كلها بقضاء وقدر لا يجلب منها أحد على نفسه محبوباً ولا يدفع عنها مكروهاً إلا بإذن الله يفعل فيها ما أراد ويقضي منها ما أحب. فلتسكن إلى ذلك الأنفس ولتطمئن إليه القلوب فإن في ذلك لمن ألهمه الله ووفق له سعة وراحة.  
باب الأسوار واللبوة والشعير

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت ما ذكرت من أمر القضاء والقدر وغلبتهما الأشياء، فأخبرني عن من يدع ضرراً غيره لما يصيبه من الضر ويكون له في ما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعدوان في غيره.

فقال الفيلسوف: إنه لا يقدر على طلب ما يضر بالناس ويسوؤهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر في عواقب الأمور من الدنيا والآخرة وقلة العلم بما يدخل عليهم في ذلك من حلول النعمة ويلزمهم من تبعه ما اكتسبوا مما لا يحيط به القول. فإن سلم بعضهم من بعض لفتنة عرضت قبل نزول وبال ما صنعوا، اغترّ بهم الآخرون بما ينقطع فيه الكلام والوصف من الشدة وعظم الهول. وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المكروه من غيره فارتدع عن أن يغشى أحداً بمثل ذلك الظلم والعدوان وحصل له نفع بأن كفّ عنه في العاقبة. ونظير ذلك الحديث حديث الأسوار واللبوة والشعير.

قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا الفيلسوف: زعموا أن لبوة كانت في غيضة ولها شبلان وأنها خرجت تطلب الصيد وخلفتها فمرّ بهما أسوار فحمل عليهما فقتلهما وسلخ جلدتهما فاحتقبهما وانصرف بهما إلى منزله. فلما رجعت اللبوة فرأت ما حل بهما من الأمر الفظيع الهائل الموجه للقلوب سخنت عينها واشتد غيظها وطال همها واضطربت ظهراً لبطن وصاحت. وكان إلى جانبها شعير جار لها. فلما سمع صيحتهما وجزعها قال: ما هذا الذي نزل بك وحل بعقوبتك؟ هلمي فأخبريني لأشركك فيه أو أسليه عنك.

فقال اللبوة: شبلاني مرّ عليهما أسوار فقتلهما وأخذ جلدتهما فاحتقبهما وألقاهما بالعراء.

قال الشعير: لا تجزعي ولا تصرخي وأنصفي من نفسك واعلمي أن هذه الأسوار لم يأت إليك شيئاً إلى وقد فعلت بغيرك مثله ولم تجدي من الغيظ والحزن على شبلبك شيئاً إلا وقد وجده غيرك بأحبابه لما تقطين فوجدت اليوم مثله وأفضل منه. فاصبري من غيرك على ما صبر منك عليه غيرك. فإنه قد قيل: كما تدين تدان، وإن ثمرة العقل العقاب والثواب وهما على قدره في الكثرة والقلة كالنزع الذي إذا حضر الحصاد أعطى كلا على حساب بذره.

قالت اللبوة: صف لي ما تقول وأشرحه لي.

قال الشعير: كم أتى لك من العمر؟

قالت اللبوة: مائة سنة.

فقال الشعير: ما كان الذي يعيشك ويقوتك؟

قالت اللبوة: لحوم الوحش.

قال الشعير: أما كان لتلك الوحوش آباء وأمهات؟

قالت اللبوة: بلى.

فقال الشعهر: ما لنا لا نسمع لأولئك الآباء والأمهات من الضجة والوجع والصراخ ما نرى منك. أما أنه لم يصبك ذلك إلا لسوء نظرك في العواقب وقلة تفكيرك فيها وجهالتك بما يرجع عليك من ضررها.

فلما سمعت اللبوة عرفت أنها هي التي جنت ذلك على نفسها وجرتّه إليها، وأنها هي الضالة الجائرة، وأنه من عمل بغير العدل والحق انتقم منه وأدبل عليه. فتركت الصيد وانصرفت عن أكل اللحم إلى الثمار وأخذت في النسك والعبادة.

ثم إن الشعهر وكان عيشته من الثمار رأى كثر أكلها منها فقال لها: لقد ظننت إن رأيت قلة الثمار أن الشجر لم يحل هذا العالم لقلة الماء، فلما رأيت أكلك إيها وأنت صاحبة لحم ورفضك رزقك وما قسم الله لك وتحولك إلى رزق غيرك فانتقصته ودخلت عليه فيه فعلمت أن الشجرة قد أثمر كما كان يثمر فيما خلا، وإنما أنت قلة الثمر في ذلك من قبلك. فويل للشجر والثمار ولمن كان عيشه منها ما أسرع هلاكهم ودمارهم إذ قد نازعهم في ذلك من لا حق له فيها ولا نصيب، وغلبهم عليها من كان معتاداً لأكل اللحوم. فانصرفت اللبوة عن أكل الثمار وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف لمكروه حل به عن ضرر الناس كاللبوة التي تركت بما لقبت في شيلبيها عن أكل لحوم الوحوش ثم عدلت لقول الشعهر عن أكل الثمار فأكلت الحشيش وأقبلت على النسك والعبادة.

ثم قال الفيلسوف للملك: فالناس أحق بحسن النظر في ذلك والأخذ بالذي لهم الحظ فيه. فإن في ذلك العدل وفي العدل رضا الله والناس.

### باب الناسك والضيف

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت ما ذكرت من امرئ كف عن ضرر غيره لضر يصيبه أو بلية تدخل عليه، فأخبرني إن رأيت عن من يدع عمله الذي يليق به ويشاكله ويطلب سواه فلا يدركه فراجع الذي كان في يده فلا يقدر عليه فيبقى حيران متردداً.

قال الفيلسوف: زعموا أنه كان في أرض الكرخ ناسك مجتهد فنزل به ضيف ذات يوم فدعا بتمر ليطرفه به فأكلا منه جميعاً. ثم إن الضيف قال: ما أطلى هذا الثمر وأطيبه وليس في بلادتي التي أسكنها نخل وبودي أن أخذ منه فأغرسه في أرضنا. قال الناسك: ليس لك في ذلك كبير منفعة، ولعل النخل لا يوافق أرضكم. وبلادكم كثيرة الأثمار مع وخامة الثمر وقلة موافقته للجسد. ثم قال له الناسك: إنه لا يعد سعيداً من احتاج إلى ما لا يجد وليس بمعذور عليه فتشوره لذلك نفسه ويقل عنه صبره ويصل إليه من ثقل ذلك واغتنامه ما يضره ويدله على المشقة عليه. وإنك أنت لعظيم الجد وجزيل الحظ لو قنعت بما رزقت وزهدت فيما لا تظفر به ولا تدرك طلبتك منه. فقال الضيف: وفقت ورشدت وقد سمعت منك كلاماً غريباً أعجبنى واستحسنته. فلو علمتنيه فإن لي فيه رغبة وفي علمه حرصاً. فقال الناسك: ما أخلقك أن تقع بما تركت من كلامك وتكلفت من كلام العربانية في مثل ما أصاب الغراب.

قال الضيف: وكيف كان ذلك؟

قال الناسك: زعموا أن غراباً رأى مرة حجلة تمشي فأعجبته مشيتها وطمع في تعلمها وراض نفسه عليها فلم يقدر على إحكامها. فانصرف إلى مشيته التي كان عليها فإذا هو قد نسيها فصار حيران متردداً لم يدرك ما طلب ولم يحسن لما كان في يديه فصار أقبح الطير مشياً.

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك خليك إذ تركت لسانك الذي طبعت عليه وتكلفت عليه وتكلفت علم ما لا يشاكلك من كلام العبرانية ألا تدركه وتنسى الذي كان في يديك من غيره. فإنه قد قيل: "يعد جاهلاً من حاول من الأمور ما لا يشبهه وليس من أهله ولم يدركه أبأوه ولا أجداده من قبله ولم يعرفوا به قبلاً".

قال الفيلسوف للملك: إن الولاة في قلة تعاهدهم الرعية في هذا وأشباهه اليوم أسوأ تدبيراً لانتقال الناس من بعض المنازل إلى بعض وتركهم منها ما قد لزموه وجرت لهم المعاش فيه من قبل الملوك، والتماس أهل الطبقة السفلى مراتب الطبقة العليا وانتشار الأمور وفساد الأدب ومنازعة اللئيم للكريم. ثم الأشياء تجري على مثال ذلك حتى تنتهي إلى الخطر العظيم الجسيم من مزاحمة الملك في ملكه ومضادته فيه.

### باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

قال الملك للفيلسوف: قد سمعت هذا المثل فاضرب لي مثلاً في شأن الرجل الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه.

قال الفيلسوف: إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

قال الملك: وما مثلهم؟

قال الفيلسوف: زعموا أن حمامة كانت تفرّخ في رأس نخلة طويلة ذاهبة في السماء. فكانت الحمامة إذا شرعت في نقل العيش إلى رأس تلك النخلة لا يمكنها ذلك إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها. فإذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها. فإذا فسقت وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت علمه يقدر ما ينهض فراخها فيقف بأصل النخلة فيصيح بها ويتوعدّها أن يرقى إليها فتلقّي إليه فراخها.

فبينما هي ذات يوم وقد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامة كنيبة حزينة شديدة الهم قال لها: يا حمامة ما لي أراك كاسفة البال سيئة الحال؟ فقالت له: يا مالك الحزين، إن ثعلباً دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يهددني ويصيح في أصل النخلة فأفرق منه فأطرح إليه فرخي. قال اله مالك الحزين: إذا أتاك ليفعل ما تقولين فقول لي: لا ألقى إليك فرخي فأرق إليّ وغرر بنفسك. فإذا فعلت ذلك وأكلت فرخي طرت عنك ونجوت بنفسك.

فلما علمها مالك الحزين هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر. فأقبل الثعلب في الوقت الذي عرف فوقف تحتها ثم صاح كما كان يفعل. فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين. فقال لها الثعلب: أخبريني من علمك هذا؟ قالت: علمني مالك الحزين.

فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفاً، فقال له الثعلب: يا مالك الحزين إذا أنتك الريح عن يمينك أين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن شمالي. قال: فإذا أنتك عن شمالك أين تجعل رأسك؟ قال: أجعله عن يميني أو خلفي. قال: فإذا أنتك من كل مكان ومن كل ناحية أين تجعله؟ قال: أجعله من تحت جناحي. قال: وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك؟ ما أراه ينهي لك. قال: بلى. قال: فأرني كيف تصنع. فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا. إنكن تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري في سنة وتبلغ ما لا تبلغ وتدخلن رؤوسكن تحت أجنتكن من البرد والريح فهنيئاً لكنّ. فأرني كيف تصنع. فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه فوثب عليه الثعلب فأهذه فهمزه همزة دق بها صلبه ثم قال له: يا عدو نفسه ترى الرأي للحمامة وتعلمها الحيلة لنفسها وتعجز عن ذلك لنفسك حتى يتمكن منك عدوك، ثم قتله وأكله.



## خاتمة الكتاب

فلما انتهى الملك والفيلسوف إلى باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين سكّت الملك وقال الفيلسوف: عشت أيها الملك ألف سنة وملكت الأقاليم السبعة وأعطيت من كل شيء سبباً وبلغت منك في السرور برعتك ومنهم قرة عين بك ومساعدة من القضاء والقدر، فإنك قد كمل فيك الحلم وذكا منك العقل والحفظ وتم فيك البأس والجود، واتفق منك العقل والقول والنية، ولا يوجد في رأيك نقص ولا في قولك سقط ولا في فعلك عيب، وجمعت النجدة واللين فلا توجد جباناً عند اللقاء ولا ضيق الصدر بما يوثق بك من الأشياء. وقد شرحت لك الأمور ولخصت لك جواب ما سألتني عنه منها. واجتهدت لك في رأيي ونظري ومبلغ فطنتي التماس قضاء حاجتك. فاقض حقي بحسن النية بإعمال فكرك وكرم طبيعتك وعقلك فيما وصفت لك. إنه ليس الأمر بالخير بأسعد به من المطيع له فيه. ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له بها. ولا المتعلم بأبعد من العلم ممن يعلمه. ومن تدبر هذا الكتاب بعقله وأعمل فيه رأييه بأصالة من فكرته كان قمناً للمراتب العظام والأمور الجسام مع مساعدة القدر ووقته إذا حضر فلا يسأم أمراً وكيف عن النظر فيه والتدبر له.

والله يوفقك أيها الملك ويسددك ويصلح منك ما كان فاسداً ويسكن من غرب حديثك ما كان حاداً، وتسليم الرحمة على أرواحك وأرواح آبائك الطاهرين الماضين معشر أهل بيت العقل والأدب والفضل والجود والكرم.